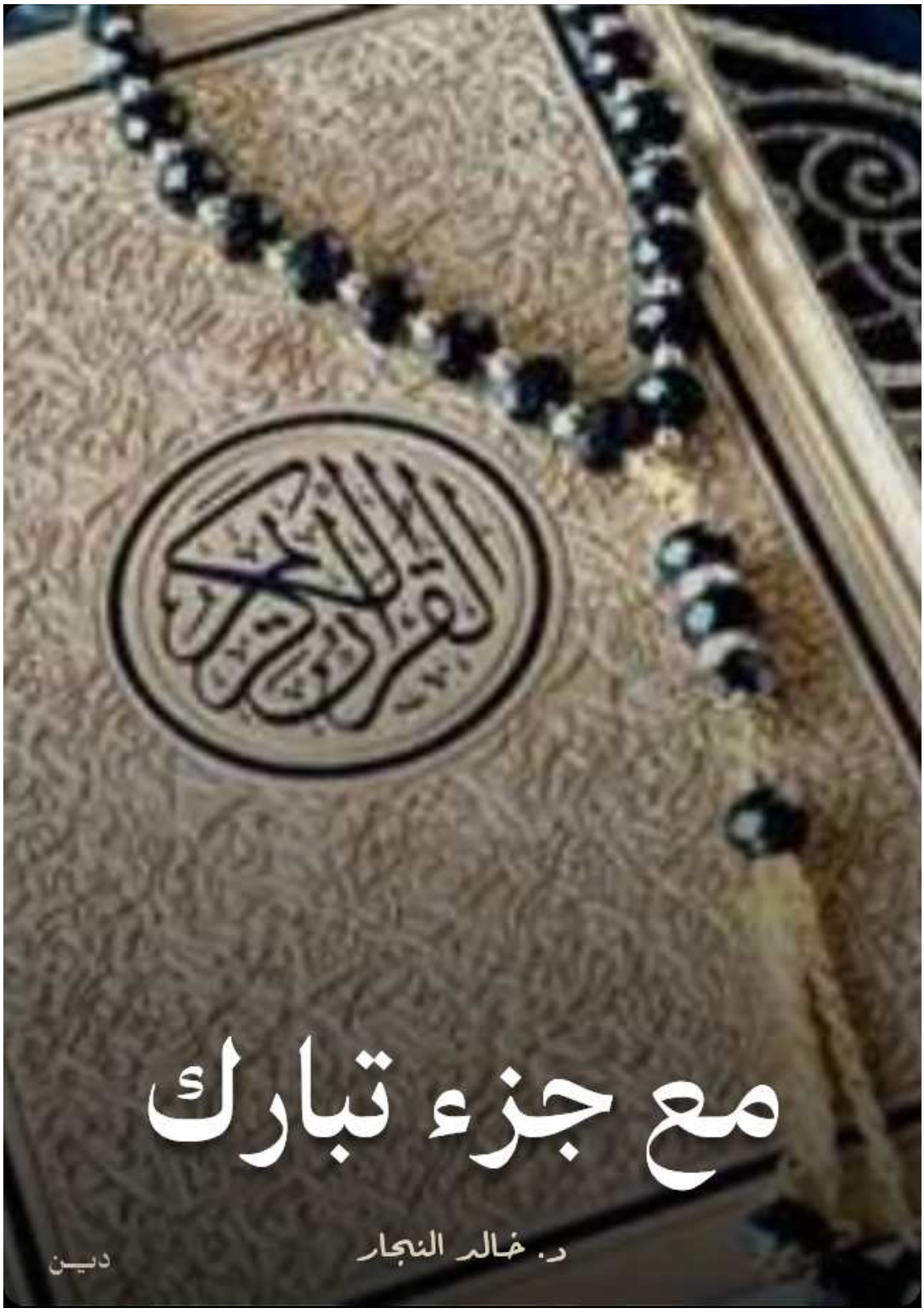




PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

# مع جزء تبارك

## خالد النجار

جمع وترتيب

د/ خالد سعد النجار

alnaggar66@hotmail.com

٠٠٢٠١٢٢٩٥٩٦٦٥٨

مصر



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بسم الله الرحمن الرحيم

# مع سورة الملك

سماها النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– «سورة تبارك الذي بيده الملك» في حديث رواه ابن ماجة والترمذي وغيرهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– عَنْ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (إِنَّ سُورَةً فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا حَتَّى غُفِرَ لَهُ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) [حسن] فهذا تسمية للسورة بأول جملة وقعت فيها فتكون تسمية بجملة كما سمي ثابت بن جابر تأبط شرا. وذلك قصدا للفرق بينهما وبين تبارك الفرقان.

وفي الترمذي عَنْ جَابِرٍ «أَنَّ النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كَانَ لَا يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَ الم تَنْزِيلُ، وَتَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ» [صحيح]

والشائع في كتب السنة وكتب التفسير وفي أكثر المصاحف تسمية هذه السورة «سورة الملك» وكذلك ترجمها الترمذي: «باب ما جاء في فضل سورة الملك». وكذلك عنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه.

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال كنا نسميها على عهد رسول الله «المانعة»، أي أخذا من وصف النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إياها بأنها المانعة المنجية كما في حديث الترمذي المذكور آنفا، وليس بالصريح في التسمية.

وهي مكية قال ابن عطية والقرطبي: باتفاق الجميع، وهي السادسة والسبعون في عداد نزول السور نزلت بعد سورة المؤمنين وقبل سورة الحاقة. وآيها في عد أهل الحجاز إحدى وثلاثون، وفي عد غيرهم ثلاثون.

## تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)

{تَبَارَكَ} يدل على المبالغة في وفرة الخير، وهو في مقام الثناء يقتضي العموم بالقرينة، أي يفيد أن كل وفرة من الكمال ثابتة لله تعالى بحيث لا يتخلف نوع منها عن أن يكون صفة له تعالى.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أي: تكاثرت البركات والخيرات من قبله، وهذا يستلزم عظمته وتقديسه. وهو مشتق من البركة، وهي زيادة الخير ووفرته.

وهذا الكلام يجوز أن يكون مرادا به مجرد الإخبار عن عظمة الله تعالى وكماله، ويجوز أن يكون مع ذلك إنشاء ثناء على الله أثناه على نفسه، وتعليما للناس كيف يثنون على الله ويحمدونه كما في: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة:٢]

{الَّذِي} جعل المسند إليه اسم موصول للإيذان بأن معنى الصلة مما اشتهر به كما هو غالب أحوال الموصول، فصارت الصلة مغنية عن الاسم العلم لاستوائهما في الاختصاص به إذ يعلم كل أحد أن الاختصاص بالملك الكامل المطلق ليس إلا لله.

{بِيَدِهِ الْمُلْكُ} الذي يتصرف في عالم الملك بيد قدرته، لا يتصرف فيه غيره، فبيده كل ما وجد من الأجسام، لا بيد غيره، يصرفها كما يشاء. ويدل له قوله تعالى: {فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [يس:٨٣]

وذكر {الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} هنا نظير ذكر مثله عقب نظيره في قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} إلى قوله: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [الفرقان ١-٢]

والتعريف في {الْمُلْكُ} على هذا الوجه تعريف الجنس الذي يشمل جميع أفراد الجنس، وهو الاستغراق فما يوجد من أفراده فرد إلا وهو مما في قدرة الله فهو يعطيه وهو يمنعه.

وتقديم المسند وهو {بِيَدِهِ} على المسند إليه لإفادة الاختصاص، أي الملك بيده لا بيد غيره.

وهو قصر ادعائي مبني على عدم الاعتداد بملك غيره، ولا بما يتراءى من إعطاء الخلفاء والملوك الأصقاع للأمراء والسلاطين وولاة العهد لأن كل ذلك ملك غير تام لأنه لا يعم المملوكات كلها، ولأنه معرض للزوال، وملك الله هو الملك الحقيقي، قال: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ} [طه:١١٤] فالناس يتوهمون أمثال ذلك ملكا وليس كما يتوهمون.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} وهو القادر على كل ما عدم من الممكنات، يوجدها على ما يشاء.

قال ابن جرير: أي: تعاظم الذي بيده ملك الدنيا والآخرة، وسلطانهما، نافذ فيهما أمره وقضاؤه، وهو على ما يشاء فعله ذو قدرة لا يمنعه مانع، ولا يحول بينه وبينه عجز.

وقال القاشانيّ: المُلك عالَم الأجسام، كما أن الملكوت عالم النفوس؛ ولذلك وصف ذاته باعتبار تصريفه عالم الملك، بحسب مشيئته بالتبارك، الذي هو غاية العظمة، ونهاية الازدياد في العلوّ والبركة، وباعتبار تسخيره عالم الملكوت، بمقتضى إرادته بالتسبيح، الذي هو التنزيه، كقوله تعالى: {فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ} [يس:٨٣] كلاً بما يناسبه، لأن العظمة والازدياد والبركة تناسب الأجسام، والتنزه يناسب المجردات عن المادة.

وقال ابن عاشور: معطوفة على جملة {بِيَدِهِ الْمُلْكُ} التي هي صلة الموصول وهي تعميم بعد تخصيص لتكميل المقصود من الصلة، إذ أفادت الصلة عموم تصرفه في الموجودات، وأفادت هذه عموم تصرفه في الموجودات والمعدومات بالإعدام للموجودات والإيجاد للمعدومات، فيكون قوله: {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} مفيدا معنى آخر غير ما أفاده قوله: {بِيَدِهِ الْمُلْكُ} تفادي من أن يكون معناه تأكيدا لمعنى {بِيَدِهِ الْمُلْكُ} وتكون هذه الجملة تتميما للصلة.

وقال: وتقديم المجرور في قوله: {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} للاهتمام بما فيه من التعميم، ولإبطال دعوى المشركين نسبتهم الإلهية لأصنامهم مع اعترافهم بأنها لا تقدر على خلق السماوات والأرض ولا على الإحياء والإماتة.

## الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)

{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ} قدر الموت والحياة، فأمات من شاء وما شاء، وأحيى من أراد وما أراد، إلى أجل معلوم.. أو أوجد الحياة، وأزالها حسبما قدّره.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقدم الموت على الحياة؛ لأن الموت في علم الملك ذاتيّ، والحياة عرضية. وقيل: إن أريد به العدم السابق فتقدمه ظاهر، لسبقه على الوجود، أو العدم اللاحق فتقديمه لأن فيه عظة وتذكرة، وردعاً عن ارتكاب المعاصي.

وجعل للعالم موتتين وإحياءتين وبينه بقوله تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة:٢٨] فسمى الحال الأول –وهو العدم–موتًا. وسمى هذه النشأة حياة.

وأوثر بالذكر من المخلوقات «الموت والحياة» لأنهما أعظم العوارض لجنس الحيوان الذي هو أعجب الموجود على الأرض والذي الإنسان نوع منه، وهو المقصود بالمخاطبة بالشرائع والمواعظ، فالإماتة تصرف في الموجود بإعداده للفناء، والإحياء تصرف في المعدوم بإيجاده ثم إعطائه الحياة ليستكمل وجود نوعه.

أيضا وأوثر ذكر الموت والحياة لما يدلان عليه من العبرة بتداول العرضين المتضادين على معروض واحد، وللدلالة على كمال صنع الصانع.

{لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} خير عملا من غيره، فالأعمال الحسنة متفاوتة في الحسن إلى أدناها، فأما الأعمال السيئة فإنها مفهومة بدلالة الفحوى لأن البلوى في أحسن الأعمال تقتضي البلوى في السيئات بالأولى لأن إحصاءها والإحاطة بها أولى في الجزاء لما يترتب عليها من الاجتراء على الشارع، ومن الفساد في النفس، وفي نظام العالم، وذلك أولى بالعقاب عليه.

قال محمد بن عَجْلان: ولم يقل أكثر عملا.

واللام لام التعليل، أي في خلق الموت والحياة حكمة أن يبلوكم أيكم أحسن عملا، وأيكم أقبح عملا.. والبلوى: الاختبار.

{وَهُوَ الْعَزِيزُ} العظيم المنيع الجناب، الغالب الذي يقهر من أساء العمل.

أو هو الغالب الذي لا يعجز عن شيء، وذكره مناسب للجزاء المستفاد من قوله: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} أي ليجزيكم جزاء العزيز، فعلم أن المراد الجزاء على المخالفات والنكول عن الطاعة. وهذا حظ المشركين الذين شملهم ضمير الخطاب في قوله: {لِيَبْلُوَكُمْ}



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{الْغَفُورُ} فهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأناب، بعدما عصاه وخالف أمره، وإن كان تعالى عزيزا، هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز.

أو هو الذي يكرم أولياءه ويصفح عن فلتاتهم فهو مناسب للجزاء على الطاعات وكناية عنه، قال تعالى: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى} [طه:٨٢] فهو إشارة إلى حظ أهل الصلاح من المخاطبين.

**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)**

{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} صفة ثانية للذي بيده الملك، أعقب التذكير بتصرف الله بخلق الإنسان وأهم أعراضه بذكر خلق أعظم الموجودات غير الإنسان وهي السماوات، ومفيدة وصفا من عظيم صفات الأفعال الإلهية ولذلك أعيد فيها اسم الموصول لتكون الجمل الثلاث جارية على طريقة واحدة.

{طِبَاقًا} طبقة بعد طبقة، بعضها فوق بعض.

ولفظ السماء يطلق لغة على كل ما علا الْإِنْسَانْ، فإنه من السموّ، وهو العلو، فسقف البيت سماء، ومنه قوله تعالى: {فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ} [الحج:١٥] أي: فليمدد بحبل إلى سقف بيته، وهذا الفضاء اللانهائي سماء، ومنه قوله تعالى: {كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء} [إبراهيم:٢٤] والسحاب سماء، ومنه قوله تعالى: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء} [البقرة:٢٢]

{مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ} عام في جميع مخلوقاته من معنى الاستواء والحكمة والدقة في الصنع، وتدخل السماوات في ذلك بدليل قوله تعالى: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} [النمل:٨٨]. وإتقان كل شيء بحسبه كما في قوله: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه:٥٠] وقوله: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ} [السجدة:٧].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{الرَّحْمَنِ} أضاف خلق السماء إلى الرحمن، لأنها من أصول النعم الظاهرة، ومبادئ سائر النعم الدنيوية.

فالتعبير بوصف {الرَّحْمَنِ} دون اسم الجلالة إيماء إلى أن هذا النظام مما اقتضته رحمته بالناس لتجري أمورهم على حالة تلائم نظام عيشهم، لأنه لو كان فيما خلق الله تفاوت لكان ذلك التفاوت سببا لاختلال النظام فيتعرض الناس بذلك لأهوال ومشاق، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [الأنعام:٩٧] وقال: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [يونس:٥].

وأيضا في ذلك الوصف تعريض بالمشركين إذ أنكروا اسمه تعالى: {الرَّحْمَنِ} {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً} [الفرقان:٦٠].

{مِنْ تَفَاوُتٍ} لا نقص ولا عيب ولا خلل، أو تخالف وعدم تناسب في رعاية الحكم، بل راعاها في كل خلقه. فسلب التفاوت عنها لمطابقة بعضها بعضاً، وحسن انتظامها وتناسبها.

وأصل الكلام: "ما ترى فيهن ولا في خلق الرحمن من تفاوت"، فعبر بخلق الرحمن لتكون الجملة تذييلا لمضمون جملة {خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً}، لأن انتفاء التفاوت عما خلقه الله متحقق في خلق السماوات وغيرها.

والمقصود منه التعريض بأهل الشرك إذ أضاعوا النظر والاستدلال بما يدل على وحدانية الله تعالى بما تشاهده أبصارهم من نظام الكواكب، وذلك ممكن لكل من يبصر، قال تعالى: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ} [ق:٦]

{فَارْجِعِ} رجع البصر: تكريره، وأصل الرجع: العود إلى الموضع الذي يجاء منه.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{الْبَصَرَ} إن شككت فكرِّر النظر، والأمر بالنظر ليكون نفي التفاوت معلوما عن يقين دون تقليد للمخبر.. والبصر مستعمل في حقيقته. والمراد به البصر المصحوب بالتفكر والاعتبار بدلالة الموجودات على موجدها.

وصيغة الأمر مستعملة في الإرشاد للمشركين مع دلالته على الوجوب للمسلمين فإن النظر في أدلة الصفات واجب لمن عرض له داع إلى الاستدلال.

{هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ} جمع فَطْر، وهو الشق والصدع، أي لا يسعك إلا أن تعترف بانتفاء الفطور في نظام السماوات فتراها ملتئمة محبوكة لا ترى في خلالها انشقاقا، ولذلك كان انفطار السماء وانشقاقها علامة على انقراض هذا العالم ونظامه الشمسي يوم القيامة، قال تعالى: {وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً} [النبأ:١٩] {إِذَا السماء انْفَطَرَتْ} [الانفطار:١] {إِذَا السماء انْشَقَّتْ} [الانشقاق:١] {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بِالْغَمامِ} [الفرقان:٢٥]، ونحو ذلك من الآيات.

{ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ} كرره {كَرَّتَيْنِ} تثنية كرة وهي المرة وعبر عنها هنا بالكرة مشتقة من الكر وهو العود لأنها عود إلى شيء بعد الانفصال عنه ككرة المقاتل يحمل على العدو بعد أن يفر فرارا مصطنعا.

أي رجعتين أخريين، ابتغاء اكتشاف الخلل والفساد والعبث. والمراد بالتثنية التكرير لأن تكرار النظر، وتجوال الفكر، مما يفيد تحقق الحقائق.

قال أهل التفسير: "وإيثار لفظ كرتين في هذه الآية دون مرادفة نحو مرتين وتارتين لأن كلمة (كرة) لم يغلب إطلاقا على عدد الاثنين، فكان إيثارها في مقام لا يراد فيه اثنين أظهر في أنها مستعملة في مطلق التكرير دون عدد اثنين أو زوج وهذا من خصائص الإعجاز، ألا ترى أن مقام إرادة عدد طلقات الزوج كان مقتضيا تثنية مرة في قوله تعالى: {الطَّلاقُ مَرَّتَانِ} [البقرة: ٢٢٩] لأنه أظهر في إرادة العدد إذ لفظ مرة أكثر تداولا.

فتثنية {كَرَّتَيْنِ} ليس المراد بها عدد الاثنين الذي هو ضعف الواحد إذ لا يتعلق غرض بخصوص هذا العدد، وإنما التثنية مستعملة كناية عن مطلق التكرير فإن من



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

استعمالات صيغة التثنية في الكلام أن يراد بها التكرير وذلك كما في قولهم لبيك وسعديك، يريدون تلبيات كثيرة وإسعادا كثيرا، وقولهم: دواليك"

فالمنصوص هنا إرجاع البصر كرتين ولكن حقيقة النظر أربع مرات:

الأولى في قوله: {ما تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ}.

والثانية في قوله: {فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}.

والثالثة والرابعة في قوله: {ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ}.

وليس بعد معاودة النظر أربع مرات من تأكيد.

{يَنْقَلِبْ} يرجع، والانقلاب: الرجوع يقال: انقلب إلى أهله، أي رجع إلى منزله قال تعالى: {وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ} [المطففين:٣١] وإيثار فعل {ينقلب} هنا دون: يرجع، لئلا يلتبس فعل {ارْجِعِ} المذكور قبله. وهذا من خصائص الإعجاز.

{إِلَيْكَ الْبَصَرُ} وضع للظاهر موضع المضمر للتنبيه على أن الذي يرجع خاسأ حسيراً غير مدرك الفطور، وهو الآلة التي يلتمس بها إدراك ما هو كائن، فإذا لم يدرك شيء، دل على أنه لا شيء .

{خَاسِئًا} خائبا مطروداً عن إصابة المطلوب {وَهُوَ حَسِيرٌ} كليل عاجز قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرر، ولا يرى نقصًا.

وإذا كان طلب الخروق والشقوق، لا يفيد إلا الخسوء والحسور، تحقق الامتناع، «وما أتعب من طلب وجود الممتنع».

ولما نفى عنها في خلقها النقص بين كمالها وزينتها فقال:

## وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥)

{وَلَقَدْ} قد: تفيد التحقيق والتأكيد {زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ} وهي النجوم. وجعلها {مَصَابِيحَ} لإضاءتها، تشبيه على حسن المنظر فهو تشبيه بليغ. وعدل عن تعريف "مصابيح" باللام إلى تنكيره لما يفيده التنكير من التعظيم.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{الدُّنْيَا} تأنيث الأدنى، أي: السماء الموالية للأرض، ومفهومه أن بقية السماوات ليست فيها مصابيح التي هي النجوم والكواكب كما قال: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ} [الصافات:٦] ويدل لهذا لمفهوم ما جاء به عن قتادة قال: "إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها الله زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به".

وهذه الأمور الثلاثة تتعلق بالسماء الدنيا لأن الشياطين لا تنفذ إلى السماوات الأخرى لأنها أجرام محفوظة كما في حديث الإسراء "لها أبواب وتطرق ولا يدخل منها إلا بإذن" كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السماء} [الأعراف ٤٠].

وكذلك ليس هناك من يحتاج إلى اهتداء بها في سيره لأن الملائكة كل في وضعه الذي أوجده الله عليه، ولأن الزينة لن ترى لوجود جرم السماء الدنيا فثبت أن النجوم خاصة بالسماء الدنيا.

{وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ} قال ابن كثير: عاد الضمير في قوله تعالى: {وَجَعَلْنَاهَا} على جنس المصابيح، لا على عينها؛ لأنه لا يرمي بالكواكب التي في السماء، بل بشهب من دونها، وقد تكون مستمدة منها. والله أعلم.

والشهب من النار، وأصل الشهب النار كما في قوله {أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} [النمل:٧]، والرجوم والشهب هي التي ترمي بها الشياطين عند استراق السمع كما في قوله تعالى {فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً} [الجن:٩]

والآية بمعنى آية الصافات: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} [الصافات:٦-١٠]

{وَأَعْتَدْنَا} هيأنا، قلبت الدال الأولى تاء لتقارب مخرجيها ليأتي الإدغام طلبا للخفة.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} من: سعر النار، إذا أوقدها وهو لهب النار، وكان السعير عذابا لشياطين الجن مع كونهم من عنصر النار لأن نار جهنم أشد من نار طبعهم، فإذا أصابتهم صارت لهم عذابا.

وتسمية عذابهم {السعير} دون النار، أو جهنم مراد لهذا المعنى ومثله قوله تعالى في عذاب الجن: {وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ} [سبأ: ١٢] وقال: {إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [فاطر: ٦] يعني الشيطان.

قال الفخر الرازي: إن النار يكون بعضها أقوى من بعض فالأقوى يؤثر على الأضعف ومما يشهد لما ذهب إليه قوله تعالى بعده: {وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} [تبارك: ٥] والسعير أشد النار.

ومعلوم أن النار طبقات بعضها أشد من بعض، وهذا أمر ملموس فقد تكون الآلة مصنوعة من حديد وتسلط عليها آلة من حديد أيضا أقوى منها فتكسرها.

كما قيل: "لا يقل الحديد إلا الحديد" فلا يمنع كون أصله من نار ألا يتعذب بالنار كما أن أصل الإنسان من طين من حما مسنون ومن صلصال كالفخار وبعد خلقه فإنه لا يحتمل التعذيب بالصلصال ولا بالفخار فقد يقضي عليه بضربة من قطعة من فخار والعلم عند الله تعالى.

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩)

{وَ} أعتدنا {لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ} هذا تتميم لئلا يتوهم أن العذاب أعد للشياطين خاصة.

قال الناصر: هذا من الاستطراد؛ لما ذكر وعيد الشياطين استطرد ذلك وعيد الكافرين عموماً.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} المآل والمنقلب والمرجع.

{إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا} أطلق على صوت التهاب نار جهنم الشهيق تفظيعا له.

وقيل: صياحا لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها، من الأصوات المنكرة المنافية لأصوات الأناسيّ، أو لأنفسهم، فإنهم يَصطرخون فيها بأصوات الحيوانات المنكرة الصوت، كقوله: {لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} [هود:١٠٦]

{وَهِيَ تَفُورُ} تغلي بهم وترتفع ألسنة لهيبها.. قال الثوري: تغلي بهم كما يغلي الحَبّ القليل في الماء الكثير.

{تَكَادُ تَمَيَّزُ} تتفرق وتتقطع أجزاؤها.. دلالة على شدة الاضطراب بأن أجزاءها قاربت أن تتقطع.

{مِنَ الْغَيْظِ} الغيظ: أشد الغضب.. أي: غيظا على الذين أغضبوا الله ورسوله، شبهت في شدة غليانها وقوة تأثيرها في أهلها بإنسان شديد الغيظ على غيره، مبالغ في إيصال الضرر إليه.

وفي هذه الآية إثبات أن للنار حسا وإدراكا وإرادة، فالقرآن أثبت للنار أنها تغتاظ وتبصر وتتكلم وتطلب المزيد كما قال هنا: {تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ}. وقال: {إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً} [الفرقان:١٢] وقال: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} [ق:٣٠].

{كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ} في كل وقت إلقاء جماعة يسألهم خزنتها.

{سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا} خزنة النار: الملائكة الموكل إليهم أمر جهنم وهو جمع خازن للموكل بالحفظ، وأصل الخازن: الذي يخزن شيئا، أي يحفظه في مكان حصين.

فبين تعالى أن للنار خزنة، وقد بين تعالى أن هؤلاء الخزنة هم الملائكة الموكلون بالنار، كما في قوله تعالى: {عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ} [التحريم:٦].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

كما بين عدتهم في قوله تعالى: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} [المدثر:٣٠] وقال: {وَما جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَما جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} [المدثر:٣١].

ودلت هذه الآية على أن أهل النار يدخلونها جماعة بعد جماعة كما في قوله تعالى: {كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا} [الأعراف:٣٨].

{أَلَمْ} الاستفهام للتوبيخ والتنديم ليزيدهم حسرة {يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ} منذر في الدنيا ينذركم هذا العذاب.

وهذه الآية تدل على أن الله تعالى لا يعذب بالنار أحدا إلا بعد أن ينذره في الدنيا، كقوله تعالى: {وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [الإسراء:١٥]

وقوله: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [الزمر:٧١]

{قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ} اعترفوا بمجيء النذير إليهم. وقد بين تعالى ذلك في قوله: {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ} [فاطر:٢٤].

كان جوابهم جواب المتحسر المتندم، فابتدأوا الجواب دفعة بحرف {بلى} المفيد نقيض النفي في الاستفهام فهو مفيد معنى: جاءنا نذير. ولذلك كان قولهم: {قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ} مؤكدا لما دلت عليه {بلى}، وهو من تكرير الكلام عند التحسر، مع زيادة التحقيق بـ {قَدْ} وذلك التأكيد هو مناط الندامة والاعتراف بالخطأ.

{فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ} ضلال شديد بالغ غاية ما يبلغ إليه جنسه حتى كأنه جسم كبير.

أي: فكذبنا الرسل، وأفرطنا في التكذيب، حتى نفينا الإنزال والإرسال رأساً، وبالغنا في نسبتهم إلى الضلال.

وأوتي بضمير جمع المخاطبين {أنتم} مع إن لكل قوم رسولا واحدا في الغالب باستثناء موسى وهارون وباستثناء رسل أصحاب القرية المذكورة في سورة يس، على إرادة شمول الضمير للنذير وأتباعه الذين يؤمنون بما جاء به.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢)

{وَقَالُوا} أعيد فعل القول للإشارة إلى أن هذا كلام آخر غير الذي وقع جوابا على سؤال خزنة جهنم، وإنما هذا قول قالوه في مجامعهم في النار تحسرا وتندما، أي وقال بعضهم لبعض في النار فهو من قبيل قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَضَلُّونَا} [الأعراف:٣٨]

{لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ} سماع تعقل وتفهم من النذر ما جاءت به، وسماع طالب الحق، وعقل من نبذ الهوى.

فهم يسمعون ولكن لا يسمعون ما ينفعهم في الآخرة، ويعقلون ولكن لا يعقلون ما ينفعهم في الآخرة، لأن الله قال: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ} [البقرة:٧]. وقال: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً} [الكهف:٥٧]

و {أَوْ} للتقسيم وهو تقسيم باعتبار نوعي الأحوال التي تقتضي حسن الاستماع تارة إذا ألقي إليها إرشاد، وحسن التفهم والنظر تارة إذا دعيت إلى النظر من داع غير أنفسها، أو من دواعي أنفسها، قال تعالى: {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر:١٨].

وهناك عدة نصوص صريحة في ذلك منها أن أصل خلقتهم كاملة كما في قوله تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً} [الإنسان:٢] وفي آخر سورة الملك هذه قوله: {قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ} [الملك:٢٣].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ولكنهم سمعوا وعصوا كما في قوله: {سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ} [البقرة:٩٣] وهذا وإن كان في بني إسرائيل إلا أنه قال لهذه الأمة {وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ} [الأنفال:٢١].

وقال تعالى عنهم: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} [الأنفال:٣١].

وقوله عنهم: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ} [فصلت:٢٦].

وقد بين تعالى سبب عدم استفادتهم بما يسمعون في قوله تعالى: {وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً} [الجاثية:٧-٩].

وقوله: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [لقمان:٧].

{مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} في عداد أهل النار.

ووجه تقديم السمع على العقل بمنزلة الكلي والسمع بمنزلة الجزئي ورعيا للترتيب الطبيعي لأن سمع دعوة النذير هو أول ما يتلقاه المنذرون، ثم يعملون عقولهم في التدبير فيها.

وقال الزمخشريّ: قيل: إنما جمع بين السمع والعقل، لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل.

روى الإمام أحمد عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ الطَّائِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: (لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) [صحيح]

وروى أيضا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ النَّارَ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، لَوْ أَحْسَنَ لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةً، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ لَوْ أَسَاءَ لِيَزْدَادَ شُكْرًا).



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال ابن عاشور: "ولا شك أن أقل الناس عقلا المشركون لأنهم طرحوا ما هو سبب نجاتهم لغير معارض يعارضه في دينهم، إذ ليس في دين أهل الشرك وعيد على ما يخالف الشرك من معتقدات، ولا على ما يخالف أعمال أهله من الأعمال، فكان حكم العقل قاضيا بأن يتلقوا ما يدعوهم إليه الرسل من الإنذار للامتثال إذ لا معارض له في دينهم لولا الإلف والتكبر، بخلاف حال أهل الأديان اتباع الرسل الذين كانوا على دين فهم يخشون إن أهملوه أن لا يغني عنهم الدين الجديد شيئا فكانوا إلى المعذرة أقرب لولا أن الأدلة بعضها أقوى من بعض".

{فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ} فأقروا بجحدهم الحق وتكذيبهم الرسل.

{فَسُحْقًا} فبعداً.. دعاء بالإبعاد، أي أسحقهم الله إسحاقا، ويجوز أن يراد من هذا الدعاء التعجب من حالهم كما يقال: "قاتله الله"، و"ويل له"، في مقام التعجب.

ويحتمل أيضا أن يقال لهم يوم الحساب عقب اعترافهم، تنديما يزيدهم ألما في نفوسهم فوق ألم الحريق في جلودهم.

{لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ} لأن اعترافهم وإيمانهم بعد فوات الأوان بالمعاينة، كما جاء في حق فرعون في قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [يونس:٩٠]، فقيل له: {آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس:٩١]

وجاء أصرح ما يكون في قوله: {يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِهَا خَيْراً} [الأنعام:١٥٨].

فلما جاء بعض آيات الله وظهر الحق لم يكن للإيمان محل بعد المعاينة {لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُهَا} كحالة فرعون المذكورة لأن حقيقة الإيمان التصديق بالمغيبات فإذا عاينها لم تكن حينذاك غيبا فيفوت وقت الإيمان، والعلم عند الله، وعليه حديث التوبة: قال –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ) [أحمد بسند حسن]

{إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ} يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائبًا عن الناس، فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات، حيث لا يراه أحد إلا الله، بأنه له



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

مغفرة وأجر كبير، أي: يكفر عنه ذنوبه، ويجازى بالثواب الجزيل، كما ثبت في الصحيحين: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ)، فذكر منهم: (وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ).

{لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} والآية اعتراض يفيد استئنافا بيانيا جاء على سنن أساليب القرآن من تعقيب الرهبة بالرغبة، فلما ذكر ما أعد للكافرين المعرضين عن خشية الله أعقبه بما أعد للذين يخشون ربهم بالغيب من المغفرة والثواب للعلم بأنهم يترقبون ما يميزهم عن أحوال المشركين.

وقدم المغفرة تطمينا لقلوبهم لأنهم يخشون المؤاخذة على ما فرط منهم من الكفر قبل الإسلام ومن اللمم ونحوه، ثم أعقبت بالبشارة بالأجر العظيم، فكان الكلام جاريا على قانون تقديم التخلية، أو تقديم دفع الضر على جلب النفع، والوصف بالكبير بمعنى العظيم نظير ما تقدم آنفا في قوله: {إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ} [الملك: ٩]. وتنكير {مَغْفِرَةٌ} للتعظيم بقرينة مقارنته بـ {أَجْرٌ كَبِيرٌ} وبقرينة التقديم.

والخشية: شدة الخوف، كما قال تعالى: {الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ} [الأنبياء: ٤٩].

وبين تعالى محل تلك الخشية في قوله: {إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَماءُ} [فاطر: ٢٨] لأنهم يعرفون حق الله تعالى ويراقبونه.

وقد بين تعالى حقيقة خشيته فقال: {وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ} [البقرة: ٧٤]

وقوله: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [الحشر: ٢١].

فالذين يخشون ربهم بالغيب هم الذين يعرفون حق الله عليهم ومراقبته إياهم في السر والعلن، ويعلمون أنه مطلع عليهم مهما تخفوا وتستروا، وهم دائما منيبون إلى الله كما في قوله: {هَذَا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بِقَلْبٍ مُنِيبٍ} [ق:٣٢-٣٣]، وهذه أعلى درجات السلوك مع الله تعالى كما بين أنها منزلة العلماء.

وقد عاب تعالى أولئك الذين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله، ويخشون الناس ولا يخشون الله: {فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [التوبة:١٣].

وإفراد الله بالخشية منزلة الأنبياء كما في قوله: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً} [الأحزاب:٣٩].

والواقع أن صفة خشية الله بالغيب، والإيمان بالغيب أساس عمل المسلم كله ومعاملاته لأنه بإيمانه بالغيب سيعمل كل خير طمعا في ثواب الله كما في مستهل المصحف: {الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} [البقرة:١-٣].

وبمخافة الله بالغيب سيتجنب كل سوء فيسلم ويتحصل له ما قال الله تعالى عنهم {مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيما} [الأحزاب:٣٥] {مَغْفِرَةٌ} من ذنوبه {وَأَجْرٌ عَظِيما} على أعماله.. رزقنا الله خشيته في السر والعلن.

وليعلم أن المراد بالغيب مما هو من جانب العبد لا من جانب سيده كما في الحديث في الإحسان (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) [البخاري]، وهذا الإحساس هو أقوى عامل على اكتساب خشية الله سبحانه.

**وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)**

{وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} بما خطر في القلوب والضمائر، فكيف بما نطق به؟!



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وفيه دلالة على أن السر والجهر عند الله وفي علم الله على حد سواء لأنه عليم بذات الصدور، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

كقوله تعالى: {سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} [الرعد:١٠] {وسارب} ظاهر بذهابه في سربه أي طريقه {بالنهار}، وقوله {وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [طه:٧].

{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ} ألا يعلم السر والجهر من خلق الأشياء، والخلق يستلزم العلم.

{وَهُوَ اللَّطِيفُ} بعباده، العالم بخبايا الأمور والمدبر لها برفق وحكمة.

قال الغزاليّ: إنما يستحق اسم اللطيف من يعلم دقائق الأمور وغوامضها وما لطفَ منها، ثم يسلك في إيصال ما يصلحها سبيل الرفق دون العنف.

{الْخَبِيرُ} العليم بأعمالهم الذي لا تعزب عنه الحوادث الخفية التي من شأنها أن يخبر الناس بعضهم بعضا بحدوثها.

فهو سبحانه الذي لا يعزب عن علمه الأمور الباطنة، فلا تتحرك في الملك والملكوت ذرة، ولا تسكن أو تضطرب نفس، إلا وعنده خبرها.

كما قال: {قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ} [التحريم:٣].

قال القرطبي نقلا عن أبي إسحاق الإسفرائيني: من أسماء صفات الذات ما هو للعلم، منها: العليم ومعناه تفهيم جميع المعلومات، ومنها الخبير ويختص بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون، ومنها الحكيم ويختص بأنه يعلم دقائق الأوصاف، ومنها الشهيد ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر، ومعناه ألا يغيب عنه شيء، ومنها الحافظ ويختص بأنه لا ينسى، ومنها المحصي ويختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم مثل ضوء النهار واشتداد الريح وتساقط الأوراق فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات في كل ورقة وكيف لا يعلم وهو الذي يخلق وقد قال {أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا} ليِّنة سهلة المسالك، والذلول فعول بمعنى مفعول وهو مبالغة في الذل. والذلول من الدواب المنقادة المطاوعة، مشتق من الذل



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وهو الهوان والانقياد.. فاستعير الذلول للأرض في تذليل الانتفاع بها مع صلابة خلقها تشبيها بالدابة المسوسة المرتاضة بعد الصعوبة.

وقيل في معنى تذليل الأرض عدة أقوال لا تنافي بينها ومجموعها دائر على تمكين الانتفاع منها عن تسهيل الاستقرار عليها وتثبيتها بالجبال كقوله تعالى: {وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} [النازعات:٣٢-٣٣].

ومن إمكان الزرع فيها كقوله: {فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً} [عبس:٢٧-٢٨] إلى قوله أيضا: {مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}، وقد جمع أكثرها في قوله تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ ماءً فُرَاتاً} [المرسلات:٢٥-٢٧].

فمن تسخير الله تعالى للأرض أن جعلها كفاتا للإنسان في حياته بتسهيل معيشته منها وحياته على ظهرها فإذا مات كانت له أيضا كفاتا بدفنه فيها. ولو شاء الله لجعلها حديدا ونحاسا فلا يستطيع الإنسان أن يحرث فيها ولا يحفر ولا يبني وإذا مات لا يجد مدفنا فيها.

{فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا} في نواحيها وجوانبها، والمنكب هو ملتقى الكتف مع العضد، جعل المناكب استعارة لأطراف الأرض أو لسعتها.

قال ابن جرير: لأن نواحيها نظير مناكب الْإِنْسَانْ التي هي من أطرافه.

والفاء: للسببية أي بسبب تذليلها بتيسير المشي في أرجائها وطلب الرزق في أنحائها بالتسبب فيها من زراعة وصناعة وتجارة إلخ.

والأمر في قوله تعالى: {فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ} للإباحة ولكن التقديم لهذا الأمر بقوله تعالى {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً} فيه امتنان من الله تعالى على خلقه مما يشعر أن في هذا الأمر مع الإباحة توجيها وحثا للأمة على السعي والعمل والجد والمشي في مناكب الأرض من كل جانب لتسخيرها وتذليلها مما يجعل الأمة أحق بها من غيرها.

{وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ} التمسوا من نعمه تعالى.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال الشهاب: فالأكل والرزق أريد به طلب النعم مطلقاً، وتحصيلها أكلاً وغيره، فهو اقتصار على الأهم الأعم، على طريق المجاز أو الحقيقة.

قال: وأنت إذا تأملت نعيم الدنيا وما فيها، لم تجد شيئاً منها على المرء غير ما أكله، وما سواه متمم له، أو دافع للضرر عنه.

قال ابن كثير: في الآية تذكير بنعمته تعالى على خلقه في تسخيره لهم الأرض، وتذليله إياها لهم، بأن جعلها ساكنة لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهيَّأ فيها من المنافع، ومواضع الزرع والثمار. والمعنى: سافِروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات.

وقال ابن عاشور: وكل هذا تذكير بشواهد الربوبية والإنعام ليتدبروا فيتركوا العناد، قال تعالى: {كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} [النحل:٨١].

{وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} قيامكم من قبوركم للحساب والجزاء.

فلما ضرب لهم بخلق أنفسهم دليلا على علمه الدال على وحدانيته شفعه بدليل خلق الأرض التي هم عليها، مع المنة بأنه خلقها هينة لهم صالحة للسير فيها مخرجة لأرزاقهم، وذيل ذلك بأن النشور منها وأن النشور إليه لا إلى غيره.

ومن رأى هذا التسخير اعترف لله بالفضل والقيام لله بالحمد، وتقديم الشكر كما قال تعالى: {وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [الحج:٣٦].

وقوله: {وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ ما تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ} [الزخرف:١٢-١٤].

أي مع شكر النعمة الاتعاظ والعبرة والاستدلال على كمال القدرة ومنها المعاد والمنقلب إلى الله تعالى فقوله {وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} بعد المشي في مناكب الأرض وتطلب الرزق وما يتضمن من النظر والتأمل في مسببات الأسباب وتسخير الله لها كقوله تعالى



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ} بعد ذكر {خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا}، أي: الأصناف وتسخير الفلك والأنعام والبحر والبر فيه ضمنا إثبات القدرة على البعث فيكون المشي في مناكب الأرض واستخدام مناكبها واستغلال ثرواتها والانتفاع من خيراتها لا لطلب الرزق وحده وإلا لكان يمكن سوقه إليهم ولكن للأخذ بالأسباب أولا وللنظر في المسببات والعبرة بالمخلوقات والتزود لما بعد الممات كما في آية "الجمعة" {فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الجمعة: ١٠]. أي: عند مشاهدة آيات قدرته وعظيم امتنانه.

وعليه فقد وضع القرآن الأمة الإسلامية في أعز مواضع الغنى والاستغناء والاستثمار والإنتاج فما نقص عليها من أمور دنياها إلا بقدر ما قصرت هي في القيام بهذا العمل وأضاعت من حقها في هذا الوجود.

وقد قال الإمام النووي في مقدمة «المجموع»: إن على الأمة الإسلامية أن تعمل على استثمار وإنتاج كل حاجياتها حتى الإبرة لتستغني عن غيرها وإلا احتاجت إلى الغير بقدر ما قصرت في الإنتاج.

وهذا هو واقع العالم اليوم إذ القدرة الإنتاجية هي المتحكمة وذات السيادة الدولية. وقد أعطى الله العالم الإسلامي الأولوية في هذا كله فعليهم أن يحتلوا مكانهم ويحافظوا على مكانتهم ويشيدوا كيانهم بالدين والدنيا معا وبالله التوفيق.

**أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨)**

{أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ} قال ابن جرير: هو الله تعالى، وعزاه القرطبي لابن عباس ويشهد لما قاله ما جاء بعده من خسف الأرض وإرسال الحاصب فإنه لا يقدر عليه إلا الله كما أنه ظاهر النص.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال القرطبي: {من في السماء} بمعنى فوق السماء كقوله {فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ} [التوبة:٢]، أي فوقها لا بالمماسة والتحيز.

وقيل {في} بمعنى على كقوله {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [طه:٧١]، أي عليها إلى أن قال: والأخبار في هذا الباب كثيرة صحيحة منتشرة مشيرة إلى العلو لا يدفعها إلا ملحد أو جاهل أو معاند والمراد بها توقيره وتنزيهه عن السفل والتحت ووصفه بالعلو ا هـ.

وخص ذلك بالسماء لأن إثباته لله تعالى ينفيه عن أصنامهم. والمعنى: توبيخهم على سوء معاملتهم ربهم كأنهم آمنون من أن يأمر الله ملائكته بأن يخسفوا الأرض بالمشركين.

{أَنْ يَخْسِفَ} الخسف انقلاب ظاهر السطح من بعض الأرض باطنا وباطنه ظاهرا، كما خسف بقارون.

{بِكُمُ الْأَرْضَ} خطاب للكافرين، أي: أأمنتم العليّ الأعلى أن يخسف بكم الأرض فيغيبكم إلى أسفل سافلين.

{فَإِذَا هِيَ تَمُورُ} تضطرب وتهتز هزّاً شديداً بكم، وترتفع فوقكم، وتنقلب عليكم.

وقد ثبتها تعالى بالجبال أوتادا كما قال: {وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَكُمْ} [النازعات:٣٢-٣٣]

وهذا من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم، بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره، وهو مع هذا يحلم ويصفح، ويؤجل ولا يعجل، كما قال: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} [فاطر:٤٥]

والآية انتقال من الاستدلال إلى التخويف لأنه لما تقرر أنه خالق الأرض ومذللها للناس وتقرر أنهم ما رعوا خالقها حق رعايته فقد استحقوا غضبه وتسليط عقابه بأن يصير مشيهم في مناكب الأرض إلى تجلجل في طبقات الأرض. فالجملة معترضة والاستفهام إنكار وتوبيخ وتحذير.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} ريحا فيها حصباء تدمغكم، كما قال: {أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلا} [الإسراء:٦٨]

{فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} كيف يكون إنذاري وعاقبة من تخلف عنه وكذب به.

أي: عاقبة نذيري لكم، إذا كذبتم به، ورددتموه على رسولي.

وقد بينّ تعالى نذيره لهم في غير ما آية، وهو زهوق باطِلهم إذا أصروا، ونصر رسوله، وغلبة جنده، كما قال تعالى: {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} [ص:٨٨].

{وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} من الأمم السالفة والقرون الخالية مع كونهم أشد منهم عَدَداً وعُدَداً.

التفت عن خطابهم إلى الإخبار عنهم بحالة الغيبة، تعريضا بالغضب عليهم بما أتوه من كل تكذيب للرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فكانوا جديرين بإبعادهم عن الحضور للخطاب، فلذلك لم يقل: "ولقد كذب الذين من قبلكم" ولم يقطع توجيه التذكير إليهم والوعيد لعلهم يتدبرون في أن الله لم يدخرهم نصحا.

{فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} أصله نكيري بالإضافة إلى ياء المتكلم المحذوفة تخفيفا، كما في قوله آنفا: {فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [الملك:١٧]

وهو استفهام تقريري وتنكيري كناية عن تحقيق وقوعه وأنه وقع في حال فظاعة.

أي: فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم؟، وذلك بإنزال العذاب الأليم بهم ودحرِ باطلهم.

قال القاضي: هو تسلية للرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وتهديد لقومه المشركين.

## أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩)

{أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ} باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها.

مشتق من الصف، وهو كون أشياء متعددة متقاربة الأمكنة وباستواء، كما حكى الله عن



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الملائكة: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ} [الصافات:١٦٥] وقال تعالى في البدن: {فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ} [الحج:٣٦] ويقال: صفهم إذا جعلهم مستوين في الموقف، وفي حديث ابن عباس في الجنائز مر رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بقبر منبوذ إلى قوله "فصفنا خلفه وكبر" .

والمراد هنا أن الطير صافة أجنحتها فحذف المفعول لعلمه من الوصف الجاري على الطير إذ لا تجعل الطير أشياء مصفوفة إلا ريش أجنحتها عند الطيران، فالطائر إذا طار بسط جناحيه، أي مدها فصف ريش الجناح فإذا تمدد الجناح ظهر ريشه مصطفا فكان ذلك الاصطفاف من أثر فعل الطير فوصفت به.

{وَيَقْبِضْنَ} القبض: ضد البسط، والمراد يضممنها إلى أجسامها.. عبّر عنه بالفعل إشارة إلى أنه أمر طارئ على الصف، يفعل في بعض الأحيان للتقوي بالتحريك، فإنه الأصل الثابت في حالة الطيران، ولذا اختير له الاسم.

فالقاعدة أن الاسم للدوام والثبوت، والفعل للتجدد والحدوث، فالحركة الدائمة في الطيران هي صف الجناح، والجديد عليه هو القبض.

{مَا يُمْسِكُهُنَّ} في الجو، أي حفظها من السقوط على الأرض بما أودع في خلقتها من الخصائص.

{إِلَّا الرَّحْمَنُ} المقيض لكلّ ما قُدّر له، حسب استعداده بسعة رحمته، ومنه ما دبر للطيور من بنية يتأتى منها الجري في الجوّ.

وإيثار اسم {الرَّحْمَن} هنا دون الاسم العلم بخلاف ما في سورة النحل {أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ} لأن من جملة عنادهم إنكارهم اسم {الرَّحْمَن} فلما لم يرجعوا عما هم عليه ذكر وصف {الرَّحْمَن} في هذه السورة أربع مرات.

والآية دليل على قدرته تعالى وآية لخلقه، كما في قوله تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السماء ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النحل:٧٩] فهي آية على القدرة.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقد جاء في آيات أخرى أنه تعالى هو الذي يمسك السماوات والأرض بقدرته جل وعلا كما في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيما غَفُوراً} [فاطر:٤١] فهو سبحانه ممسكهما بقدرته تعالى عن أن تزولا ولو قدر فرضا زوالهما لا يقدر على إمساكهما إلا هو، وكما في قوله {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السماء أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [الحج:٦٥].

قال ابن عاشور: والآية استرسالا في الدلائل على انفراد الله تعالى بالتصرف في الموجودات، وقد انتقل من دلالة أحوال البشر وعالمهم، إلى دلالة أعجب أحوال العجماوات وهي أحوال الطير في نظام حركاتها في حال طيرانها إذ لا تمشي على الأرض كما هو في حركات غيرها على الأرض، فحالها أقوى دلالة على عجيب صنع الله المنفرد به.

واشتمل التذكير بعجيب خلقة الطير في طيرانها على ضرب من الإطناب لأن الأوصاف الثلاثة المستفادة من قوله: {فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ} تصور صورة حركات الطيران للسامعين فتنبههم لدقائق ربما أغفلهم عن تدقيق النظر فيها نشأتهم بينها من وقت ذهول الإدراك في زمن الصبا، فإن المرء التونسي أو المغربي مثلا إذا سافر إلى بلاد الهند أو إلى بلاد السودان فرأى الفيلة وهو مكتمل العقل دقيق التمييز أدرك من دقائق خلقة الفيل ما لا يدركه الرجل من أهل الهند الناشئ بين الفيلة، وكم غفل الناس عن دقائق في المخلوقات من الحيوان والجماد ما لو تتبعوه لتجلى لهم منها ما يملأ وصفه الصحف.

{إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ} بما يصلح كل شيء من مخلوقاته.. تعليل لمضمون {مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ} أي أمسكهن الرحمن لعموم علمه وحكمته، ولا يمسكهن غيره لقصور علمه أو انتفائه.

والبصير: العليم، مشتق من البصيرة، فهو هنا غير الوصف الذي هو من الأسماء الحسنى في نحو: السميع البصير، وإنما هو هنا من باب قولهم: فلان بصير بالأمور.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [غافر: ٤٤]، فهو خبر لا وصف ولا منزل منزلة الاسم.

قال القاشانيّ: أي: فيعطيه ما يليق به، ويسوِّيه بحسب مشيئته، ويودع فيه ما يريده بمقتضى حكمته، ثم يهديه إليه بتوفيقه.

ولعل مما يستدعي الانتباه توجيه النظر إلى الطير في الهواء {صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ} بعد التخويف بخسف الأرض بأنها معلقة في الهواء كتعلق الطير المشاهد إليكم ما يمسكها إلا الله وإيقاع الخسف بها كإسقاط الطير من الهواء لأن الجميع ما يمسكه إلا الله تعالى وهو القادر على الخسف بها وعلى إسقاط الطير.

**أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١)**

{أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ} معشر المشركين {يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ} إن أراد بكم سوءاً، فيدفع عنكم بأسه.

{إِنِ الْكَافِرُونَ} التعريف للاستغراق، وليس المراد به كافرون معهودون.

{إِلَّا فِي غُرُورٍ} الغرور: ظن النفس وقوع أمر نافع لها بمخائل تتوهمها، وهو بخلاف ذلك أو هو غير واقع.

أي: في غرور من ظنهم أن أربابهم تنفع أو تضرّ، أو أنها تقرّبهم إلى الله زلفى. ونظير هذا قوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا} [الأنبياء:٤٣]

{أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ} بصيغة المضارع لدلالته على التجدد لأن الرزق يقتضي التكرار إذ حاجة البشر إليه مستمرة.

{إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ} المطر والطعام ونحوهما، والجواب لا أحد يقدر على ذلك ولا يملكه إلا الله.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقد صرح تعالى بهذا السؤال وجوابه في قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ} [سبأ:٢٤] أي لا أحد سواه سبحانه لا إله إلا هو، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} [فاطر:٣]

وذلك لأن الذي يقدر على الخلق هو الذي يملك القدرة على الرزق، كما قال تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السماء وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ} [يونس:٣١].

وكقوله: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الروم:٤٠]

وهذا من كمال القدرة على الإحياء والإماتة والرزق، وقد بين تعالى أن ذلك لمن بيده مقاليد الأمور سبحانه وتدبير شؤون الخلق، كما في قوله تعالى: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ}، ثم قال: {يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الشورى:١٢]، أي يبسط ويقدر بعلم لا عن نقص ولا حاجة، ولكن يعلم بمصالح عباده: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} [الشورى:١٩] أي يعاملهم بلطفه، وهو قوي على أن يرزق الجميع رزقا واسعا، وهو العزيز في ملكه فهو يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، كما قال تعالى: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} [الرعد:٢٦] أي: بمقتضى اللطف والعلم: {وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} [هود:٦].

ومن هذا كله يردّ على أولئك الذين يطلبون عند غيره الرزق كما في قوله: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ} [النحل:٧٣].

وقد جمع الأمرين توبيخهم وتوجيههم في قوله تعالى: {إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [العنكبوت:١٧].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقد بين تعالى قضية الخلق والرزق والعبادة كلها في قوله تعالى: {وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات:٥٦-٥٨].

وقد بين تعالى في الآيات المتقدمة أنه يرزق العباد من السماوات والأرض جملة. وبين في آيات أخرى كيفية هذا الرزق تفصيلا مما يعجز الخلق عن فعله وذلك في قوله تعالى: {فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَبّاً مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} [عبس:٢٤-٣٢].

فجميع أنواع الرزق في ذلك ابتداء من إنزال الماء من السماء ثم ينشأ عنه انشقاق الأرض عن النبات بأنواعه حبا وعنبا وزيتونا ونخلا وحدائق وفاكهة وكلها للإنسان وقضبا وأبا للأنعام، والأنعام أرزاق أيضا لحما ولبنا وجميع ذلك قوامه إنزال الماء من السماء ولا يقدر على شيء من ذلك كله إلا الله.

فإذا أمسكه الله عن الخلق لا يقوى مخلوق على إنزاله، فإذا علم المسلم أن الأرزاق بيد الخلاق ومن بيده مقاليد السماوات والأرض لن يتجه برغبة ولا يتوجه بسؤال إلا إلى الله تعالى موقنا حق اليقين أنه هو سبحانه هو الرزاق ذو القوة المتين.

وكما قال تعالى: {وَفِي السماء رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السماء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ} [الذاريات:٢٢-٢٣].

وقد جاء عن عائشة -رضي الله عنها- قولها: "والله لا يكمل إيمان العبد حتى يكون يقينه بما عند الله أعظم مما بيده".

{بَلْ} للاضراب أو الإبطال عما تضمنه الاستفهامان السابقان.

{لَجُّوا} استمروا وتمادوا {فِي عُتُوٍّ} عناد وطغيان {وَنُفُورٍ} النفور: هو الاشمئزاز من الشيء والهروب منه.. أي: شراد عن الحق، واستكبار مع وضوح براهينه، فأصروا على اعتقاد أنهم يُحفظون من النوائب ويرزقون ببركة آلهتهم، وأنهم الجند الناصر الرازق، مكابرة وعناداً.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)

{أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} تمثيل للضالين والمهتدين، أو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر.

والمكب: هو المتعثر الذي يخرّ على وجهه لوعورة طريقه، واختلاف سطحه ارتفاعاً وانخفاضاً. والذي يمشي سويّاً هو القائم السالم من العثار لاستواء طريقه، واستقامة سطحه.

والمؤمن هو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة. هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة.. فالمؤمن يحشر يمشي سويًا على صراط مستقيم، مُفض به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم، كما قال تعالى:

{وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً} [الإسراء:٩٧]

وقوله: {الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً} [الفرقان:٣٤]

وقوله: {وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [النمل:٩٠]

وقوله: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ} [القمر:٤٨]

روى أحمد عَنْ نُفَيْعٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، يَقُولُ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى وُجُوهِهِمْ؟ قَالَ: (إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ) [صحيح].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال القاضي: والمراد تمثيل المشرك والموحِّد بالسالكين، والدينين بالمسلكين. ولعل الاكتفاء بما في الكَبّ من الدلالة على حال المسلك، للإشعار بأن ما عليه المشرك لا يستأهل أن يسمى طريقاً، أي: فلذلك ذكر المسلك في الثاني دون الأول.

{قُلْ} انتقال من توجيه الله تعالى الخطاب إلى المشركين للتبصير بالحجج والدلائل وما تخلل ذلك من الوعيد أو التهديد إلى خطابهم على لسان رسوله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بأن يقول لهم ما سيذكر تفننا في البيان، وتنشيطا للأذهان حتى كأن الكلام صدر من قائلين، وترفيعا لقدر نبيه –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بإعطائه حظا من التذكير معه، كما قال تعالى: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ} [الدخان:٥٨].

{هُوَ} المستحق للعبادة وحده، وسلوك صراطه {الَّذِي أَنْشَأَكُمْ} أوجدكم وابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا {وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ} العقول والإدراكات.

{قَلِيلًا} قد تستعمل في معنى النفي والعدم، كقوله تعالى: {فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ} [البقرة:٨٨] وقوله تعالى: {فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً} [النساء:٤٦]، وتقول العرب: هذه أرض قلما تنبت.

{مَا تَشْكُرُونَ} باستعمالها فيما خلقت له.. قال ابن كثير: ما أقل ما تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم، في طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره.

{قُلْ} تكرار يشعر بالاهتمام بالغرض المسوقة فيه تلك الأقوال {هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ} الذرء: الإكثار من الموجود، فهذا أخص من قوله: {هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ} أي هو الذي كثركم على الأرض.

{فِي الْأَرْضِ} بثكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها، مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم، وأحوالكم وأشكالكم وصوركم.. خلقكم فيها لتعبدوه وتقوموا بالقسط الذي أمر به.

{وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} تجمعون بعد هذا التفرق والشتات، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم للحساب والجزاء.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فكني عن الموت بالحشر لأنهم قد علموا أن الحشر الذي أنذروا به لا يكون إلا بعد البعث والبعث بعد الموت، وقد أدمج في ذلك تذكيرهم بالموت الذي قد علموا أنه لابد منه، وإنذارهم بالبعث والحشر.

وتقديم المعمول في {وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} للاهتمام ولرعاية الفواصل، وليس للاختصاص لأنهم لم يكونوا يدعون الحشر أصلا فضلا عن أن يدعوه لغير الله.

**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧)**

{وَيَقُولُونَ} الكفار المعاندين {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ} الحشر أو الفتح على رسوله وظهور دينه، وأتوا بلفظ {الْوَعْدُ} استنجازا له لأن شأن الوعد الوفاء {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} في الإنذار به، والترهيب منه.

والاستفهام بقولهم: {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ} مستعمل في التهكم لأن من عادتهم أن يستهزئوا بذلك، كما قال تعالى: {فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ} [الإسراء:٥١].أي: فسيَهُزُّون رؤوسهم ساخرين متعجبين.

ولما لم تكن لهم معارضة للحجة التي في قوله: {هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ} إلى {قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ} [الملك: ٢٤] انحصر عنادهم في مضمون قوله: {وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} فإنهم قد جحدوا البعث وأعلنوا بجحده وتعجبوا من إنذار القرآن به، وقال بعضهم لبعض: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ} [سبأ:٧-٨]} وكانوا يقولون: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأنبياء،النمل،سبأ،يس،الملك] واستمروا على قوله، فلذلك حكاه الله عنهم بصيغة المضارع المقتضية للتكرير.

{قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ} لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله –عز وجل– لكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ} وإنما علي البلاغ، بيّن الحجَّة على ما أنذركم به من زهوق باطلكم إذا جاء أجله. وأما تعيين وقته فليس إليّ.

{فَلَمَّا رَأَوْهُ} ما وعدوا به من العذاب، وزهوق باطلهم. وفعل {رَأَوْهُ} مستعمل في المستقبل، وجيء به بصيغة الماضي لشبهه بالماضي في تحقق الوقوع مثل: {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ} [النحل:١] لأنه صادر عمن لا إخلاف في أخباره، فإن هذا الوعد لم يكن قد حصل حين نزول الآية بمكة سواء أريد بالوعد الوعد بالبعث كما هو مقتضى السياق أم أريد به وعد النصر.

ونظير هذا الاستعمال قوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً} [النساء:٤١]. وقوله تعالى: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ} [النحل:٨٩]، إذ جمع في الآيتين بين فعل {نَبْعَثُ} مضارعا وفعل {وَجِئْنَا} ماضيا.

{زُلْفَةً} قريباً، إخبار بالمصدر للمبالغة، أي رأوه شديد القرب منهم.

أي: لما قامت القيامة وشاهدها الكفار، ورأوا أن الأمر كان قريبا؛ لأن كل ما هو آتٍ آتٍ وإن طال زمنه.

{سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا} ظهر عليها آثار الاستياء من الكآبة والغم والانكسار والحزن.

{وَقِيلَ} لهم تبكيتاً، والقائل إما ملائكة المحشر أو خزنة جهنم، فعدل عن تعيين القائل، إذ المقصود المقول دون القائل، فحذف القائل من الإيجاز.

{هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ} تطلبون وتستعجلون به من الدعاء، أو تدّعون أن لا بعث، من الدعوى.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠)

{قُلْ} يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه.

{أَرَأَيْتُمْ} استفهام استنكاري، أنكر اندفاعهم إلى أمنيات ورغائب لا يجتنون منها نفعا، ولكنها مما تمليه عليهم النفوس الخبيثة من الحقد والحسد.

{إِنْ أَهْلَكَنِيَ} أماتني {اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ} معية مجازية، وهي الموافقة والمشاركة في الاعتقاد والدين، كما في قوله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ} [الفتح:٢٩]، أي الذين آمنوا معه، وقوله: {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التحريم:٨]

{أَوْ رَحِمَنَا} أحيانا، ويفيد أن الحياة رحمة، وأن تأخير الأجل من النعم. فحياة المؤمن رحمة لأنها تكثر له فيها بركة الإيمان والأعمال الصالحة.

{فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ} استفهام استنكاري، أي لا يجيرهم منه مجير {مِنْ عَذَابٍ} التنكير للتهويل {أَلِيمٍ} أي: فإنكم كافرون ولا مجير للكافرين، ففيه إيماء إلى علة الحكم.

ولقد كان كفار مكة يَتربصون بالنبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– رَيبَ المنون؛ تخلصاً من دعوته وانتشارها، فأمر أن يقول لهم ذلك.

أي: أخبروني إن أماتني الله ومن معي من المؤمنين، أو رحمنا بتأجيل آجالنا وانتصارنا، فمن يجيركم من عذاب أليم قضى الله وقوعه بكم لكفركم؟.

قال ابن عاشور: وقد حكى القرآن عنهم: {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ} [الطور:٣٠] وحكى عن بعضهم: {وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ} [التوبة:٩٨]، وكانوا يتآمرون على قتله، قال تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ} [الأنفال:٣٠] فأمره الله بأن يعرفهم حقيقة تدحض أمانيهم، وهي أن موت أحد أو حياته لا يغني عن غيره ما جره إليه عمله، وقد جرّت إليهم أعمالهم غضب الله ووعيده



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فهو نائلهم حَيِيَ الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أو بادره المنون، قال تعالى: {فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ، أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ} [الزخرف: ٤١-٤٢]

وقال ابن كثير: أي: خلصوا أنفسكم، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا بالتوبة والإنابة، والرجوع إلى دينه، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال، فسواء عذَّبنا الله أو رحمنا، فلا مناص لكم من عذابه ونكاله الواقع بكم.

والمعني بالعذاب: إما الدنيوي وهو خزيهم بالانتصار عليهم، ودحور ضلالهم، أو الأخروي، وهو أشد وأبقى.

{قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ} أي الله هو الذي وصفه {الرَّحْمَنُ} فهو يرحمنا، وأنكم أنكرتم هذا الاسم فأنتم أحرياء بأن تحرموا آثار رحمته.

{وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} اعتمدنا في جميع أمورنا لا على ما تتكلون عليه من رجالكم وأموالكم وأصنامكم.

وتقديم معمول {تَوَكَّلْنَا} عليه لإفادة الاختصاص، أي توكلنا عليه دون غيره تعريضا بمخالفة حال المشركين إذ توكلوا على أصنامهم وأشركوا في التوكل مع الله، أو نسوا التوكل على الله باشتغال فكرتهم بالتوجه إلى الأصنام.

وإنما لم يقدم معمول {آمَنَّا} عليه فلم يقل: به آمنا، لمجرد الاهتمام إلى الإخبار عن إيمانهم بالله لوقوعه عقب وصف الآخرين بالكفر في قوله: {فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} فإن هذا جواب آخر على تمنيهم له الهلاك وسلك به طريق التبكيت، أي هو الرحمن يجيرنا من سوء ترومونه لنا لأننا آمنا به ولم نكفر به كما كفرتم، فلم يكن المقصود في إيراده نفي الإشراك وإثبات التوحيد، إذ الكلام في الإهلاك والإنجاء المعبر عنه بـ {رَحِمَنَا}، فجيء بجملة {آمَنَّا} على أصل مجرد معناها دون قصد الاختصاص، بخلاف قوله: {وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} لأن التوكل يقتضي منجيا وناصرا، والمشركون متوكلون على أصنامهم وقوتهم وأموالهم، فقيل: نحن لا نتكل ما أنتم متوكلون عليه، بل على الرحمن وحده توكلنا.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} في ذهاب عن الحق وانحراف عن طريقه منا ومنكم، إذا جاء نصر الله والفتح في الدنيا، ونشأته الثانية في الأخرى.

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا} غائرا ذاهبا في الأرض إلى أسفل، فلا يُنَال بالفئوس الحداد، ولا السواعد الشداد، والغائر: عكس النابع.

إيماء إلى أنهم يترقبهم عذاب الجوع بالقحط والجفاف فإن مكة قليلة المياه ولم تكن بها عيون ولا آبار قبل زمزم، كما دل عليه خبر تعجب القافلة من جُرهم التي مرت بموضع مكة حين أسكنها إبراهيم عليه السلام هاجر بابنه إسماعيل ففجر الله لها زمزم ولمحت القافلة الطير تحوم حول مكانها فقالوا: ما عهدنا بهذه الأرض ماء، ثم حفر ميمون بن خالد الحضرمي بأعلاها بئرا تسمى «بئر ميمون» في عهد الجاهلية قبيل البعثة، وكانت بها بئر أخرى تسمى «الْجَفْرُ» لبني تيم بن مرة، وبئر تسمى «الْجَمُّ» ذكرها ابن عطية وأهملها القاموس وتاجه، ولعل هاتين البئرين الأخيرتين لم تكونا في عهد النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.. فماء هذه الآبار هو الماء الذي أنذروا به بأنه يصبح غورا.

{فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ} نابع ظاهر سائح جار على وجه الأرض سهل التناول.. استفهام إنكاري، أي لا يأتيكم أحد بماء معين غير الله.

قال الرازي: المقصود تقريرهم ببعض نعمه تعالى، ليريهم قبح ما هم عليه من الكفر. أي: أخبروني إن صار ماؤكم ذاهباً في الأرض، فمن يأتيكم بماء معين؟ فلا بد وأن يقولوا: هو الله؛ فيقال لهم حينئذٍ: فلم تجعلون من لا يقدر على شيء أصلاً شريكاً له في العبودية، وهو كقوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ} [الواقعة:٦٨]، أي: بل هو الذي أنزله وسلكه ينابيع؛ رحمة بالعباد، فله الحمد.

ومن النوادر المتعلقة بهذه الآية ما أشار إليه في الكشاف، قال: وعن بعض الشطار هو محمد بن زكريا الطبيب أنها –أي هذه الآية– تليت عنده. فقال: تجيء به –أي الماء– الفؤوس والمعاول، فذهب ماء عينيه. نعوذ بالله من الجرأة على الله وعلى آياته. والله أعلم.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بسم الله الرحمن الرحيم

# مع سورة القلم

سميت هذه السورة في معظم التفاسير وفي «صحيح البخاري» "سورة نْ وَالْقَلَمِ" على حكاية اللفظين الواقعين في أولها، وترجمها الترمذي في جامعه وبعض المفسرين سورة {نْ} بالاقتصار على الحرف المفرد الذي افتتحت به، مثل ما سميت سورة {ص} وسورة {ق}. وفي بعض المصاحف سميت "سورة وَالْقَلَمِ" وكذلك تسميتها في مصحف مخطوط بالخط الكوفي في القرن الخامس.

وهي مكية، قال ابن عطية: لا خلاف في ذلك بين أهل التأويل.

وفي «تفسير القرطبي»: أن معظم السورة نزل في الوليد بن المغيرة وأبي جهل.

واتفق العادون على عد آيها ثنتين وخمسين.

جاء في هذه السورة بالإيماء بالحرف الذي في أولها إلى تحدي المعاندين بالتعجيز عن الإتيان بمثل سور القرآن، وهذا أول التحدي الواقع في القرآن إذ ليس في سورة العلق ولا في المزمل ولا في المدثر إشارة إلى التحدي ولا تصريح.

وفيها إشارة إلى التحدي بمعجزة الأمية بقوله: {وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ} [القلم: ١].

وابتدئت بخطاب النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– تأنيسا له وتسلية عما لقيه من أذى المشركين. وإبطال مطاعن المشركين في النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–. وإثبات كمالاته في الدنيا والآخرة وهديه وضلال معانديه وتثبيته.

وأكد ذلك بالقسم بما هو من مظاهر حكمة الله تعالى في تعليم الإنسان الكتابة فتضمن تشريف حروف الهجاء والكتابة والعلم لتهيئة الأمة لخلع دثار الأمية عنهم وإقبالهم على الكتابة والعلم لتكون الكتابة والعلم سببا لحفظ القرآن.

ثم أنحى على زعماء المشركين مثل أبي جهل والوليد بن المغيرة بمذمات كثيرة وتوعدهم بعذاب الآخرة وببلايا في الدنيا بأن ضرب لهم مثلا بمن غرهم عزهم وثراؤهم، فأزال الله ذلك عنهم وأباد نعمتهم.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقابل ذلك بحال المؤمنين المتقين وأن الله اجتباهم بالإسلام، وأن آلهة المشركين لا تغني عنهم شيئا من العذاب في الدنيا ولا في الآخرة.

ووعظهم بأن ما هم فيه من النعمة استدراج وإملاء جزاء كيدهم. وأنهم لا معذرة لهم فيما قابلوا به دعوة النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– من طغيانهم ولا حرج عليهم في الإنصات إليها.

وأمر رسوله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بالصبر في تبليغ الدعوة وتلقي أذى قومه، وأن لا يضجر في ذلك ضجرا عاتب الله عليه نبيه يونس عليه السلام.

## ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣)

{ن} اسم للحرف المعروف، قصد به التحدي. أو اسم للسورة.

وهذه أول سورة نزلت مفتتحة بحرف مقطع من حروف الهجاء. ورسموا حرف {نْ} بصورته التي يرسم بها في الخط، وكان القياس أن تكتب الحروف الثلاثة لأن الكتابة تبع للنطق والمنطوق به وهو اسم الحرف لا ذاته، وإنما هنا يقرأ باسم الحرف لا بهجائه.

{وَالْقَلَمِ} الذي يخط به {وَمَا يَسْطُرُونَ} يكتبون من سطور.

قسم يجري على سنن الأقسام الصادرة في كلام الله تعالى أن تكون بأشياء معظمة دالة على آثار صفات الله تعالى.

فهو قسم منه تعالى، وأيضا تنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم.

قال شيخ الإسلام –رحمه الله–: "إِنَّ اللَّهَ يُقْسِمُ بِمَا يُقْسِمُ بِهِ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ لِأَنَّهَا آيَاتُهُ وَمَخْلُوقَاتُهُ. فَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَظْمَتِهِ وَعِزَّتِهِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ يُقْسِمُ بِهَا؛ لِأَنَّ إِقْسَامَهُ بِهَا تَعْظِيمٌ لَهُ سُبْحَانَهُ. وَنَحْنُ الْمَخْلُوقُونَ لَيْسَ لَنَا أَنْ نُقْسِمَ بِهَا بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ".



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقد فصّل الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– الحكمة في قسم الله بمخلوقاته بقوله: "فإن قيل: ما الفائدة من إقسامه سبحانه مع أنه صادق بلا قسم؛ لأن القسم إن كان لقوم يؤمنون به ويصدقون كلامه فلا حاجة إليه، وإن كان لقوم لا يؤمنون به فلا فائدة منه، قال تعالى: {وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ} [البقرة:١٤٥] أجيب: أن فائدة القسم من وجوه:

الأول: أن هذا أسلوب عربي لتأكيد الأشياء بالقسم، وإن كانت معلومة عند الجميع، أو كانت منكرة عند المخاطب، والقرآن نزل بلسان عربي مبين.

الثاني: أن المؤمن يزداد يقينا من ذلك، ولا مانع من زيادة المؤكدات التي تزيد في يقين العبد، قال تعالى عن إبراهيم: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة:٢٦٠]

الثالث: أن الله يقسم بأمور عظيمة دالة على كمال قدرته وعظمته وعلمه، فكأنه يقيم في هذا المقسم به البراهين على صحة ما أقسم عليه بواسطة عظم ما أقسم به.

الرابع: التنويه بحال المقسم به؛ لأنه لا يقسم إلا بشيء عظيم، وهذان الوجهان لا يعودان إلى تصديق الخبر، بل إلى ذكر الآيات التي أقسم بها تنويها له بها وتنبيها على عظمها.

الخامس: الاهتمام بالمقسم عليه، وأنه جدير بالعناية والإثبات".

ومن فوائد هذا القسم أن هذا القرآن كتاب الإسلام، وأنه سيكون مكتوبا مقروءا بين المسلمين، ولهذا كان رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يأمر أصحابه بكتابة ما يوحى به إليه. وتعريف {الْقَلَمِ} تعريف الجنس.

فالقسم بالقلم لشرفه بأنه يكتب به القرآن وكتبت به الكتب المقدسة وتكتب به كتب التربية ومكارم الأخلاق والعلوم وكل ذلك مما له حظ شرف عند الله تعالى.

وهذا يرجحه أن الله نوه بالقلم في أول سورة نزلت من القرآن لقوله: {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق:٣–٥].

{مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ} "بِنِعْمَةِ رَبِّكَ" كلام معترض. والمعنى: انتفى عنك الجنون بنعمة ربك، كما يقال: أنت بحمد الله عاقل، وأنت بحمد الله فهِم.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ومعناه: أن تلك الصفة المحمودة إنما حصلت، والصفة المذمومة إنما زالت بواسطة إنعام الله ولطفه وإكرامه.

{بِمَجْنُونٍ} جواب القسم، قصد به تكذيب المشركين في إفكهم المحدث عنه بآية: {وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [ الحجر:٦]

{وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا} ثواباً على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق، وصبرك على أذى المشركين واحتمال هذا الطعن والصبر عليه.

{غَيْرَ مَمْنُونٍ} غير منقوص ولا مقطوع.

## وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)

{وَإِنَّكَ لَعَلَى} للاستعلاء المجازي المراد به التمكن، كقوله: {أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ} [البقرة:٥] ومنه قوله تعالى: {إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} [النمل:٧٩]، {إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الزخرف:٤٣]، {إِنَّكَ لَعَلَى هُدىً مُسْتَقِيمٍ} [الحج:٦٧].

{خُلُقٍ عَظِيمٍ} والعظيم: الرفيع القدر وهو مستعار من ضخامة الجسم، وشاعت هذه الاستعارة حتى ساوت الحقيقة.

والخُلق العظيم: هو الخلق الأكرم في نوع الأخلاق وهو البالغ أشد الكمال المحمود في طبع الإنسان لاجتماع مكارم الأخلاق في النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ، فالخلق العظيم أرفع من مطلق الخلق الحسن.

قال ابن جرير: أي: أدب عظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه. قالت عائشة: "كان خُلق رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– القرآن" أي ما تضمنه القرآن من إيقاع الفضائل والمكارم، والنهي عن أضدادها.

قال الرازي: "وهذا كالتفسير لقوله: {بِنِعْمَةِ رَبِّكَ} والدلالة القاطعة على براءته مما رمى به، لأن الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية، والفصاحة التامة، والعقل الكامل، والبراءة من كل عيب، والاتصاف بكل مكرمة، كانت ظاهرة منه. وإذا كانت ظاهرة محسوسة فوجودها ينافي حصول الجنون؛ فكذب من أضافه إليه وضل، بل هو الأحرى بأن يرمى بما قذف به".



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال ابن كثير: "ومعنى هذا أنه –عليه السلام– صار امتثالُ القرآن، أمرًا ونهيًا، سجية له، وخلقًا تَطَبَّعَه، وترك طبعه الجِبِلِّي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه. هذا مع ما جَبَله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة، والصفح والحلم، وكل خلق جميل.

كما ثبت عَنْ أَنَسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: "خَدَمْتُ النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ، وَمَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لِمَ صَنَعْتَهُ، وَلاَ لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ لِمَ تَرَكْتَهُ،" وَكَانَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، وَلاَ مَسَسْتُ خَزًّا قَطُّ وَلاَ حَرِيرًا وَلاَ شَيْئًا كَانَ أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَلاَ شَمَمْتُ مِسْكًا قَطُّ وَلاَ عِطْرًا كَانَ أَطْيَبَ مِنْ عَرَقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". [الترمذي وقال حسن صحيح]

وفي مسند أحمد عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِيَدِهِ خَادِمًا لَهُ قَطُّ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِيَدِهِ شَيْئًا قَطُّ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَا خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ، إِلَّا كَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ أَيْسَرُهُمَا، حَتَّى يَكُونَ إِثْمًا، فَإِذَا كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ الْإِثْمِ، وَلَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ مِنْ شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ، حَتَّى تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَكُونَ هُوَ يَنْتَقِمُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ" [صحيح على شرط الشيخين]

وما أخذ به من الأدب بطريق الوحي غير القرآن، قال رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ) [السنن الكبرى للبيهقي] وفي رواية: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق) [صحيح الجامع]، فجعل أصل شريعته إكمال ما يحتاجه البشر من مكارم الأخلاق في نفوسهم، ولا شك أن الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أكبر مظهر لما في شرعه، قال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا} [الجاثية:١٨] وأمره أن يقول: {وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام:١٦٣].

فكما جعل الله رسوله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– على خُلق عظيم جعل شريعته لحمل الناس على التخلق بالخلق العظيم بمنتهى الاستطاعة.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وبهذا يزداد وضوحا معنى التمكن الذي أفاده حرف الاستعلاء في قوله: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} فهو متمكن منه الخلق العظيم في نفسه، ومتمكن منه في دعوته الدينية.

واعلم أن جماع الخُلق العظيم الذي هو أعلى الخلق الحسن هو التدين، ومعرفة الحقائق، وحلم النفس، والعدل، والصبر على المتاعب، والاعتراف للمحسن، والتواضع، والزهد، والعفة، والعفو، والجمود، والحياء، والشجاعة، وحسن الصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن المعاملة والمعاشرة.

والأخلاق كامنة في النفس ومظاهرها تصرفات صاحبها في كلامه، وطلاقة وجهه، وثباته، وحكمه، وحركته وسكونه، وطعامه وشرابه، وتأديب أهله ومن لنظره، وما يترتب على ذلك من حرمته عند الناس وحسن الثناء عليه والسمعة.

وأما مظاهرها في رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ففي ذلك كله وفي سياسيته أمته، وفيما خص به من فصاحة كلامه وجوامع كلمه.

## فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩)

{فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ} أولئك الجاحدون المتفوهون بتلك العظيمة.

{بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ} أي: فستعلم يا محمد، وسيعلم مخالفوك ومكذبوك: من المفتون الضال منك ومنهم. وهذا كقوله تعالى: {سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ} [القمر:٢٦]، وكقوله: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} [سبأ:٢٤].

والمفتون وهو الذي أصابته فتنة، أي: الذي قد افتتن عن الحق وضل عنه، والباء مزيدة لتأكيد تعلق الفعل بمفعوله والأصل: أيكم المفتون، فهي كالباء في قوله: {وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ} [المائدة:٦].

وقيل: فستعلم يا محمد، وسيعلم مخالفوك ومكذبوك من المجنون.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أو من كُوشف بأسرار العلوم وأوتي جوامع الكلم، أم من حجب عما في نفسه من آيات الله والعبر وفتن بعبادة الصنم؟!.

{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ} ضل عن طريق الحق الذي أمر به.

{وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} بمن اتبع الحق وسلك سبيله، فسيجزي الفريقين.

تعليل لجملة: {فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُون، بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ} باعتبار ما تضمنته من التعريض بأن الجانب المفتون هو الجانب القائل له: {إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [الحجر:٦]

{فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ} بآيات الله وما جاءهم من الحق. قال الزمخشري: "تهييج وإلهاب على معاصاتهم".

واختير تعريفهم بوصف المكذبين دون غيره من طرق التعريف لأنه بمنزلة الموصول في الإيماء إلى وجه بناء الحكم وهو حكم النهي عن طاعتهم فإن النهي عن طاعتهم لأنهم كذبوا رسالته.

{وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} قال ابن عباس: لو تُرَخِّص لهم فَيُرَخِّصون.

أي: ودوا لو تلين لهم في دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتهم، فيلينون لك في عبادتك إلهك، كما قال جل ثناؤه: {وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ} [الإسراء:٧٤-٧٥]، وإنما هو مأخوذ من الدُهن، شبه التليين في القول بتليين الدهن.

وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦)

{وَلَا تُطِعْ} إعادة فعل النهي عن الطاعة لمن هذه صفاتهم للاهتمام بهذا الأدب فلم يكتف بدخول أصحاب هذه الأوصاف في عموم المكذبين، ولا بتخصيصهم بالذكر بمجرد عطف الخاص على العام بأن يقال: "ولا كل حلاف"، بل جيء في جانبهم بصيغة نهي أخرى مماثلة للأولى.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{كُلَّ} موضوعة لإفادة الشمول والإحاطة لأفراد الاسم التي تضاف هي إليه، فهي هنا تفيد النهي العام عن طاعة كل فرد من أفراد أصحاب هذه الصفات التي أضيف إليها {كُلَّ} بالمباشرة وبالنعوت.

ولا يفهم منه أن النهي منصب إلى طاعة من اجتمعت فيه هذه الصفات بحيث لو أطاع بعض أصحاب هذه الصفات لم يكن مخالفا للنهي إذ لا يخطر ذلك بالبال ولا يجري على أساليب الاستعمال، بل المراد النهي عن طاعة كل موصوف بخصلة من هذه الخصال بله من اجتمع له عدة منها. وهذا كقوله تعالى: {وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ} [البقرة:٢٧٦]

وأجريت على المنهي عن الإطاعة بهذه الصفات الذميمة لأن أصحابها ليسوا أهلا لأن يطاعوا إذ لا ثقة بهم ولا يأمرون إلا بسوء.

وذكرت عشر خلال من مذامهم التي تخلقوا بها:

{حَلَّافٍ} كثير الحلف. قال الزمخشري: وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف، ومثله قوله تعالى: {وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ} [البقرة:٢٢٤].

قال ابن عاشور: والحلاف: المكثر من الأيمان على وعوده وأخباره، وأحسب أنه أريد به الكناية عن عدم المبالاة بالكذب وبالأيمان الفاجرة فجعلت صيغة المبالغة كناية عن تعمد الحنث، وإلا لم يكن ذمه بهذه المثابة.

{مَهِينٍ} ذليل حقير الرأي والتمييز، وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترئ بها على أسماء الله تعالى، واستعمالها في كل وقت في غير محلها.

{هَمَّازٍ} عيّاب طعان.. وأصل الهمز: الطعن بعود أو يد، وأطلق على الأذى بالقول في الغيبة على وجه الاستعارة، وشاع ذلك حتى صار كالحقيقة، وفي التنزيل {وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ} [الهمزة:١].

وصيغة المبالغة راجعة إلى قوة الصفة، فإذا كان أذى شديدا فصاحبه {هَمَّازٍ}، وإذا تكرر الأذى فصاحبه {هَمَّازٍ}.

{مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ} نقّال لحديث الناس بعضهم في بعض للإفساد بينهم.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ووصفه بالمشاء للمبالغة، فهي استعارة لتشويه حاله بأنه يتجشم المشقة لأجل النميمة، مثل ذكر السعي في قوله تعالى: {وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً} [المائدة:٣٣]. ذلك أن أسماء الأشياء المحسوسة أشد وقعا في تصور السامع من أسماء المعقولات، فذكر المشي بالنميمة فيه تصوير لحال النمام.

روى البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ مَرَّ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِقَبْرَيْنِ فَقَالَ: (إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ). ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ فَغَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ فَعَلْتَ هَذَا قَالَ: (لَعَلَّهُ يُخَفِّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا).

وروى مسلم عَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ قَالَ كَانَ رَجُلٌ يَنْقُلُ الْحَدِيثَ إِلَى الْأَمِيرِ فَكُنَّا جُلُوسًا فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ الْقَوْمُ هَذَا مِمَّنْ يَنْقُلُ الْحَدِيثَ إِلَى الْأَمِيرِ قَالَ فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْنَا فَقَالَ حُذَيْفَةُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ). يعني: نمام.

وروى أحمد عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ، أَنَّ النَّبِيَّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخِيَارِكُمْ) قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: (الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا، ذُكِرَ اللهُ تَعَالَى) ثُمَّ قَالَ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ؟ الْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ [المتمنون] لِلْبُرَآءِ الْعَنَتَ) أي: المشقة والهلاك. [حسن بشواهده]

وروى أحمد عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنْمٍ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (خِيَارُ عِبَادِ اللهِ الَّذِينَ إِذَا رُءُوا، ذُكِرَ اللهُ، وَشِرَارُ عِبَادِ اللهِ الْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ الْبُرَآءَ الْعَنَتَ) [حسن بشواهده]

{مَنَّاعٍ} شديد المنع بصيغة المبالغة {لِلْخَيْرِ} الخير من أسماء «المال» قال تعالى: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [العاديات:٨] وقال: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ ..} [البقرة:١٨٠]

والمراد بمنع الخير: منعه عمن أسلم من ذويهم وأقاربهم، يقول الواحد منهم لمن أسلم من أهله أو مواليه: من دخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبدا، وهذه



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

شنشنة عرفوا بها من بعد، قال الله تعالى في شأن المنافقين: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا} [المنافقون:٧].

وأيضا فمن منع الخير ما كان أهل الجاهلية يعطون العطاء للفخر والسمعة، فلا يعطون الضعفاء، وإنما يعطون في المجامع والقبائل، قال تعالى: {وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الفجر:١٨] قيل: كان الوليد ابن المغيرة ينفق في الحج في كل حجة عشرين ألفا يطعم أهل منى، ولا يعطي المسكين درهما واحدا.

وقد روعي تماثل الصيغة في هذه الصفات الأربع وهي: حلاف، هماز، مشاء، مناع.. وهو ضرب من محسن الموازنة.

{مُعْتَدٍ أَثِيمٍ} قرن بينهما لمناسبة الخصوص والعموم.

والاعتداء: مبالغة في العدوان فالافتعال فيه للدلالة على الشدة، فهو معتد على الناس متجاوز في ظلمهم.

والأثيم: كثير الإثم وهو فعيل من أمثلة المبالغة، قال تعالى: {إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ} [الدخان:٤٣-٤٤]. والمراد بالإثم هنا ما يعد خطيئة وفسادا عند أهل العقول والمروءة وفي الأديان المعروفة.

{عُتُلٍّ} اسم وليس بوصف لكنه يتضمن معنى صفة لأنه مشتق من العَتْل، وهو الدفع بقوة، قال تعالى: {خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ} [الدخان:٤٧]

وفسر العُتُل بالشديد الخلقة الرحيب الجوف، وبالأكول الشروب، وبالغشوم الظلوم، وبالكثير اللحم المختال.. جاف فظ غليظ، جموع مَنُوعُ.

ونص غير واحد من السلف، منهم مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وغيرهم: أن العُتُل هو: المُصحَّح الخَلْق، الشديد القوي في المأكل والمشرب والمنكح، وغير ذلك.

روى البخاري عن حَارِثَةَ بْنَ وَهْبٍ الْخُزَاعِيَّ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ [الضخم المختال في مشيته] مُسْتَكْبِرٍ).



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وفي المسند عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (إِنَّ أَهْلَ النَّارِ كُلُّ جَعْظَرِيٍّ [الفَظُّ الغَليظ] جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ، جَمَّاعٍ [للمال] مَنَّاعٍ [للحق فيه]، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ الضُّعَفَاءُ الْمَغْلُوبُونَ).

وفيه أيضا عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاص، أَنَّ رَسُولَ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ عِنْدَ ذِكْرِ أَهْلِ النَّارِ: (كُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ).

{بَعْدَ ذَلِكَ} قال ابن جرير: ومعنى {بَعْدَ} في هذا الموضع معنى (مع).

قال الشهاب: الإشارة لجميع ما قبله من النقائص لا للأخير فقط وهي للدلالة على أن ما بعده أعظم في القباحة.

أي: علاوة على ما عدد له من الأوصاف هو سيء الخلقة سيء المعاملة، فالبعدية هنا بعدية في الارتقاء في درجات التوصيف المذكورة، فمفادها مفاد التراخي الرتبي كقوله تعالى: {وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} [النازعات:٣٠]

{زَنِيمٍ} دعيّ في القوم ملصق في النسب وليس منهم، إما بمغمز في نسبه، وإما بكونه حليفا في قوم أو مولى.

وسئل عكرمة عن الزنيم، فقال: "هو ولد الزنا".

وعن ابن عباس: هو المُريب الذي يعرف بالشر.

{أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ} هذا مقابلة ما أنعم الله عليه كونه متمولاً مستظهراً بالبنين فكذب بآياتنا.

{إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا} تقرأ عليه آيات كتابنا {قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} هذا مما كتبه الأولون، استهزاء به، وإنكاراً منه أن يكون ذلك من عند الله.

وليس المراد من جمع هذه الخلال بل من كانت له واحدة منها، والصفة الكبيرة منها هي التكذيب بالقرآن الذي ختم بها قوله: {إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}، لكن الذي قال في القرآن إنه {أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} هو الوليد بن المغيرة، فهو الذي اختلق هذا البهتان في قصة معلومة، فلما تلقف الآخرون منه هذا البهتان وأعجبوا به أخذوا يقولونه فكان جميعهم ممن يقوله، ولذلك أسند الله إليهم هذا القول في آية: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [الفرقان:٥].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ} أصله سنوسمه من الوسم وهو إحداث السِمة أي العلامة، والمعنى سنجعل له سمة وعلامة يعرف بها بالكي على أنفه الذي هو أكرم مواضعه لغاية إهانته وإذلاله، وكناية عن التمكن منه وإظهار عجزه.

وقد كان الوسم للإبل ونحوها، جعل سمة لها أنها من مملوكات القبيلة أو المالك المعين. فالمعنى: سنعامله معاملة يعرف بها أنه عبدنا وأنه لا يغني عنه ماله وولده منا شيئا.

فهو عدةٌ منه تعالى بغاية إذلالِه، بعد تناهي كبره وعجبه وزهوه وعتوه. تقول العرب: وسمته بميسم السوء، يريدون أنه ألصق به من العار مالا يفارقه.

قال الزمخشري: الوجه أكرم موضع في الجسد، والأنف أكرم موضع من الوجه، لتقدمه له، ولذلك جعلوه مكان العز والحميّة، واشتقوا منه الأنفَة، وقالوا: الأنَف في الأنف، وحمى أنفه، وفلان شامخ العرنين. وقالوا في الذليل: جدع أنفه، ورغم أنفه.

فعَّبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة، لأن السمة على الوجه شين وإذالة، فكيف بها على أكرم موضع منه؟ ولقد وسم العباس أباعره في وجوهها، فقال له رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (أكرموا الوجوه)، فوسمها في جواعرها [ناحيتا الوركين حول الدبر]. وقيل: لفظ الخرطوم استخفاف به واستهانة، لأن أصل الخرطوم للخنزير والفيل. وقيل: سنعلمه يوم القيامة بعلامة مشوّهة يبين بها عن سائر الكفرة، كما عادى رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عداوة بان بها عنهم. انتهى.

قال الزيلعي في حديث (أكرموا الوجوه) غريب بهذا اللفظ، وروى مسلم في صحيحه في كتاب اللباس من حديث عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ أَنَّ نَاعِمًا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَوْلَى أُمِّ سَلَمَةَ حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُول: وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حِمَارًا مَوْسُومَ الْوَجْهِ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ قَالَ فَوَاللَّهِ لَا أَسِمُهُ إِلَّا فِي أَقْصَى شَيْءٍ مِنْ الْوَجْهِ فَأَمَرَ بِحِمَارٍ لَهُ فَكُوِيَ فِي جَاعِرَتَيْهِ فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ كَوَى الْجَاعِرَتَيْنِ.

قال النووي: وأما الجاعرتان فهما حرفا الورك المشرفان مما يلي الدبر، وأما القائل: "فوالله لا أسمه إلا أقصى شيء من الوجه" هو العباس بن عبد المطلب.. قال



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

القاضي وهو في كتاب مسلم مشكل يوهم أنه من قول النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– والصواب أنه من قول العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣)

{إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ} ضمير الغائبين في قوله: {بَلَوْنَاهُمْ} يعود إلى {الْمُكَذِّبِينَ} في قوله: {فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ} [القلم:٨]. والجملة مستأنفة دعت إليه مناسبة قوله: {أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ، إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [القلم:١٤–١٥] فإن الازدهار والغرور بسعة الرزق المفضيين إلى الاستخفاف بدعوة الحق وإهمال النظر في كنهها ودلائلها قد أوقع من قديم الزمان أصحابهما في بطر النعمة وإهمال الشكر فجر ذلك عليهم شر العواقب، فضرب الله للمشركين مثلا بحال أصحاب هذه الجنة لعلهم يستفيقون من غفلتهم وغرورهم.

{كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ} الجنة: البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه.. {أَصْحَابَ الْجَنَّةِ} قوم من أهل الكتاب، وليس من ضرورة الاعتبار بالمثل والعظة به تعيين أهله، لولا محبة المأثور.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

والبلوى المذكورة هنا بلوى بالخير فإن الله أمد أهل مكة بنعمة الأمن، ونعمة الرزق، وجعل الرزق يأتيهم من كل جهة، ويسر لهم سبل التجارة في الآفاق بنعمة الإيلاف برحلة الشتاء ورحلة الصيف، فلما أكمل لهم النعمة بإرسال رسول منهم ليكمل لهم صلاح أحوالهم ويهديهم إلى ما فيه النعيم الدائم فدعاهم وذكرهم بنعم الله أعرضوا وطغوا ولم يتوجهوا بالنظر إلى النعم السالفة ولا النعمة الكاملة التي أكملت لهم النعم. فلا تكون عاقبتهم إلا كعاقبة أهل الجنة في امتحانهم الآتي، ثم دمارهم.

وهذا التمثيل تعريض بالتهديد بأن يلحقهم ما لحق أصحاب الجنة من البؤس بعد النعم، والقحط بعد الخصب.

{إِذْ أَقْسَمُوا} وهذا يقتضي أن بعضهم كان مترددا في موافقتهم على ما عزموا عليه، وأنهم ألجموه بالقسم وهذا الذي يلتئم مع قوله تعالى: {قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ} [القلم:٢٨]

{لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ} الصرم: قطع الثمرة وجذاذها.. حلفوا فيما بينهم ليقطعن ثمرها مبكرين لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء.

{وَلَا يَسْتَثْنُونَ} ولم يقولوا: إن شاء الله، أي لمبلغ غرورهم بقوة أنفسهم صاروا إذا عزموا على فعل شيء لا يتوقعون له عائقا.

أو لا يستثنون من الثمرة شيئا للمساكين.

وعلى الروايات كلها يعلم أن أهل هذه الجنة لم يكونوا كفارا، فوجه الشبه بينهم وبين المشركين المضروب لهم هذا المثل هو: بطر النعمة والاغترار بالقوة.

{فَطَافَ} الطواف: المشي حول شيء من كل جوانبه يقال: طاف بالكعبة، وأريد هنا تمثيل حالة الإصابة لشيء كله بحال من يطوف بمكان.

{عَلَيْهَا طَائِفٌ} تنوين {طائف} للتعظيم، أي أمر عظيم وقد بينه بقوله: {فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ} فهو طائف سوء.

{مِنْ رَبِّكَ} فطرق جنة هؤلاء القوم، طارق من أمر الله لتدميرها.. قال ابن جرير: ولا يكون الطائف في كلام العرب إلا ليلاً، ولا يكون نهاراً.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَهُمْ نَائِمُونَ} مستغرقون في سُباتهم، غافلون عما يمكر بهم. تأكيد على الأول، وتأسيس على الثاني.

{فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ} كالبستان الذي صرم ثمره بحيث لم يبق فيه شيء، أو كالليل الأسود لاحتراقها.

والصريم من أسماء الليل ومن أسماء النهار لأن كل واحد منهما ينصرم عن الآخر

وقيل الصريم: الرماد الأسود بلغة جذيمة أو خزيمة.

وقيل الصريم: اسم رملة معروفة باليمن لا تنبت شيئا.

وإيثار كلمة الصريم هنا لكثرة معانيها وصلاحية جميع تلك المعاني لأن تراد في الآية.

وعجل العقاب لهم قبل التلبس بمنع الصدقة لأن عزمهم على المنع وتقاسمهم عليه حقق أنهم مانعون صدقاتهم فكانوا مانعين، ويؤخذ من الآية موعظة إلى الذين لا يواسون بأموالهم أن الله تعالى قد يعجل لهم العقوبة.

{فَتَنَادَوْا} فنادى بعضهم بعضاً، وهو مشعر بالتحريض على الغدو إلى جنتهم مبكرين.

{مُصْبِحِينَ} وقت الصبح ليذهبوا إلى الجَذَاذ، ولم يشعروا بما جرى لجنتهم بالليل.

{أَنِ اغْدُوا} أخرجوا غدوة وهي أول النهار {عَلَى حَرْثِكُمْ} زرعكم، وقد يطلق الحرث على الجنة لأنهم يتعاهدونها بالحرث لإصلاح شجرها.

{إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ} قاصدين قطع ثمارها، وقد قطعها البلاء من أصلها.

{فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ} يتناجون ويتسارّون فيما بينهم بحيث لا يُسمعون أحدًا كلامهم.

{أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ} قال الزمخشري: والنهي عن الدخول للمسكين، نهي لهم عن تمكينه منه. أي: لا تمكنوه من الدخول حتى يدخل، كقولك: "لا أَرَيَنَّك هاهنا"

{عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ} فقير

{وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ} في الحرد أربعة أقوال:



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الأول: المنع.. ونزل فلان حريدا، أي: متمنعا عن مخالطة القوم. وحاردت السنة: منعت قطرها، والناقة منعت درها.

الثاني: القصد القوي والسرعةُ.. أي: غَدَوا قاصدينَ إلى جنتِهم بسرعةٍ.

الثالث: الغضب.

الرابع: اسم الجنة.

{قَادِرِينَ} يحتمل أن يكون من القدرة، أي قادرين في زعمهم أو قادرينَ على إصابةِ خيرِهَا ومنافِعِهَا أو التضييق أي ضيقوا على المساكين.

والمعنى: وساروا في أول النهار إلى حديقتهم على قصدهم السيِّئ في منع المساكين من ثمار الحديقة، وهم في غاية القدرة على تنفيذه في زعمهم.

وقيل: {وَغَدَوْاْ على حَرْدٍ قادرين} أي على نكدٍ، والمَعْنَى أنَّهم أرادُوا أنْ يتنكدُوا على المساكينِ ويحرمُوهُم، وهم قادرونَ على نفعِهِم فغَدوا بحالٍ لا يقدرونَ فيها إلا على النكدِ والحرمانِ، وذلكَ أنَّهُم طلبُوا حرمانَ المساكينِ فتعجلُوا الحرمانَ والمسكنَةَ.

والتعبير بقادرين على الحرد دون أن يقول: وغدوا حادرين تهكم لأن شأن فعل القدرة أن يذكر في الأفعال التي يشق على الناس إتيانها، قال تعالى: {لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا} [البقرة:٢٦٤] وقال: {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ} [القيامة:٤] فقوله: {عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ} على هذا الاحتمال من باب قولهم: فلان لا يملك إلا الحرمان أو لا يقدر إلا على الخيبة.

وإذا حمل الحرد على معنى السرعة والقصد كان {عَلَى حَرْدٍ} متعلقا بـ {غَدَوْا} مبينا لنوع الغدو، أي غدوا غدو سرعة واعتناء، والمعنى: غدوا بسرعة ونشاط، مقدرين أنهم قادرون على تحقيق ما أرادوا.

وفي الكلام تعريض بأنهم خابوا، دل عليه قوله بعده {فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ} [القلم:٢٦]، وقوله قبله: {فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ}.

وإذا أريد بالحرد الغضب والحنق فإنه يقال: أي غدوا لا قدرة لهم إلا على الحنق والغضب على المساكين لأنهم يقتحمون عليهم جنتهم كل يوم فتحيلوا عليهم بالتبكير



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

إلى جذاذها، أي لم يقدروا إلا على الغضب والحنق ولم يقدروا على ما أرادوه من اجتناء ثمر الجنة.

وعن السدي: أن {حَرْدٍ} اسم قريتهم، أي جنتهم. وأحسب أنه تفسير ملفق [التحرير والتنوير]

اتفق أئمة الأدب على أن وقوع اللفظ المتنافر في أثناء الكلام الفصيح لا يزيل عنه وصف الفصاحة، فإن العرب لم يعيبوا معلقة امرئ القيس ولا معلقة طرفة. قال أبو العباس المبرد: وقد يضطر الشاعر المفلق والخطيب المصقع والكاتب البليغ فيقع في كلام أحدهم المعنى المستغلق واللفظ المستكره فإذا انعطفت عليه جنبتا الكلام غطتا على عواره وسترتا من شينه.

وأما ما يعرض للهجات العرب فذلك شيء تفاوتت في مضماره جياد ألسنتهم، وكان المجلي فيها لسان قريش ومن حولها من القبائل، وهو مما فسر به حديث: (أنزل القرآن على سبعة أحرف)، ولذلك جاء القرآن بأحسن اللهجات وأخفها وتجنب المكروه من اللهجات، وهذا من أسباب تيسير تلقي الأسماع له ورسوخه فيها. قال تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [القمر:١٧]

ومما أعده في هذه الناحية صراحة كلماته باستعمال أقرب الكلمات في لغة العرب دلالة على المعاني المقصودة، وأشملها لمعان عديدة مقصودة بحيث لا يوجد في كلمات القرآن كلمة تقصر دلالتها عن جميع المقصود منها في حالة تركيبها، ولا تجدها مستعملة إلا في حقائقها مثل إيثار كلمة «حرد» في قوله تعالى: {وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ} [القلم:٢٥] إذ كان جميع معاني الحرد صالحا للإرادة في ذلك الغرض، أو مجازات أو استعارات أو نحوها مما تنصب عليه القرائن في الكلام.

{قَادِرِينَ} وإذا كان القدر لا ينافي الأسباب الكونية والشرعية فهو لا ينافي أن يكون للعبد إرادة وقدرة يكون بهما فعله، فهو مريد قادر فاعل لقوله تعالى: {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ} [آل عمران:١٥٢]. وقوله: {وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ} [القلم:٢٥]. وقوله: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

تَثْبِيتاً} [النساء:٦٦]. وقوله: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا} [فصلت:٤٦].

لكنه غير مستقل بإرادته وقدرته وفعله، كما لا تستقل الأسباب بالتأثير في مسبباتها لقوله تعالى: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير:٢٨-٢٩]. ولأن إرادته وقدرته وفعله من صفاته وهو مخلوق، فتكون هذه الصفات مخلوقة أيضاً، لأن الصفات تابعة للموصوف، فخالق الأعيان خالق لأوصافها.

{فَلَمَّا رَأَوْهَا} فلما صاروا إليها، ورأوها محترقاً حرثها {قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} أنكروها وشكوا فيها: هل هي جنتهم أم لا؛ فقال بعضهم لأصحابه: ظناً منه أنهم قد أغفلوا طريق جنتهم وأن التي رأوها غيرها: إنا أيها القوم لضالون طريق جنتنا! فقال من علم أنها جنتهم، وأنهم لم يخطئوا الطريق: بل نحن أيها القوم، محرومون، حرمنا منفعة جنتنا بذهاب حرثها.

فالحرمان الأعظم قد اختص بهم إذ ليس حرمان المساكين بشيء في جانب حرمانهم.

{قَالَ أَوْسَطُهُمْ} أي أعدلهم وأخيرهم وخيرهم رأياً، وليس المراد أوسطهم سنا، ومثله قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً} [البقرة:١٤٣] أي خيارا عدولا.

{أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا} حرف تحضيض {تُسَبِّحُونَ} تنزيه الله عن أن يعصى أمره في شأن إعطاءه زكاة ثمارهم.

أو تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم، وتخشون انتقامه من المجرمين.

وكان أوسطهم وعظهم حين عزموا على عزيمتهم الخبيثة، فعصوه، فعيّرهم.

{قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} في ترك استثناء حق المساكين ومنع المعروف عنهم من تلك الجنة.. أتوا بالطاعة حيث لا تنفع، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع.

{فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ} والإقبال: حقيقته المجيء إلى الغير من جهة وجهه وهو مشتق من القبل وهو ما يبدو من الإنسان من جهة وجهه ضد الدبر، وهو هنا تمثيل لحال العناية باللوم.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{يَتَلَاوَمُونَ} يلوم بعضهم بعضاً. واللوم: إنكار متوسط على فعل أو قول وهو دون التوبيخ وفوق العتاب.

{قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ} متجاوزين حدود الله تعالى في تفريطنا وعزمنا السيئ.

{عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا} بتوبتنا إليه، وندمنا على خطأ فعلنا، وعزمنا على عدم العودة إلى مثله.

{إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ} في العفو عما فرط منا، والتعويض عما فاتنا.

والمقصود من الإطناب في قولهم بعد حلول العذاب بهم تلقين الذين ضرب لهم هذا المثل بأن في مكنتهم الإنابة إلى الله بنبذ الكفران لنعمته إذ أشركوا به من لا إنعام لهم عليه.

{كَذَلِكَ الْعَذَابُ} في الدنيا لمن خالف الرسل، وكفر بالحق، وبغى الفساد في الأرض.. رجوع إلى تهديد المشركين المبدوء من قوله: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ}.

{وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ} أعظم منه {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} لارتدعوا وتابوا وأنابوا.

وضمير {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} عائد إلى ما عاد إليه ضمير الغائب في قوله: {بَلَوْنَاهُمْ}، وهم «المشركون» فإنهم كانوا ينكرون عذاب الآخرة فهددوا بعذاب الدنيا، ولا يصح عوده إلى {أَصْحَابَ الْجَنَّةِ} لأنهم كانوا مؤمنين بعذاب الآخرة وشدته.

قيل: كانوا من أهل الحبشة، وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة، وكانوا من أهل الكتاب، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة، فكان ما استغله منها يرد فيها ما يحتاج إليها ويدّخر لعياله قوت سنتهم، ويتصدق بالفاضل. فلما مات ورثه بنوه، قالوا: لقد كان أبونا أحمقَ إذ كان يصرف من هذه شيئًا للفقراء، ولو أنَّا منعناهم لتوفر ذلك علينا. فلما عزموا على ذلك عُوقِبوا بنقيض قصدهم، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية، رأس المال الربح والصدقة، فلم يبق لهم شيء.

قال في «الإكليل»: "قال ابن الفَرَس: استدل بهذه القصة عبد الوهاب على أن من فرّ من الزكاة قبل الحول بتبديل أو خلط، فإن ذلك لا يسقطها، ووجه ذلك: أنهم



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قصدوا بقطع الثمار إسقاط حق المساكين، فعاقبهم الله بإتلاف ثمارهم. وفيها كراهة الجذاذ والحصاد بالليل، كما ورد التصريح بالنهي عنه في الحديث، لأجل الفقراء".

والحديث الذي يقصد ما رواه البيهقي في «السنن الكبرى» عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نَهَى عَنِ الْجَدَادِ [صرام النخل وهو قطع ثمرتها] بِاللَّيْلِ، وَالْحَصَادِ بِاللَّيْلِ. قَالَ جَعْفَرٌ: أُرَاهُ مِنْ أَجْلِ الْمَسَاكِينِ.

وحكى الزمخشري عن قتادة أنه سُئل عن أصحاب الجنة: أهم من أصحاب الجنة أم من أهل النار ؟ فقال: لقد كلفتني تعباً. وعن مجاهد: تابوا فأُبدلوا خيراً منها، والله أعلم.

**إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١)**

{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ} استئناف بياني لأن من شأن ما ذكر من عذاب الآخرة للمجرمين أن ينشأ عنه سؤال في نفس السامع بقول: فما جزاء المتقين؟

وتقديم المسند على المسند إليه للاهتمام بشأن المتقين ليسبق ذكر صفتهم العظيمة ذكر جزاءها. واللام للاستحقاق. والعندية هنا عندية كرامة واعتناء.

{جَنَّاتِ النَّعِيمِ} وإضافة {جنات} إلى {النعيم} تفيد أنها عرفت به فيشار بذلك إلى ملازمة النعيم لها، فلا يكون فيها ما يكون من جنات الدنيا من المتاعب مثل الحر في بعض الأوقات أو شدة البرد أو مثل الحشرات والزنابير، أو ما يؤذي مثل شوك الأزهار والأشجار وروث الدواب وذرق الطير.

{أَفَنَجْعَلُ} الهمزة للاستفهام الاستنكاري {الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ} في الكرامة والمثوبة الحسنى، والعاقبة الحميدة.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

والاستفهام وما بعده من التوبيخ، والتخطئة، والتهكم على إدلالهم الكاذب، ومؤذن بأن ما أنكر عليهم ووبخوا عليه وسفهوا على اعتقاده كان حديثا قد جرى في نواديهم أو استسخروا به على المسلمين في معرض جحود أن يكون بعث، وفرضهم أنه على تقدير وقوع البعث والجزاء لا يكون للمسلمين مزية وفضل عند وقوعه.

وعن مقاتل لما نزلت آية {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ} قالت قريش: إن كان ثمة جنة نعيم فلنا فيها مثل حظنا وحظهم في الدنيا، وعن ابن عباس أنهم قالوا: إنا نعطى يومئذ خيرا مما تعطون فنزل قوله: {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ} الآية.

وإنكار جعل الفريقين متشابهين كناية عن إعطاء المسلمين جزاء الخير في الْآخِرَةِ وحرمان المشركين منه، لأن نفي التساوي وارد في معنى «التضاد» في الخير والشر في القرآن وكلام العرب. قال تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ} [السجدة:١٨]، وقال: {لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ} [الحشر:٢٠]، وقال: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [ص:٢٨]

{مَا لَكُمْ} استفهام استنكاري فيه التفات {كَيْفَ تَحْكُمُونَ} بما ينبو عنه العقل السليم، فإنهما لا يستويان في قضيته.

{أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ} إضراب انتقال من توبيخ إلى احتجاج على كذبهم.. والاستفهام المقدر مع {أَمْ} إنكار لأن يكون لهم كتاب، إنكارا مبنيا على الفرض وإن كانوا لم يدعوه.

وفي هذا إدماج بالتعريض بأنهم أميون ليسوا أهل كتاب وأنهم لما جاءهم كتاب لهديهم وإلحاقهم بالأمم ذات الكتاب كفروا نعمته وكذبوه.

{إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ} أصله تتخيرون بتاءين، حذفت إحداهما تخفيفا. والتخير: تكلف الخير، أي تَطَلُّبُ مَا هُوَ فِي أَخْيَرِ. والمعنى: إن في ذلك الكتاب لكم ما تختارون من خير الجزاء لأنفسكم، وتشتهونه لكم، كقوله: {أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ} [فاطر:٤٠]، وهذا توبيخ لهم وتقريع فيما كانوا يقولون من الباطل، ويتمنون من الأماني الكاذبة.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا} أقسمنا لكم {بَالِغَةٌ} متناهية في التوكيد. وأصله بالغة أقصى ما يمكن، استعارة لمعنى «مغلظة»، شبهت بالشيء المبالغ إلى نهاية سيره. وذلك كقوله تعالى: {قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ} [الأنعام:١٤٩].

{إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} صفة لـ {أَيْمَانٌ}، أي أيمان مؤبدة لا تحلة منها فحصل من الوصفين أنها عهود مؤكدة ومستمرة طول الدهر. كما في قوله تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [الأحقاف:٥]

{إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ} تقضون من أمانيكم ومزاعمكم.

{سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ} الحكم {زَعِيمٌ} كفيل به، يدعيه ويصححه.. استفهام مستعمل في التهكم زيادة على الإنكار عليهم، وقد جعل الزعيم أحدا منهم زيادة في التهكم، وهو أن جعل الزعيم لهم واحدا منهم لدعوى عزتهم وكبريائهم.

{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ} يشاركونهم في هذا الزعم، ويوافقونهم عليه {فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ} في دعواهم.

والآية إضراب انتقالي ثالث إلى إبطال مستند آخر مفروض لهم في سند قولهم: إنا نعطى مثل ما يعطى المسلمون أو خيرا مما يعطونه، وهو أن يفرض أن أصنامهم تنصرهم وتجعل لهم حظا من جزاء الخير في الآخرة.

وتنكير {شُرَكَاءُ} في حيز الاستفهام المستعمل في الإنكار يفيد انتفاء أن يكون أحد من الشركاء –أي الأصنام لهم– تنفعهم، فيعم أصنام جميع قبائل العرب المشترك في عبادتها بين القبائل، والمخصوصة ببعض القبائل.

قال الزمخشري: يعني أن أحداً لا يسلّم لهم بهذا، ولا يساعدهم عليه، كما أنه لا كتاب لهم ينطق به، ولا عهد به عند الله، ولا زعيم لهم يقوم به. ففيه تنبيه على نفي جميع ما يمكن أن يتشبثوا به من عقل أو نقل.

**يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣)**



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{يَوْمَ} القيامة {يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ} عن مجاهد قال: شدة الأمر، وعن ابن عباس: هو الأمر الشديد المُفظِع من الهول يوم القيامة.

{وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ} قال ابن كثير: روى البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ: (يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ فَيَبْقَى كُلُّ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا).

تنبيه: ظن بعض الناس أن الحافظ ابن كثير سلك هنا مسلك التأويل لصفة الساق، وهذا فهم خاطئ؛ وذلك لأن الحافظ ابن كثير فسر هذه الآية بحديث أبي سعيد –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– ثم ذكر ما قيل في هذه الآية، وقد تكلم الإمام ابن القيم عن هذه الآية كلامًا بديعًا قال –رحمه الله– في «الصواعق المرسلة»:

"والصحابة متنازعون في تفسير هذه الآية: هل المراد الكشف عن الشدة؟ أو المراد بها أن الرب تعالى يكشف عن ساقه؟ ولا يحفظ عن الصحابة والتابعين نزاع فيها يذكر أنه من الصفات أم لا في غير هذا الموضوع، وليس في ظاهر القرآن ما يدل على أن ذلك صفة لله؛ لأنه سبحانه لم يضف الساق إليه، وإنما ذكره مجردًا عن الإضافة منكرًا، والذين أثبتوا ذلك صفة كاليدين والأصبع لم يأخذ ذلك من ظاهر القرآن، وإنما أثبتوه بحديث أبي سعيد الخدري المتفق على صحته، وهو حديث الشفاعة الطويل وفيه: (فيكشف الرب عن ساقه فيخرون له سجدًا). ومن حمل الآية على ذلك قال: قوله تعالى: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ} مطابق لقوله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (فيكشف عن ساقة فيخرون له سجدًا). وتنكيره للتعظيم والتفخيم كأنه قال: يكشف عن ساق عظيمة، جلت عظمتها وتعالى شأنها أن يكون لها نظير أو مثل أو شبيه، قالوا: وحمل الآية على الشدة لا يصح بوجه؛ فإن لغة القوم في مثل ذلك أن يقال: كشف الشدة عن القوم لا كشف عنها، كما قال تعالى: {فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ} [الزخرف:٥٠]، وقال: {وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ} [المؤمنون:٧٥]، فالعذاب والشدة هو



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

المكشوف لا المكشوف عنه، وأيضًا فهناك تحدث الشدة وتشتد، ولا تزال إلا بدخول الجنة، وهناك لا يدعون إلى السجود، وإنما يدعون إليه أشد ما كانت الشدة" انتهى

{خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ} خشوع الأبصار: هيئة النظر بالعين بذلة وخوف، استعير له وصف {خَاشِعَةً} لأن الخاشع يكون مطأطئا مختفيا.

{تَرْهَقُهُمْ} تحل بهم وتقترب منهم بحرص على التمكن منهم، قال تعالى: {تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ} [عبس:٤١] أي: تغشاها ظلمة وسواد {ذِلَّةٌ} تغشاهم يوم القيامة ذلة العصيان السالف لهم.

{وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ} وهم قادرون على السجود لا علة تعوقهم في أجسادهم لسلامتها من العاهات والأمراض.

أي: تغشاهم في الدار الآخرة ذلة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه. ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة، إذا تجلى الرب –عز وجل– فيسجد له المؤمنون، لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجُد، بل يعود ظهر أحدهم طبقًا واحدًا، كلما أراد أحدهم أن يسجد خَرّ لقفاه، عكس السجود، كما كانوا في الدنيا، بخلاف ما عليه المؤمنون.

**فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧)**

وبعد أن استوفي الغرض من موعظتهم ووعيدهم وتزييف أوهامهم أعقب بهذا الاعتراض تسلية للرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بأن الله تكفل بالانتصاف من المكذبين ونصره عليهم.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{فَذَرْنِي} وهذا تهديد شديد، أي: كِله إليّ فإني أكفيكه، وهذا من بليغ الكناية، كأنه يقول: حسبك انتقاماً منه أن تكل أمره إليّ، وتخلّي بيني وبينه، فإني عالم بما يجب أن يفعل به، قادر على ذلك.

وهي تمثيلا في تعهده بأن يكفي مؤونة شيء دون استعانة بصاحب المؤونة لأنه أقدر من المعتدى عليه في الانتصاف من المعتدي فيتفرغ له ولا يطلب من صاحب الحق إعانة له على أخذ حقه، كقوله تعالى: {وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ} [المزمل:١١] {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً} [المدثر:١١]

وهي أيضا كلمة يقولها المغتاظ إذا اشتد غيظه وغضبه وكره أن يشفع لمن اغتاظ عليه.

وهذا وعد للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالنصر ووعيد لهم بانتقام في الدنيا لأنه تعجيل لتسلية الرسول.

{وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ} يعني: القرآن. وتسميته حديثا لما فيه من الإخبار عن الله تعالى، وما فيه من أخبار الأمم وأخبار المغيبات، وقد سمي بذلك في قوله تعالى: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف:١٨٥] وقوله تعالى: {أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ} [النجم:٥٩-٦٠] وقوله: {أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ} [الواقعة:٨١] أي: متهاونون مكذبون.

{سَنَسْتَدْرِجُهُمْ} نون المتكلم المشارك، والمراد الله وملائكته الموكلون بتسخير الموجودات وربط أحوال بعضها ببعض على وجه يتم به مراد الله، فلذلك جيء بنون المتكلم.

{مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} سنكيدهم بالإمهال وإدامة الصحة، وزيادة النعم، من حيث لا يعلمون أنه استدراج، وسبب لهلاكهم، وذلك أجلب لقوة حسرتهم عند حدوث المصائب بهم.. يقال: استدرجه إلى كذا، أي: استنزله إليه درجة فدرجة، حتى يورطه فيه.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

كما قال: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون:٥٥-٥٦]، وقال: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} [الأنعام:٤٤]

{وَأُمْلِي لَهُمْ} أمهلهم وأُنْسئُ في آجالهم ملاوةً من الزمان، لتكمل حجة الله عليهم.

والإملاء ينفرد به الله وحده فلذلك جيء معه بضمير المفرد. ونظير هذه الآية قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [الأعراف:١٨٢-١٨٣]

{إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} كيدي بأهل الكفر شديد قويّ.

وفي البخاري عَنْ أَبِي مُوسَى -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ) قَالَ ثُمَّ قَرَأَ {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}.

قال الزمخشريّ: الصحة والرزق والمدّ في العمر، إحسان من الله وإفضال، يوجب عليهم الشكر والطاعة، ولكنهم يجعلونه سبباً في الكفر باختيارهم، فلما تدرجوا به إلى الهلاك، وصف النعم بالاستدراج. وقيل: كم من مستدرج بالإحسان إليه، وكم من مفتون بالثناء عليه، وكم من مغرور بالستر عليه. وسمى إحسانه وتمكينه كيداً، كما سماه استدراجاً، لكونه في صورة الكيد، حيث كان سبباً للتورط في الهلكة. ووصفه بالمتانة لقوة أثر إحسانه في التسبب للهلاك.

{أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا} على ما أتيتهم به من النصيحة، ودعوتهم إليه من الحق.. إضراب آخر للانتقال إلى إبطال آخر من إبطال معاذيرهم في إعراضهم عن استجابة دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

{فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ} المغرم: ما يفرض على المرء أداؤه من ماله لغير عوض ولا جناية

{مُثْقَلُونَ} المثقل: الذي حمل عليه شيء ثقيل عليه.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أي: أثقلهم الأداء، فتحاموا لذلك قبول نصيحتك، وتجنبوا الدخول فيما دعوتهم إليه. والمعنى: لم تطلب منهم على الهداية والتعليم أجراً فيثقل عليهم حمله حتى يثبطهم عن الإيمان.

{أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ} منه ما يحكمون به، فيجادلونك بما فيه، ويزعمون أنهم على كفرهم بربهم أفضل منزلة عند الله من أهل الإيمان به، وأنهم مستغنون عن وحيه وتنزيله.

والكلام إضراب آخر انتقل به في مدارج إبطال معاذير مفروضة لهم أن يتمسكوا بها تعلة لإعراضهم عن قبول دعوة القرآن.

**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠)**

{فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} وهو إمهالهم، وتأخير ظهورك عليهم، أي: لا يثنينك عن تبليغ ما أمرت به أذاهم وتكذيبهم، بل امض صابراً عليه.

{وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ} وهو نبي الله يونس بن متى –عليه السلام–، وقد كانت مؤاخذة يونس –عليه السلام– على ضجره من تكذيب قومه وهم أهل نينوى، فذهب مُغَاضِبًا على قومه، فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر والتقام الحوت له، وشرود الحوت به في البحار وظلمات غمرات اليم، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلي القدير، الذي لا يُرَدّ ما أنفذه من التقدير، فحينئذ نادى في الظلمات {أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنبياء:٨٧]. قال الله تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} [الأنبياء:٨٨] وقال تعالى: {فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الصافات:١٤٣–١٤٤]

{إِذْ نَادَى} دعا ربه في بطن الحوت {وَهُوَ مَكْظُومٌ} والمكظوم: المحبوس المسدودة عليه والمملوء غيظاً وغمّاً.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وجيء بهذه الحال جملة اسمية لدلالتها على «الثبات»، أي هو في حبس لا يرجى لمثله سراح، وهذا تمهيد للامتنان عليه بالنجاة من مثل ذلك الحبس.

والمعنى: لا يوجدْ منك ما وجد منه من الضجر والونَى عن التبليغ، فتبتلى ببلائه.

{لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ} التدارك: تفاعل من الدَرَك وهو اللحاق {نِعْمَةٌ} التنكير للتعظيم لأنها نعمة مضاعفة مكررة {مِنْ رَبِّهِ} وهو قبول توبته، وتضرعه وابتهاله ورحمته {لَنُبِذَ} طرح {بِالْعَرَاءِ} الفضاء من الأرض الذي لا نبات فيه ولا بناء {وَهُوَ مَذْمُومٌ} يعني أن حاله كانت على خلاف الذم حين نبذ بالعراء، ولولا توبته لكانت حاله على الذم.

فتقدير الكلام: لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء نبذا ذميما، أي ولكن يونس نبذ بالعراء غير مذموم.

وأدمج في ذلك فضل التوبة والضراعة إلى الله، وأنه لولا توبته وضراعته إلى الله وإنعام الله عليه نعمة بعد نعمة لقذفه الحوت من بطنه ميتا فأخرجه الموج إلى الشاطئ فكان مثلة للناظرين أو حيا منبوذا بالعراء لا يجد إسعافا، أو لنجا والله غاضب عليه فهو مذموم عند الله مسخوط عليه. وهي نعم كثيرة عليه إذ أنقذه من هذه الورطات كلها إنقاذا خارقا للعادة.

{فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ} فاصطفاه واختاره لولايته برحمته. قال القاشاني: لمكان سلامة فطرته، وبقاء نور استعداده، وعدم رسوخ الهيئة الغضبية، والتوبة عن فرطات النفس، فقربه تعالى إليه.

{فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} المفضلون من الأنبياء، وقد قال إبراهيم عليه السلام: {رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [الشعراء:٨٣] وذلك إيماء إلى أن الصلاح هو أصل الخير ورفع الدرجات.

قال ابن عباس –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما–: رد الله إلى يونس الوحي وشفعه في نفسه وفي قومه.

**وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢)**



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَإِنْ يَكَادُ} صيغة المضارع للدلالة على استمرار ذلك في المستقبل.

{الَّذِينَ كَفَرُوا} عرف الله رسوله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بعض ما تنطوي عليه نفوس المشركين نحو النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– من الحقد والغيظ وإضمار الشر عندما يسمعون القرآن.

{لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ} الزَلَق: زلل الرجل من ملاسة الأرض من طين عيها أو دهن، كما في قوله تعالى: {فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً} [الكهف: ٤٠].

ولما كان الزلق يفضي إلى السقوط غالبا أطلق الزلق وما يشتق منه على السقوط والاندحاض على وجه الكناية، ومنه قوله هنا {لَيُزْلِقُونَكَ}، أي يسقطونك ويصرعونك.

قال الزمخشريّ: "يعني أنهم من شدة تحديقهم، ونظرهم إليك شزراً، بعيون العداوة والبغضاء، يكادون يزلون قدمك، أو يهلكونك، من قولهم: نظر إلي نظراً يكاد يصرعني، ويكاد يأكلني، أي: لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل، لفعله".

وقال ابن كثير: لينفذونك بأبصارهم، أي: ليعينونك بأبصارهم، بمعنى: يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك، وحمايته إياك منهم. وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق، بأمر الله –عز وجل– كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة.

ففي البخاري باب «العين حق» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– عَنْ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (الْعَيْنُ حَقٌّ) وَنَهَى عَنْ الْوَشْمِ.

وفي المسند بسند حسن لغيره عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (الْعَيْنُ حَقٌّ، تَسْتَنْزِلُ الْحَالِقَ) هو الجبل العالي المنيف المشرف

وفي مسلم عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– عَنْ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا)



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وفي المسند بسند صحيح عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– خَرَجَ، وَسَارُوا مَعَهُ نَحْوَ مَكَّةَ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِشِعْبِ الْخَزَّارِ مِنَ الْجُحْفَةِ، اغْتَسَلَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ وَكَانَ رَجُلًا أَبْيَضَ، حَسَنَ الْجِسْمِ، وَالْجِلْدِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ أَخُو بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ وَهُوَ يَغْتَسِلُ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ، وَلَا جِلْدَ مُخَبَّأَةٍ فَلُبِطَ بِسَهْلٌ [صرع به]، فَأُتِيَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ لَكَ فِي سَهْلٍ؟ [هل لك رغبة في إصلاح أمره] وَاللهِ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، وَمَا يُفِيقُ، قَالَ: (هَلْ تَتَّهِمُونَ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ؟) قَالُوا: نَظَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ فَدَعَا رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَامِرًا، فَتَغَيَّظَ عَلَيْهِ وَقَالَ: (عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟! هَلَّا إِذَا رَأَيْتَ مَا يُعْجِبُكَ بَرَّكْتَ؟) ثُمَّ قَالَ لَهُ: (اغْتَسِلْ لَهُ) فَغَسَلَ وَجْهَهُ، وَيَدَيْهِ، وَمِرْفَقَيْهِ ، وَرُكْبَتَيْهِ، وَأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ، وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ فِي قَدَحٍ، ثُمَّ صُبَّ ذَلِكَ الْمَاءُ عَلَيْهِ، يَصُبُّهُ رَجُلٌ عَلَى رَأْسِهِ، وَظَهْرِهِ مِنْ خَلْفِهِ، يُكْفِئُ الْقَدَحَ وَرَاءَهُ، فَفَعَلَ بِهِ ذَلِكَ، فَرَاحَ سَهْلٌ مَعَ النَّاسِ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ.

وصفته عند العلماء أن يؤتى بقدح ماء ولا يوضع القدح على الأرض بل يحمله شخص فيؤخذ من القدح غرفة فيتمضمض بها ثم يمجها في القدح ثم يؤخذ منه ما يغسل به وجهه ثم يأخذ بشماله ما يغسل به كفه الأيمن ثم بيمينه ما يغسل به مرفقه الأيسر ولا يغسل ما بين المرفقين والكفين ثم يغسل قدمه اليمنى ثم اليسرى ثم ركبته اليمنى ثم اليسرى على الصفة المتقدمة وكل ذلك في القدح ثم داخلة إزاره وهو الطرف المتدلي الذي يلي الأيمن وإذا استكمل هذا يقوم الذي في يده القدح فيصبه على رأس المعين من ورائه على جميع جسده ثم يكفأ القدح وراءه على ظهر الأرض من خلفه.

وهذا المعنى لا يمكن تعليله ومعرفة وجهه وليس في قوة العقل الاطلاع على أسرار جميع المعلومات فلا يدفع هذا بأن لا يعقل معناه.

وفي البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– قَالَ كَانَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَيَقُولُ: (إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ:



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ) اللامة ذات اللمم وهي كل داء وآفة تلم بالإنسان من جنون وخبل وغير ذلك.

وفي سنن ابن ماجة عَنْ أَبِي سَعِيدٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَتَعَوَّذُ مِنْ عَيْنِ الْجَانِّ ثُمَّ أَعْيُنِ الْإِنْسِ فَلَمَّا نَزَلَتْ الْمُعَوِّذَتَانِ أَخَذَهُمَا وَتَرَكَ مَا سِوَى ذَلِكَ. [صحيح]

وفي مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ فَقَالَ نَعَمْ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ اللَّهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ.

{لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ} بيّن تعالى أن هذا النظر كان يشتد منهم في حال قراءة النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– للقرآن.

{وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ} من الهذيان الذي يهذي به في جنونه، لعدم تمالك أنفسهم من الحسد منه، والتنفير عنه.

يقولون ذلك اعتلالا لأنفسهم إذ لم يجدوا في الذكر الذي يسمعونه مدخلا للطعن فيه، فانصرفوا إلى الطعن في صاحبه –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بأنه مجنون لينتقلوا من ذلك إلى الكلام الجاري على لسانه لا يوثق به ليصرفوا دهماءهم عن سماعه.

{وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ} الذكر: التذكير بالله والجزاء هو أشرف أنواع الكلام لأنه فيه صلاح للناس.

{لِلْعَالَمِينَ} أي: عظة وحكمة وتذكير وتنبيه لهم، على ما في عقولهم وفطرهم من التوحيد. فكيف يجنّن من جاء بمثله؟

وفي قوله: {وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ} مع قوله في أول السورة: {مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ} [القلم:٢] محسن رد العجز على الصدر.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بسم الله الرحمن الرحيم

# مع سورة الحاقة

سميت «سورة الحاقة» في عهد النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–. وباسم {الحاقة} عنونت في المصاحف وكتب السنة وكتب التفسير.

ووجه تسميتها «سورة الحاقة» وقوع هذه الكلمة في أولها ولم تقع في غيرها من سور القرآن.

وقال الفيروز أبادي في «بصائر ذوي التمييز»: إنها تسمى أيضا «سورة السلسلة» لقوله: {ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ} [الحاقة:٣٢] وسماها الجعبري في منظومته في ترتيب نزول السور «الواعية» ولعله أخذه من وقوع قوله: {وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} [الحاقة:١٢]

وهي مكية بالاتفاق. وقد عدت هذه السورة السابعة والسبعين في عداد ترتيب النزول. نزلت بعد سورة تبارك وقبل سورة المعارج. واتفق العادون من أهل الأمصار على عد آيها إحدى وخمسين آية.

## الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣)

{الْحَاقَّةُ} من: حق الشيء، إذا ثبت وقوعه.. والحاقةُ من أسماء يوم القيامة؛ لقب بذلك لأنه يوم محقق وقوعه، كما قال تعالى: {وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ} [الشورى:٧]، أو لأنه يَتَحقَّقُ الوَعدُ والوَعيد من قولهم: حق عليه الشيء، إذا وجب. فتحقق فيه الحقوق ولا يضاع الجزاء عليها، كما قال تعالى: {وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً} [النساء:٧٧]

{مَا} اسم استفهام مستعمل في التهويل والتعظيم {الْحَاقَّةُ} من وضع الظاهر موضع المضمر، تفخيماً لشأنها، وتعظيماً لهولها، أو لقصد ما في الاسم من التهويل. ونظيره في ذلك قوله تعالى: {وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ} [الواقعة:٢٧].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ} تأكيداً لتفخيم شأنها، حتى كأنها خرجت من دائرة علم المخاطب على معنى: أن عظم شأنها، وما اشتملت عليه، من الأوصاف، مما لم تبلغه دراية أحد من المخاطبين ولم تصل إليه معرفة أحد من السامعين، ولا أدركه وهمه، وكيفما قدر حالها، فهي وراء ذلك وأعظم. ومنه يعلم أن الاستفهام كناية عن لازمه، من أنها لا تعلم، ولا يصل إليها دراية دارٍ، ولا تبلغها الأفكار.

وقال الراغب: كل موضع ذكر في القرآن من قوله: {وَمَا أَدْرَاكَ} فقد عقب ببيانه نحو {وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ} [القارعة:١٠-١١]، {وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ، خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ} [القدر:٢-٣]، {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ، يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً} [الانفطار:١٨-١٩]، {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ، كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ}.

**كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨)**

{كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ} بالساعة التي تقرع الناس بأهوالها وهجومها عليهم.

فالقارعة: اسم فاعل من قرعه، إذا ضربه ضربا قويا، يقال: قرع البعير. وقالوا: "العبد يقرع بالعصا"، وسميت المواعظ التي تنكسر لها النفس قوارع لما فيها من زجر الناس عن أعمال الشر.

قال الزمخشريّ: "ووضعت موضع الضمير لتدل على معنى القرع في الحاقة، زيادة في وصف شدتها. ولمّا ذكرها وفخمها أتبع ذكر ذلك من كذب بها، وما حل بهم بسبب التكذيب، تذكيراً لأهل مكة، وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم".

وقال ابن عاشور: "والآية استئناف، وهو تذكير لما حل بثمود وعاد لتكذيبهم بالبعث والجزاء تعريضا بالمشركين من أهل مكة بتهديدهم أن يحق عليه مثل ما حل



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بثمود وعاد فإنهم سواء في التكذيب بالبعث. وعلى هذا يكون قوله: {الْحَاقَّةُ} الخ توطئة له وتمهيدا لهذه الموعظة العظيمة استرهابا لنفوس السامعين.

وابتدئ بثمود وعاد في الذكر من بين الأمم المكذبة لأنهما أكثر الأمم المكذبة شهرة عند المشركين من أهل مكة لأنهما من الأمم العربية ولأن ديارهما مجاورة شمالا وجنوبا".

{فَأَمَّا ثَمُودُ} قوم صالح عليه السلام {فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ} بالصيحة المجاوزة للحد في الشدة.. صيحة أسكتتهم، وزلزلة أسكنتهم.. قاله قتادة واختاره ابن جرير

أو الطاغية: الصاعقة في قول ابن عباس وقتادة: نزلت عليهم صاعقة أو صواعق فأهلكتهم.

أو المعنى: بطغيانهم.. قال مجاهد: الطاغية الذنوب، وقرأ ابن زيد: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا} [الشمس:١١].

وثمود أمة من العرب البائدة العاربة، وهم أنساب عاد. وثمود: اسم جد تلك الأمة، وكانت منازلهم في طريق أهل مكة إلى الشام في رحلتهم فهم يرونها، قال تعالى: {فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا} [النمل:٥٢]

{وَأَمَّا عَادٌ} قوم هود عليه السلام {فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ} شديدة العصوف والبرد، يكون لها صوت كالصرير {عَاتِيَةٍ} متجاوزة الحد المعروف في الهبوب والبرودة.. أي الشديدة العصف، وأصل العتو والعتي: شدة التكبر فاستعير للشيء المتجاوز الحد المعتاد تشبيها بالتكبر الشديد في عدم الطاعة والجري على المعتاد.

قال قتادة: عتت عليهم حتى نَقَّبت عن أفئدتهم.

{سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ} سلطها عليهم {سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا} متتابعات من حسمت الدابة، إذا تابعت بين كيّها. شبه تتابع الريح المستأصلة بتتابع الكيّ القاطع للداء.

المعنى الثاني: أن يكون من الحسم وهو القطع، أي حاسمة مستأصلة. ومنه سمي السيف "حساما" لأنه يقطع، أي حسمتهم فلم تبق منهم أحدا.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{فَتَرَى} خطاب لغير معين، أي فيرى الرائي لو كان راء، وهذا أسلوب في حكاية الأمور العظيمة الغائبة تستحضر فيه تلك الحالة كأنها حاضرة.

وقريب منه قوله تعالى: {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ} [الشورى: ٤٥]، وقوله: {وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً} [الإنسان: ٢٠]

{الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى} هلكى {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ} وعجز النخلة: هو الساق التي تتصل بالأرض من النخلة وهو أغلظ النخلة وأشدها {خَاوِيَةٍ} خالية مما كان مالئا له وحالا فيه. ووصف {نَخْلٍ} بأنها {خاوية} باعتبار إطلاق اسم "النخل" على مكانه والمعنى: خالية من الناس.

والمعنى: ساقطة مجتثة من أصولها كآية: {تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ} [القمر: ٢٠] أي: تقتلع الناس من مواضعهم على الأرض فترمي بهم على رؤوسهم، فتدق أعناقهم، ويفصل رؤوسهم عن أجسادهم، فتتركهم كالنخل المنقلع من أصله.

وفي البخاري ومسلم عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ).

{فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ} بقاء، أو نفس باقية، أو بقية.. بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خَلفَا. والخطاب لغير معين.

والآية تفريع على مجموع قصتي ثمود وعاد، فهو فذلكة لما فصل من حال إهلاكهما، وذلك من قبيل الجمع بعد التفريق، فيكون في أول الآية جمع ثم تفريق ثم جمع وهو كقوله تعالى: {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى، وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى} [النجم: ٥١]، أي فما أبقاهما.

## وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠)

{وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ} من الأمم المشبهين له المكذبة، كقوم نوح وإبراهيم.

{وَالْمُؤْتَفِكَاتُ} قرى قوم لوط الثلاث، وأريد بالمؤتفكات سكانها وهم قوم لوط خصوا بالذكر لشهرة جريمتهم ولكونهم كانوا مشهورين عند العرب إذ كانت قراهم في



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

طريقهم إلى الشام، قال تعالى: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ، وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ} [الصافات:١٣٧-١٣٨] وقال: {وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا} [الفرقان:٤٠].

ووصفت قرى قوم لوط بـ {الْمُؤْتَفِكَاتِ} جمع مؤتفكة، إذا قلبه، فهي المنقلبات، أي قلبها قالب فخسف بها، قال تعالى: {جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا} [هود:٨٢].

{بِالْخَاطِئَةِ} بالفعلة الخاطئة، وهي التكذيب بما أنزل الله. أو بالأفعال الخاطئة.

وجمع في الذكر هنا أمم تقدمت قبل بعثة موسى -عليه السلام- إجمالا وتصريحا، وخص منهم بالتصريح قوم فرعون والمؤتفكات لأنهم من أشهر الأمم ذكرا عند أهل الكتاب المختلطين بالعرب والنازلين بجوارهم، فمن العرب من يبلغه بعض الخبر عن قصتهم.

وفرع عنهم تفصيل ذنبهم المعبر عنه بالخاطئة فقال:

{فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ} وهذا التفريع للتفصيل نظير التفريع في قوله: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ} [القمر:٩] في أنه تفريع بيان على المبين.

أي: كُلّ كذّبَ الرسول المرسل إلى كل قوم من هؤلاء، وإفراد {رَسُولَ} مراد به التوزيع على الجماعات، أي رسول الله لكل جماعة منهم، والقرينة ظاهرة، وهو أجمل نظما من أن يقال: فعصوا رسل ربهم، لما في إفراد {رَسُولَ} من التفنن في صيغ الكلم من جمع وإفراد تفاديا من تتابع الجموع لأن صيغ الجمع لا تخلوا من ثقل لقلة استعمالها.

ومن كذب رسول الله فقد كذب بالجميع كما قال تعالى: {كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ} [ق:١٤]، {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} [الشعراء:١٠٥]، {كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ} [الشعراء:١٢٣]، {كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ} [الشعراء:١٤١]

{فَأَخَذَهُمْ} الأخذ: مستعمل في الإهلاك {أَخْذَةً} أي أخذنا كل أمة منهم أخذة. كما قال تعالى: {فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ} [القمر:٤٢]



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{رَابِيَةً} من ربا يربو إذا زاد، أي: زائدة في الشدة فهي عظيمة شديدة أليمة. أو والمراد بالأخذة الرابية: إهلاك الاستئصال، أي ليس في إهلاكهم إبقاء قليل منهم.

واستعير «الربو» هنا للشدة، كما تستعار الكثرة للشدة في نحو قوله تعالى: {لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً} [الفرقان: ١٤].

## إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)

{إِنَّا لَمَّا} في ذلك الوقت {طَغَى الْمَاءُ} كثر وتجاوز حده المعروف.. مستعار لشدته الخارقة للعادة تشبيها لها بطغيان الطاغي على الناس تشبيه تقريب فإن الطوفان أقوى شدة من طغيان الطاغي.

بسبب إصرار قوم نوح على الكفر والمعاصي، وتكذيبه، عليه السلام.

{حَمَلْنَاكُمْ} أسند الحمل إلى اسم الجلالة بناء على أنه أوحى إلى نوح بصنع الحاملة ووضع المحمول قال تعالى: {فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} [المؤمنون: ٢٧]

{فِي الْجَارِيَةِ} صفة لمحذوف وهو السفينة التي تجري على وجه الماء. وقد شاع هذا الوصف حتى صار بمنزلة الاسم قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ} [الشورى: ٣٢] {وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ} [الرحمن: ٢٤].

فعَمّ أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح في السفينة، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته.

قال ابن جرير: خاطب الذين نزل فيهم القرآن، وإنما حمل أجدادهم نوحاً وولده، لأن الذين خوطبوا بذلك، ولد الذين حُملوا في الجارية، فكان حملُ الذين حملوا فيها من الأجداد، حملاً لذريتهم.

{لِنَجْعَلَهَا} تلك الفعلة التي هي إنجاء المؤمنين، وإغراق الكافرين {لَكُمْ تَذْكِرَةً} آية وعبرة تذكرون بها صدق وعده في نصر رسله، وتدمير أعدائه.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَتَعِيَهَا} تحفظها {أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} حافظة، عقلت ما سمعت عن الله، متفكرة فيه.

قال ابن عاشور: "والمراد ب {إذن}: آذان واعية. وعموم النكرة في سياق الإثبات لا يستفاد إلا بقرينة التعميم كقوله تعالى: {وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ} [الحشر:١٨].

والوعي: العلم بالمسموعات، أي ولتعلم خبرها إذن موصوفة بالوعي، أي من شأنها أن تعي. وهذا تعريض بالمشركين إذ لم يتعظوا بخبر الطوفان والسفينة التي نجا بها المؤمنون فتلقوه كما يتلقون القصص الفكاهية".

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)

{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ} الصُّور: قرن ثور يقعر ويجعل في داخله سداد يسد بعض فراغه حتى إذا نفخ فيه نافخ انضغط الهواء فصوت صوتا قويا، وكانت الجنود تتخذه لنداء بعضهم بعضا عند إرادة النفير أو الهجوم.

والنفخ في الصور: عبارة عن أمر التكوين بإحياء الأجساد للبعث مثل الإحياء بنداء طائفة الجند المكلفة بالأبواق لنداء بقية الجيش حيث لا يتأخر جندي عن الحضور إلى موضع المناداة.

{نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ} لخراب العالم.. لما أتم تهديدهم بعذاب الدنيا فرع عليه إنذارهم بعذاب الآخرة الذي يحل عند القارعة التي كذبوا بها كما كذبت بها ثمود وعاد، فحصل من هذا بيان للقارعة بأنها ساعة البعث وهي الواقعة.

قال أبو السعود: "هذا شروع في بيان نفس الحاقة، وكيفية وقوعها، إثر بيان عظم شأنها بإهلاك مكذبيها".



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال ابن كثير: يقول تعالى مخبرا عن أهوال يوم القيامة، وأول ذلك نفخة الفزع، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يُصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور، وهي هذه النفخة. وقد أكدها هاهنا بأنها واحدة لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع، ولا يحتاج إلى تكرار وتأكيد.

قيل: والتنصيص على {واحدة} للتنبيه على التعجيب من تأثر جميع الأجساد البشرية بنفخة واحدة دون تكرير، تعجيبا عن عظيم قدرة الله ونفوذ أمره، لأن سياق الكلام من مبدأ السورة تهويل يوم القيامة فتعداد أهواله مقصود، فحصل في ذكر {نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ} تأكيد معنى النفخ وتأكيد معنى الوحدة، والمراد أنها غير محتاج حصول المراد منها إلى تكررها كناية عن سرعة وقوع الواقعة.

{وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً} ورُفعت الأرض والجبال عن أماكنها فكُسِّرتا، ودُقَّتا دقة واحدة.

والدك: دق شديد يكسر الشيء المدقوق، أي فإذا فرقت أجزاء الأرض وأجزاء جبالها.

وبنيت لأفعال: نفخت، وحملت، ودكتا للمجهول لأن الغرض متعلق ببيان المفعول لا الفاعل، وفاعل تلك الأفعال إما الملائكة أو ما أودعه الله من أسباب تلك الأفعال، والكل بإذن الله وقدرته.

وفي توصيفها بالوحدة تعظيم لها، وإشعار بأن المؤثر لدكّ الأرض والجبال وخراب العالم، هي وحدها، غير محتاجة إلى أخرى.

{فَيَوْمَئِذٍ} أي فيوم إذ نفخ في الصور إلى آخره حينئذ تقع الواقعة وهو تأكيد.

{وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} نزلت النازلة، وهي القيامة.. {الْوَاقِعَةُ} صار علما بالغلبة في اصطلاح القرآن على يوم البعث، قال تعالى: {إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ، لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ} [الواقعة: ١-٢].

وعبر عنه بفعل المضي تنبيها على تحقيق حصوله.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ} انصدعت، والشق: فتح منافذ في محيطها، قال تعالى: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً} [الفرقان:٢٥-٢٦].

{فَهِيَ يَوْمَئِذٍ} أي: أن الوهي طرأ عليها بعد أن كانت صلبة بتماسك أجزاءها.

{وَاهِيَةٌ} والوهي قريب من الوهن، أي: ضعيفة متفرقة متمزقة.

{وَالْمَلَكُ} أصله الواحد من الملائكة، وتعريفه هنا تعريف الجنس وهو في معنى الجمع، أي جماعة من الملائكة أو جميع الملائكة إذا أريد الاستغراق، واستغراق المفرد أصرح في الدلالة على الشمول.

{عَلَى أَرْجَائِهَا} جوانبها وأطرافها حين تشقق.. والمعنى: أن الملائكة يعملون في نواحي السماء ينفذون إنزال أهل الجنة بالجنة وسوق أهل النار إلى النار.

{وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ} تأكيد لما دل عليه {يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} من الملائكة.

روى أبو داود عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ)

{يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ} على ربكم للحساب والمجازاة، فتعرضون على عالم السر والنجوى الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر.

والعرض: أصله إمرار الأشياء على من يريد التأمل منها، مثل: عرض السلعة على المشتري، وعرض الجيش على أميره. وأطلق هنا كناية عن لازمه وهو المحاسبة مع جواز إرادة المعنى الصريح.

{لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ} سريرة كانت تخفى في الدنيا بستر الله.

وتكرير {يَوْمَئِذٍ} أربع مرات لتهويل ذلك اليوم الذي مبدؤه النفخ في الصور ثم يعقبه ما بعده.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)

{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ} علامة لفوزه، فإيتاء الكتاب باليمين علامة على أنه إيتاء كرامة وتبشير.

{فَيَقُولُ هَاؤُمُ} تعالوا، أو خذوا.. وهو قول ذي بهجة وحبور يبعثان على اطلاع الناس على ما في كتاب أعماله من جزاء في مقام الاغتباط والفخار.. والخطاب للصالحين من أهل المحشر.

{اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ} كتابي.. والقراء يستحبون أن يقف عليها القارئ ليوافق مشهور رسم المصحف، ولئلا يذهب حسن السجع.

{إِنِّي ظَنَنْتُ} في موقع التعليل للفرح والبهجة، أي: قد كنت موقنا في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة، كناية عن استعداده للحساب بتقديم الإيمان والأعمال الصالحة مما كان سبب سعادته.

كما قال: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ} [البقرة:٤٦]

والظن هنا على معنى «اليقين» وهو أحد معنييه. وعن الضحاك: "كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شك".

{أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ} جزائي يوم القيامة، فأعددت له عدته من الإيمان والعمل الصالح.

{فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ} ذات رضا، ملتبسة به، فيكون بمعنى: مرضية.

{فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} والعلو: الارتفاع، وهو من محاسن الجنات لأن صاحبها يشرف على جهات من متسع النظر، ولأنه يبدو له كثير من محاسن جنته حين ينظر إليها من أعلاها أو وسطها مما لا يلوح لنظره لو كانت جنته في أرض منبسطة، وذلك من زيادة البهجة والمسرة، لأن جمال المناظر من مسرات النفس ومن النعم.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{قُطُوفُهَا} وهو ما يقطف من ثمرها، جمع قِطْف، وهو الثمر، سمي بذلك لأنه يقطف.

{دَانِيَةٌ} قريبة سهلة التناول.. قال البراء بن عازب: "قريبة، يتناولها أحدهم، وهو نائم على سريره".

{كُلُوا} يقال لهم: كلوا {وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ} والإسلاف: جعل الشيء سلفا، أي سابقا. والمراد أنه مقدم سابق لِإِبَّانِهِ [لأوانه] لينتفع به عند الحاجة إليه، ومنه اشتق السلف للقرض، والإسلاف للإقراض، والسلفة للسلم.

{فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} الماضية البعيدة في الحياة الدنيا مشتق من الخلو وهو الشغور والبعد.

وجاء الخطاب بالجمع لأنه موجه لكل الفريق بعد حلولهم في الجنة، كما يدخل الضيوف إلى المأدبة فيحيي كل داخل منهم بكلام يخصه فإذا استقروا أقبل عليهم مضيفهم بعبارات الإكرام.

يقال لهم ذلك؛ تفضلا عليهم، وامتنانا وإنعاما وإحسانا. وإلا فقد ثبت في الصحيح، عن رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أنه قال: (لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ) قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: (لَا وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَلَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ) [البخاري]

**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧)**



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ} علامة على خسرانه، وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطي أحدهم كتابه في العَرَصات بشماله، فحينئذ يندم غاية الندم.

{فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ} لأنه علم من الاطلاع على كتابه أنه صائر إلى العذاب، فيتمنى أن لا يكون علم بذلك إبقاء على نفسه من حزنها زمنا، فإن ترقب السوء عذاب.

{وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ} أي شيء حسابي {يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ} قال ابن جرير: أي: يا ليت الموتة التي متها في الدنيا كانت هي الفراغ من كل ما بعدها، ولم يكن بعدها حياة ولا بعث. والقضاء هو الفراغ.

قال قتادة: "تمنى الموت، ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه".

وهو تمن آخر ولم يعطف على التمني الأول لأن المقصود التحسر والتندم.

وجملة {يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ} من الكلام الصالح لأن يكون مثلا لإيجازه ووفرة دلالته ورشاقة معناه.. عبر بها عما يقوله من أوتي كتابه بشماله من التحسر بالعبارة التي يقولها المتحسر في الدنيا بكلام عربي يودي المعنى المقصود.

ونظيره ما حكي عنهم في قوله تعالى: {دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً} [الفرقان:١٣] وقوله: {يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً} [الفرقان:٢٨] وقوله: {يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ} [الكهف:٤٩].

{مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ} ما دفع مالي من عذاب الله شيئاً {هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ} هلاك السلطان: عدم الانتفاع به يومئذ

أي ما نفعني ملكي وتسلطي على الناس. أو ما نفعتني حجتي، فلا حجة لي أحتج بها.

أو: لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذابَ الله وبَأسه، بل خَلَص الأمر إليَّ وحدي، فلا معين لي ولا مجير. فما ظنك بحسرة من اتبعوهم واقتدوا بهم إذا رأوهم كذلك.

{خُذُوهُ} يقال لخزنة النار: خذوه بالعنف والقهر والشدة. والأخذ: الإمساك باليد.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{فَغُلُّوهُ} تضع الأغلال –وهي القيود– في عنقه وتضم يده إلى عنقه؛ إذ لم يشكر ما ملكته.

{ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ} صلي بالنار معناه: أصابه حرقها.. أي: أدخلوه ليصلى فيها؛ لأنه لم يشكر شيئاً من النعم، فأذيقوه شدائد النقم.

وروى ابن أبي الدنيا في «الأهوال»: أنه يبتدره أربعمائة ألف، ولا يبقى شيء إلا دَقَه، فيقول: ما لي ولك؟ فيقول: إن الرب عليك غضبان، فكل شيء غضبان عليك.

{ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ} حلقة منتظمة بأخرى، وهي بثالثة، وهلم جرّاً {ذَرْعُهَا} مقدارها.

{سَبْعُونَ ذِرَاعًا} عن ابن عباس، وابن جرير: بذراع المَلَكْ، قال القاشانيّ: والسبعون في العرف عبارة عن الكثرة غير المحصورة، لا العدد المعين.

{فَاسْلُكُوهُ} فأدخلوه فيها. أي: لفُّوه بها، بحيث يكون فيما بين حلقها مرهقاً، لا يقدر على حركة. والمقصود تأكيد وقوع ذلك، والحث على عدم التفريط في الفعل، وأنه لا يرجى له تخفيف

قال ابن عباس: تدخل في استه ثم تخرج من فيه، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود حين يشوى.

روى الإمام أحمد –بسند حسن– والترمذي عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (لَوْ أَنَّ رَصَاصَةً [كل شيء فتاته وكسارتُه] مِثْلَ هَذِهِ –وَأَشَارَ إِلَى مِثْلِ جُمْجُمَةٍ– [وفي رواية: جمجمته]، أُرْسِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَهِيَ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ، لَبَلَغَتِ الْأَرْضَ قَبْلَ اللَّيْلِ، وَلَوْ أَنَّهَا أُرْسِلَتْ مِنْ رَأْسِ السِّلْسِلَةِ، لَسَارَتْ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا، اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ أَصْلَهَا، أَوْ قَعْرَهَا)

ثم علل سبحانه استحقاقه ذلك، على طريقة الاستئناف، بقوله:

{إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ} المستحق للعظمة وحده، بل كان يشرك معه الجماد المهيمن.. جملة في موضع العلة للأمر بأخذه وإصلائه الجحيم.

ووصف الله بالعظيم هنا إيماء إلى مناسبة عظم العذاب للذنب إذ كان الذنب كفرانا بعظيم فكان جزاء وفاقا.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} ولا يحث الناس في الدنيا على إطعام أهل الحاجة من المساكين وغيرهم، فضلاً عن بذله، لتناهي شحِّه.. وقد جعل عدم الحض على طعام المسكين مبالغة في شح هذا الشخص عن المساكين بمال غيره وكناية عن الشح عنهم بماله.

أي: لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته، ولا ينفع خلقه ويؤدي حقهم؛ فإن لله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئا، وللعباد بعضهم على بعض حقّ الإحسان والمعاونة على البر والتقوى؛ ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وقبض النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وهو يقول: (الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) [أبو داود وأحمد]

{فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا} من ينقذه من عذاب الله {حَمِيمٌ} الحميم: القريب، وهو هنا كناية عن النصير إذ المتعارف عند العرب أن أنصار المرء هم عشيرته وقبيلته.

والمقصود منه أن يسمعه من أوتي كتابه بشماله فييأس من أن يجد مدافعا ويدفع عنه بشفاعة، وتنديم له على ما أضاعه في حياته من التزلف إلى الأصنام وسدنتها وتمويههم عليه أنه يجدهم عند الشدائد وإلمام المصائب. وهذا وجه تقييد نفي الحميم بـ {الْيَوْمَ} تعريضا بأن أحمائهم في الدنيا لا ينفعونهم اليوم كما قال تعالى: {ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} [الأنعام:٢٢] وقوله عنهم: {فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا} [لأعراف:٥٣]

{وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ} من غسالة أهل النار وصديدهم، عن ابن عباس قال: الغسلين: الدم والماء يسيل من لحومهم. وقال علي بن أبي طلحة عنه: الغسلين: صديد أهل النار.

{لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ} الآثمون أصحاب الخطايا.. والتعريف للدلالة على الكمال في الوصف، أي المرتكبون أشد الخطأ وهو الإشراك.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣)

{فَلَا أُقْسِمُ} لا إما مزيدة للتأكيد، وتقوية الكلام، وقد عهدت زيادتها في كلامهم. وإما لا أقسم بتمامها صيغة من صيغ القسم، على ما ارتضاه بعض المحققين.

{بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ} بالمشاهدات والمغيَّبات.. يقسم الله تعالى لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم كالروح والملائكة والجنة والنار.

وهذا القسم –كما قال الرازيّ– يعم جميع الأشياء على الشمول، لأنها لا تخرج من قسمين: مبصر وغير مبصر، فشمل الخالق والخلق، والدنيا والآخرة، والعالم العلويّ والسفليّ، وهكذا.

{إِنَّهُ} القرآن {لَقَوْلُ رَسُولٍ} محمد –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، كما يقتضيه عطف قوله: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ} [الحاقة:٤٤]، وهذا كما وصف موسى بـ {رَسُولٍ كَرِيمٍ} في قوله تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ} [الدخان:١٧]. وقد أكد هذا المعنى بقوله عقبه: {تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

وفي لفظ {رَسُولٍ} إيذان بأن القول قول مرسله، يبلغه عن الله تعالى، لأن الرسول لا يبلغ عن نفسه.

{كَرِيمٍ} وصف الرسول بـ {كَرِيمٌ} لأنه الكريم في صنفه، أي النفيس الأفضل مثل قوله: {إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ} [النمل:٢٩] وقد أثبت للرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– الفضل على غيره من الرسل بوصف {كَرِيمٌ}.

{وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ} كما تزعمون، فإن بين أسلوبه وحقائقه، وبين وزن الشعر وخيالاته، بعد المشرقين.

{قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ} تصدقون بما ظهر صدقه وبرهانه، عناداً وعتواً. والقلة كناية عن النفي والعدم.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ} كما تدعون أخرى بأنه من سجع الكهان {قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} تتعظون وتعتبرون.

ونفى الإيمان في الأول، والذكرى في الثاني؛ لأن عدم مشابهة القرآن للشعر أمر بيّن بديهي، لا ينكره إلا معاند. إذ ليس فيه ما يشبه الشعر من اتزان أجزاءه في المتحرك والساكن والتقفية المتماثلة في جميع أواخر الأجزاء. فادعاؤهم أنه قول شاعر بهتان متعمد ولا عذر لقائله في ترك الإيمان، وهو أكفر من حمار.

وأما مباينته للكهانة، فيتوقف على تأمل؛ إذ قد يشبه في بادئ الرأي على السامع من حيث إنه كلام منثور مؤلف على فواصل وأسجاع مثناة متماثلة زوجين زوجين، ومعانيه ليست من معاني الكهانة الرامية إلى الإخبار عما يحدث لبعض الناس من أحداث، أو ما يلم بقوم من مصائب متوقعة ليحذروها، فيلتبس أمره على الحمقى لإخباره عن بعض المغيبات بكلام منثور، والكاهن يكذب كثيراً، ويأخذ جُعلاً.. فلذلك كان المخاطبون بالآية منتفيا عنهم التذكر والتدبر.

وإنما خص هذان الوصفان بالذكر «شاعر، وكاهن» دون قولهم: افتراه، أو هو مجنون، لأن الوصف بكريم كاف في نفي أن يكون كاذبا أو مجنونا إذ ليس المجنون ولا الكاذب بكريم، فأما الشاعر والكاهن فقد كانا معدودين عندهم من أهل الشرف.

و {قَلِيلاً} في قوله: {قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ} {قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ} مراد به انتفاء ذلك من أصله على طريقة التمليح القريب من التهكم كقوله: {فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً} [النساء:٤٦]، وهو أسلوب عربي.. والمعنى: لا تؤمنون ولا تذكرون.

{تَنْزِيلٌ} منزل من رب العالمين على الرسول الكريم، ووصف بالمصدر للمبالغة.

{مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ممن رباهم بصنوف نعمه، ومنها ما نزله وأوحاه ليهتدوا به إلى سبل السعادة، ومناهج الفلاح. وهو تصريح بعد الكناية.

وعبر عن اسم الجلالة بوصف {رَبِّ الْعَالَمِينَ} دون اسمه العلم –الله– للتنبيه على أنه رب المخاطبين ورب الشعراء والكهان الذين كانوا بمحل التعظيم والإعجاب عندهم نظير قول موسى لفرعون {قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ} [الشعراء:٢٦].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)

{وَلَوْ تَقَوَّلَ} نسبة قول لمن لم يقله.. وهو تفعل من «القول» صيغت هذه الصيغة الدالة على التكلف لأن الذي ينسب إلى غيره قولا لم يقله يتكلف ويختلق ذلك الكلام.

{عَلَيْنَا} افترى علينا فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئا من عنده فنسبه إلينا.

{بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ} تسمية الأقوال المفتراة: أقاويل تحقيراً لها، كأنها جمع أفعولة من القول، كالأضاحيك.

ومفاد هذه الجملة استدلال ثان على أن القرآن منزل من عند الله تعالى، وهو استدلال بما هو مقرر في الأذهان من أن الله واسع القدرة، وأنه عليم فلا يقدر أحدا على أن يقول عنه كلاما لم يقله، أي لو لم يكن القرآن منزل من عندنا ومحمد ادعى أنه منزل منا، لما أقررناه على ذلك، ولعجلنا بإهلاكه. ولذلك قال:

{لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ} لأخذنا منه بالقوة منا والقدرة، أو لانتقمنا منه باليمين؛ لأنها أشد في البطش، أو لأخذنا منه باليد اليمنى من يديه.

{ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ} عرق معلق به القلب ويسمى النياط، وهو الذي يسقي الجسد بالدم. وفي هذا تهويل لصورة الأخذ. وإنما يعني بذلك أنه كان يعاجله بالعقوبة، ولا يؤخّره بها.

قال الزمخشري: المعنى لو ادّعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم، معالجة بالسخط والانتقام. فصوّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول، وهو أن يؤخذ بيده، وتضرب رقبته؛ وخص اليمين عن اليسار، لأن القاتل إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره، وإذا أراد أن يوقعه في جيده، وأن يكفحه بالسيف، وهو أشد على المصبور، لنظره إلى السيف، أخذ بيمينه.

{فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ} وإن كان لفظه مفردا فهو في معنى الجمع، وهي من النكرات التي تستعمل منفية فيفيد العموم، أي كل واحد لا يستطيع الحجز عنه، قال



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

تعالى: {لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ} [البقرة:٢٨٥] وقال: {لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنْ النِّسَاءِ} [الأحزاب:٣٢]. والمعنى: ما منكم أناس يستطيعون الحجز عنه.

{عَنْهُ حَاجِزِينَ} ففي تلك الحالة من أحوال التقول لو أخذنا منه باليمين فقطعنا منه الوتين، لا يستطيع أحد منكم أو من غيركم أن يحجز عنه ذلك العقاب.

**وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢)**

{وَإِنَّهُ} القرآن {لَتَذْكِرَةٌ} اسم مصدر «التذكير» وهو التنبيه إلى مغفول عنه. والمصدر للمبالغة في الوصف.

والمعنى: أنه مذكر للناس بما يغفلون عنه من العلم بالله وما يليق بجلاله لينتشلهم من هوة التمادي في الغفلة حتى يفوت الفوات، فالقرآن في ذاته تذكرة لمن يريد أن يتذكر سواء تذكر أم لم يتذكر، وقد تقدم تسمية القرآن بالذكر والتذكير في آيات عديدة منها قوله تعالى {إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى} [طه:٣] وقوله: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ} [الحجر: ٦]

{لِلْمُتَّقِينَ} لأنهم الذين أدركوا مزيته.. فهم عظة لمن يتقي عقاب الله بالإيمان به وحده، وما نزل من عنده.

لما أبطل طعنهم في القرآن بأنه قول شاعر، أو قول كاهن أعقب ببيان شرفه ونفعه، إمعانا في إبطال كلامهم بإظهار الفرق البين بينه وبين شعر الشعراء وزمزمة الكهان، إذ هو تذكرة وليس ما ألحقوه به من أقوال أولئك من التذكير في شيء.

{وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ} أي: مع هذا البيان والوضوح، سيوجد منكم من يكذب بالقرآن. إيثاراً للدنيا والهوى، فنجازيكم على إعراضكم.

{وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ} الحسرة: الندم الشديد المتكرر على شيء فائت مرغوب فيه.

{عَلَى الْكَافِرِينَ} فالقرآن حسرة على الكافرين في الدنيا لأنه فضح ترهاتهم ونقض عماد دينهم الباطل وكشف حقارة أصنامهم، وهو حسرة عليهم في الآخرة



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

لأنهم يجدون مخالفته سبب عذابهم، ويقفون على اليقين بأن ما كان يدعوهم إليه هو سبب النجاح لو اتبعوه لاسيما وقد رأوا حسن عاقبة الذين صدقوا به من المؤمنين.

{وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ} الخبر الصدق الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب.

{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} أمر النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بأن يسبح الله تسبيح ثناء وتعظيم شكرا له على ما أنعم به عليه من نعمة الرسالة وإنزال هذا القرآن عليه.

وتسبيح المنعم بالاعتقاد والقول، وهما مستطاع شكر الشاكرين، إذ لا يبلغ إلى شكره بأقصى من ذلك.. قال ابن عطية: وفي ضمن ذلك استمرار النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– على أداء رسالته وإبلاغها. وروي أن رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قال لما نزلت هذه الآية: (اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ) [أبو داود] .

بسم الله الرحمن الرحيم



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

# مع سورة المعارج

قال ابن عاشور: سميت هذه السورة في كتب السنة وفي «صحيح البخاري» و «جامع الترمذي»، وفي «تفسير الطبري» وابن عطية وابن كثير «سورة سأل سائل».

وكذلك رأيتها في بعض المصاحف المخطوطة بالخط الكوفي بالقيروان في القرن الخامس.

وسميت في معظم المصاحف المشرقية والمغربية وفي معظم التفاسير «سورة المعارج». وذكر في «الإتقان» أنها تسمى «سورة الواقع».

وهذه الأسماء الثلاثة مقتبسة من كلمات وقعت في أولها، وأخصها بها جملة {سَأَلَ سَائِلٌ} [المعارج:١] لأنها لم يرد مثلها في غيرها من سور القرآن إلا أنها غلب عليها اسم «سورة المعارج» لأنه أخف.

وهي مكية بالاتفاق. وهي السورة الثامنة والسبعون في عداد نزول سور القرآن عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة الحاقة وقبل سورة النبأ.

وعد جمهور الأمصار آيها أربعا وأربعين. وعدها أهل الشام ثلاثا وأربعين.

**سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)**

{سَأَلَ سَائِلٌ} سائل: لزيادة تصوير هذا السؤال العجيب.

والسؤال مستعمل في معنيين: الاستفهام عن شيء والدعاء، على أن استفهامهم مستعمل في التهكم والتعجيز.

{بِعَذَابٍ} من قال أن السؤال بمعنى الدعاء؛ أي دعا داع بعذاب {وَاقِعٍ} وفيه تضمين دل عليه حرف "الباء"، كأنه مُقَدر: يستعجل سائل بعذاب واقع. كقوله: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ} [الحج:٤٧] أي: وعذابه واقع لا



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

محالة. كقوله تعالى: {تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ} [المؤمنون:٢٠]، وقوله. {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ} [مريم:٢٥] فالباء تأكيد. أي سأل سائل عذابا واقعا.

قال مجاهد: أي: دعا داع بعذاب يقع في الآخرة، وهو قولهم: {اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال:٣٢].

والسائل هو النضر بن الحارث بن كَلَدَة – فيما رواه النسائي عن ابن عباس – فنزل سؤاله، وقتل يوم بدر صبرا هو وعقبة بن أبي مُعيط؛ لم يقتل صبرا غيرهما؛ قاله ابن عباس ومجاهد. ففي الآية إخبار عن مغيب وقع مصداقه.

وإذا كانت الباء بمعنى «عن» –وهو قول قتادة– فكأن سائلا سأل عن العذاب بمن يقع أو متى يقع.. قال الله تعالى: {فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً} [الفرقان:٥٩] أي سل عنه.

قال ابن عاشور: ووصف العذاب بأنه واقع، وما بعده من أوصافه إلى قوله: {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا} [المعارج:٦] إدماج معترض ليفيد تعجيل الإجابة عما سأل عنه سائل بكلا معنيي السؤال لأن السؤال لم يحك فيه عذاب معين وإنما كان مجملا لأن السائل سأل عن عذاب غير موصوف، أو الداعي دعا بعذاب غير موصوف، فحكي السؤال مجملا ليرتب عليه وصفه بهذه الأوصاف والتعلقات، فينتقل إلى ذكر أحوال هذا العذاب وما يحف به من الأهوال.

وقد طويت في مطاوي هذه التعلقات جمل كثيرة كان الكلام بذلك إيجازا إذ حصل خلالها ما يفهم منه جواب السائل، واستجابة الداعي، والإنباء بأنه عذاب واقع عليهم من الله لا يدفعه عنهم دافع، ولا يغرهم تأخره.

وهذه الأوصاف من قبيل الأسلوب الحكيم لأن ما عدد فيه من أوصاف العذاب وهوله ووقته هو الأولى لهم أن يعلموه ليحذروه، دون أن يخوضوا في تعيين وقته، فحصل من هذا كله معنى: أنهم سألوا عن العذاب الذي هددوا به عن وقته ووصفه سؤال استهزاء، ودعوا الله أن يرسل عليهم عذابا إن كان القرآن حقا، إظهارا لقلة اكتراثهم بالإنذار بالعذاب. فأعلمهم أن العذاب الذي استهزؤوا به واقع لا يدفعه عنهم تأخر وقته، فإن أرادوا النجاة فليحذروه.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{لِلْكَافِرِينَ} مُرصد مُعَدّ للكافرين، واللام لشبه الملك، أي عذاب من خصائصهم كما قال تعالى: {فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة:٢٤].

{لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ} رادّ يرده من جهته، لتعلق إرادته به. وهذا كقوله تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ} [الحج:٤٧]

{مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ} المعارج جمع مِعْرَجٍ، وهو ما يعرج به، أي يصعد من سلم ومدرج، ومنه قوله تعالى: {وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ} [الزخرف:٣٣].

والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً:

أحدها: قال ابن عباس في رواية: أي: هي السماوات؛ وسماها معارج لأن الملائكة يعرجون فيها.

وثانيها: قال قتادة: ذي الفواضل والنعم؛ وذلك لأن لأياديه ووجوه إنعامه مراتب، وهي تصل إلى الناس على مراتب مختلفة.

وثالثها: أن المعارج هي الدرجات التي يعطيها أولياءه في الجنة. وقيل: المعارج الغرف؛ أي إنه ذو الغرف، أي جعل لأوليائه في الجنة غرفا.

وإجراء وصف {ذِي الْمَعَارِجِ} على اسم الجلالة لاستحضار عظمة جلاله ولإدماج الإشعار بكثرة مراتب القرب من رضاه وثوابه، فإن المعارج من خصائص منازل العظماء قال تعالى: {لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ} [الزخرف:٣٣]. ولكل درجة المعارج قوم عملوا لنوالها قال تعالى: {يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [المجادلة:١١]، وليكون من هذا الوصف تخلص إلى ذكر يوم الجزاء الذي يكون فيه العذاب الحق للكافرين.

{تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ} جبريل، ويكون من باب عطف الخاص على العام. وتخصيصه بالذكر لتمييزه بالفضل على الملائكة. ونظير هذا قوله: {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا} [القدر:٤] أي في ليلة القدر.

ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بني آدم، فإنها إذا قبضت يُصعد بها إلى السماء.. قال قبيصة بن ذؤيب: إنه روح الميت حين يقبض.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

والجملة اعتراض لبيان أن المعارج منازل من الرفعة الاعتبارية ترتقي فيها الملائكة وليست معارج يعرج إليه فيها، أي فهي معارج جعلها الله للملائكة فَقُرِّبَ بها من منازل التشريف، مُعْرَجُ إِلَيْهِ بِإِذْنِهِ لَا عَارِجٌ، وبذلك الجعل وصف الله بأنه صاحبها، أي جاعلها، ونظيره قوله تعالى: {ذُو الْعَرْشِ} [غافر:١٥].

{إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} قال ابن جرير: أي: تصعد الملائكة والروح، وهو جبريل، إليه عز وجل، في يوم كان مقدار صعودهم ذلك، في يوم لغيرهم من الخلق: خمسين ألف سنة؛ وذلك أنها تصعد من منتهى أسفل الأرض، إلى منتهى أمره من فوق السماوات السبع.

وقيل: المراد بذلك يوم القيامة، تعرج الملائكة والروح إليه في يوم يفرغ فيه من القضاء بين خلقه قدره خمسين ألف سنة.. فهذا العروج كائن يوم القيامة وهو اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة. وهذه تقريبات لنهاية عظمة تلك المنازل وارتقاء أهل العالم الأشرف إليها وعظمة يوم وقوعها.

وهذه الآية كآية: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاء إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} [السجدة:٥]

وروى الإمام أحمد عَنْ أَبِي عُمَرَ الْغُدَانِيِّ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي هُرَيْرَةَ جَالِسًا، قَالَ: فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ، فَقِيلَ لَهُ: هَذَا أَكْثَرُ عَامِرِيٍّ نَادَى مَالًا [جمع مالا]، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: رُدُّوهُ إِلَيَّ، فَرَدُّوهُ عَلَيْهِ فَقَالَ: نُبِّئْتُ أَنَّكَ ذُو مَالٍ كَثِيرٍ، فَقَالَ الْعَامِرِيُّ: إِي وَاللهِ إِنَّ لِي لِمِائَةً حُمْرًا، وَمِائَةً أَدْمَاءَ [وفي رواية ومائة أدماً]، حَتَّى عَدَّ مِنْ أَلْوَانِ الْإِبِلِ، وَأَفْنَانِ الرَّقِيقِ [جمع فن، أي: نوع]، وَرِبَاطِ الْخَيْلِ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِيَّاكَ، وَأَخْفَافَ الْإِبِلِ، وَأَظْلَافَ الْغَنَمِ [أي: إياك وأن تمنع زكاة الإبل والغنم فتطؤك الإبل بأخفافها والغنم بأظلافها]، يُرَدِّدُ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى جَعَلَ لَوْنُ الْعَامِرِيِّ يَتَغَيَّرُ، أَوْ يَتَلَوَّنُ، فَقَالَ: مَا ذَاكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ–: (مَنْ كَانَتْ لَهُ إِبِلٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا، وَرِسْلِهَا) قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا نَجْدَتُهَا وَرِسْلُهَا؟ قَالَ: (فِي عُسْرِهَا وَيُسْرِهَا [يعطي وهي سمان حِسَان يشتد عليه إخراجها فتلك نجدتها، ويعطي في رسلها وهي مهازيل مقاربة]، فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

كَأَغَذِّ مَا كَانَتْ [من الإغذاذ، أي: أسرع وأنشط،]، وَأَكْبَرِهِ، وَأَسْمَنِهِ، وَآشرِهِ [وأسرّه أي: كأسمن مما كانت وأوفره، مِن سَر كل شيء: وهو لُبه ومُخه، وقيل: هو من السرور، لأنها إذا سمنت سَرت الناظرَ إليها. وأما "آشره": أبطره وأنشطه]، ثُمَّ يُبْطَحُ لَهَا بِقَاعٍ [المكان الواسع] قَرْقَرٍ [المكان المستوي]، فَتَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا، إِذَا جَاوَزَتْهُ أُخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فَيَرَى سَبِيلَهُ، وَإِذَا كَانَتْ لَهُ بَقَرٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا، وَرِسْلِهَا، فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغَذِّ مَا كَانَتْ، وَأَكْبَرِهِ، وَأَسْمَنِهِ، وآشَرِهِ، ثُمَّ يُبْطَحُ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ، فَتَطَؤُهُ كُلُّ ذَاتِ ظِلْفٍ بِظِلْفِهَا، وَتَنْطَحُهُ كُلُّ ذَاتِ قَرْنٍ بِقَرْنِهَا، إِذَا جَاوَزَتْهُ أُخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ حَتَّى يَرَى سَبِيلَهُ، وَإِذَا كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا وَرِسْلِهَا، فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغَذِّ مَا كَانَتْ، وَأَكْبَرِهِ، وَأَسْمَنِهِ، وآشَرِهِ، ثُمَّ يُبْطَحُ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ، فَتَطَؤُهُ كُلُّ ذَاتِ ظِلْفٍ بِظِلْفِهَا، وَتَنْطَحُهُ كُلُّ ذَاتِ قَرْنٍ بِقَرْنِهَا – يَعْنِي لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءُ [الملتوية القرن]، وَلَا عَضْبَاءُ [المكسورة القرن] – إِذَا جَاوَزَتْهُ أُخْرَاهَا أُعِيدَتْ أُولَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فَيَرَى سَبِيلَهُ)، فَقَالَ الْعَامِرِيُّ: وَمَا حَقُّ الْإِبِلِ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: "أَنْ تُعْطِيَ الْكَرِيمَةَ [هي الخالية من العيوب، وذلك في الصدقة]، وَتَمْنَحَ الْغَزِيرَةَ [هي كثيرة اللبن]، وَتُفْقِرَ الظَّهْرَ [تعيره للحمل والركوب، والظهْر: الدابة.]، وَتُسْقِيَ اللَّبَنَ، وَتُطْرِقَ الْفَحْلَ [الطَّرْق: ماء الفحل، أي: تعيره من أجل اللقاح] " [حديث صحيح]

وروى أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: قَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (مَا مِنْ صَاحِبِ كَنْزٍ لَا يُؤَدِّي حَقَّهُ، إِلَّا جُعِلَ صَفَائِحَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَتُكْوَى بِهَا جَبْهَتُهُ وَجَنْبُهُ وَظَهْرُهُ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– بَيْنَ عِبَادِهِ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ، ثُمَّ يُرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ) [حديث صحيح]

فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧)



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا} اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك، واستعجالهم العذاب استبعادًا لوقوعه، كقوله: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ} [الشورى: ١٨]

والصبر الجميل: هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله.

وقال ابن عاشور: الصبر الحسن في نوعه، وهو الذي لا يخالطه شيء مما ينافي حقيقة الصبر، أي اصبر صبرا محضا، فإن جمال الحقائق الكاملة بخلوصها عما يعكر معناها من بقايا أضدادها.

وقيل: هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدرى من هو.

{إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ} العذاب الدنيوي أو الأخروي {بَعِيدًا} وقوع العذاب وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع، بمعنى مستحيل الوقوع، لعدم إيمانهم بوعيده تعالى.

وأيضا هو تجهيل لهم إذا اغتروا بما هم فيه من الأمن ومسالمة العرب لهم ومن الحياة الناعمة فرأوا العذاب الموعود بعيدا، إن كان في الدنيا فلأمنهم، وإن كان في الآخرة فلإنكارهم البعث، والمعنى: وأنت لا تشبه حالهم.

وذلك يهون الصبر عليك، فهو من باب: {وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ} [المائدة:٤٨]، {وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} [الكهف:٢٨].

{وَنَرَاهُ قَرِيبًا} قريب الحضور. والمؤمنون –أيضا– يعتقدون كونه قريبا، وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله –عز وجل–، لكن كل ما هو آت فهو قريب وواقع لا محالة.

واستعمل {قَرِيباً} كناية عن تحقق الوقوع على طريق المشاكلة التقديرية والمبالغة في التحقيق.

يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤)



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ} كالشيء المذاب، أو دردي الزيت وعكره.. تشبيه السماء في انحلال أجزائها بالزيت.

{وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ} كالصوف المنفوش. والمعنى: أنها تلين بعد الشدة، وتتفرق بعد الاجتماع.

وقيل: أول ما تتغير الجبال، تصير رملا مهيلا، ثم عهنا منفوشا، ثم هباء منبثا، قال تعالى:

{يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً} [المزمل:١٤]

{وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ} [القارعة:٥]

{وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً * فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً} [الواقعة:٥-٦]

{وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا} لشدة ما يعتري الناس من الهول، فمن شدة ذلك أن يرى الحميم حميمه في كرب وعناء فلا يتفرغ لسؤاله عن حاله لأنه في شغل عنه.

كقوله: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ} [المؤمنون:١٠١]. وقوله: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس:٣٧]

{يُبَصَّرُونَهُمْ} يرون أقرباءهم، وليس في القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه من الجن والإنس. فيبصر الرجل أباه وأخاه وقرابته وعشيرته ولا يسأله ولا يكلمه؛ لاشتغالهم بأنفسهم.

وقال ابن عباس: "يتعارفون ساعة ثم لا يتعارفون بعد تلك الساعة".

كما قال تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ} [يونس:٤٥] أي: يعرف بعضهم بعضاً إذا بعثوا ثم ينقطع التعارف لشدة الأحوال والأهوال.

وفيه تنبيه على أن المانع من هذا السؤال هو الاندهاش مما نزل، لا احتجاب بعضهم من بعض.

وقيل: إنه يبصر المظلوم ظالمه والمقتول قاتله والمتبوع تابعه.

وفي بعض الأخبار: أن أهل القيامة يفرون من المعارف مخافة المظالم.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{يَوَدُّ الْمُجْرِمُ} الذي أتى الجُرم، وهو الذنب العظيم، أي الكفر، فيتمنى الكافر وذلك إما بخاطر يخطر في نفسه عند رؤية العذاب. وإما بكلام يصدر منه نظير قوله: {وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا} [النبأ:٤٠]، وهذا هو الظاهر، أي يصرخ الكافر يومئذ فيقول: افتدي من العذاب ببني وصاحبتي وفصيلتي فيكون ذلك فضيحة له يومئذ بين أهله.

{لَوْ يَفْتَدِي} والافتداء: إعطاء الفداء، وهو ما يعطى عوضا لإنقاذ من تبعة، ومنه قوله تعالى: {وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ} [البقرة:٨٥]

{مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ} الذين هم محل شفقته.

{وَصَاحِبَتِهِ} زوجته التي هي أحب إليه {وَأَخِيهِ} الذي يستعين به في النوائب.

{وَفَصِيلَتِهِ} عشيرته، وقال المبرد: "الفصيلة القطعة من أعضاء الجسد، وهي دون القبيلة. وسميت عترة الرجل فصيلته تشبيها بالبعض منه". أي: الأقرباء الأدنون من القبيلة، وهم الأقرباء المفصول منهم، أي المستخرج منهم، فشملت الآباء والأمهات.

وقد رتبت الأقرباء على حسب شدة الميل الطبيعي إليهم في العرف الغالب لأن الميل الطبيعي ينشأ عن الملازمة وكثرة المخالطة.

ولم يذكر الأبوان لدخولهما في الفصيلة قصدا للإيجاز.

{الَّتِي تُؤْوِيهِ} تضمه إليها عند الشدائد حماية ونصرة له، وتؤمنه من خوف إن كان به.

{وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} ويفتدي بمن في الأرض، ومن له في الأرض مما يعز عليه من أخلاء وقرابة ونفائس الأموال مما شأن الناس الشح ببذله والرغبة في استبقائه على نحو قوله تعالى: {فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ} [آل عمران:٩١].

{ثُمَّ} للتراخي المشير للاستبعاد {يُنْجِيهِ} أي: الافتداء.

## كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (١٥) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨)



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{كَلَّا} لا يكون إنجاء ولا افتداء، فلا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض، وبأعز ما يجده من المال، ولو بملء الأرض ذهبًا، أو من ولده الذي كان في الدنيا حُشَاشة كبده.

{إِنَّهَا} النار الموعود بها المجرم {لَظَى} تتلظى نيرانها؛ كقوله تعالى: {فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى} [الليل:١٤] واشتقاق لظى من التلظي. والتظاء النار التهابها، وتلظيها تلهبها.

{نَزَّاعَةً} المبالغة في النزع وهو الفصل والقطع {لِلشَّوَى} جمع شواة وهي جلدة الرأس، أي نزاعة لمكارم وجهه.

وقال الضحاك: تبري اللحم والجلد عن العظم، حتى لا تترك منه شيئًا.

{تَدْعُو} تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها، وقدر لهم أنهم في الدار الدنيا يعملون عملها، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طَلق ذَلِق، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطير الحب.

قال ابن عباس: "تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح: إلي يا كافر، إلي يا منافق؛ ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب.

قال القشيري: "ودعاء لظى بخلق الحياة فيها حين تدعو، وخوارق العادة غدا كثيرة".

وقال الخليل: إنه ليس كالدعاء "تعالوا" ولكن دعوتها إياهم تمكنها من تعذيبهم.

{مَنْ أَدْبَرَ} عن الحق فكذب بقلبه {وَتَوَلَّى} ترك العمل بجوارحه {وَجَمَعَ} المال، وفيه إشارة إلى الحرص {فَأَوْعَى} جعله في وعاء وكنزه، ومنع حق الله منه، فلم يزكّ، ولم ينفق فيما أوجب الله عليه إنفاقه. وفيه إشارة إلى طول الأمل.

قال ابن كثير: جمع المال بعضه على بعض فأوعاه، أي: أوكاه ومنع حق الله منه من الواجب عليه في النفقات ومن إخراج الزكاة. وفي البخاري عَنْ أَسْمَاءَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (أَنْفِقِي وَلَا تُحْصِي فَيُحْصِيَ اللَّهُ عَلَيْكِ، وَلَا تُوعِي فَيُوعِيَ اللَّهُ عَلَيْكِ)



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وكان عبد الله بن عُكيم لا يربط له كيسا ويقول: سمعت الله يقول: {وَجَمَعَ فَأَوْعَى}

وقال الحسن البصري: يا ابن آدم، سمعتَ وعيدَ الله ثم أوعيتَ الدنيا.

وقال قتادة في قوله: {وَجَمَعَ فَأَوْعَى} قال: كان جَمُوعًا قمُومًا للخَبيث.

وروى أبو داود عن أبي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ: (شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ) أي شح يحمل على الحرص على المال والجزع على ذهابه، وجبن شديد فكأنه يخلع فؤاده من شدة خوفه، فالشح والبخل كل منهما مذموم على انفراده فإذا اجتمعا فهو النهاية في القبح.

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (٣٥)

{إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ} يعنى بها التنبيه على جبلة الإنسان {هَلُوعًا} صيغة مبالغة للاتصاف بالهلع.. والهلع في اللغة: أشد الحرص وأسوأ الجزع وأفحشه. كما بينه بقوله: {إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ} الضرّ والبلاء والأذى {جَزُوعًا} كثير الجزع من قلة صبره {وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ} كثر ماله وناله الغنى {مَنُوعًا} لِما في يده، بخيل به، لشدة حرصه.

{إِلَّا الْمُصَلِّينَ} أي الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووفقه، وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه، وهم المصلون.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

والكلام استئناف بياني لمقابلة أحوال المؤمنين بأحوال الكافرين، ووعدهم بوعيدهم على عادة القرآن في أمثال هذه المقابلة.

وهذه صفات ثمان هي من أشعار المسلمين، فعدل عن إحضارهم بوصف المسلمين إلى تعداد خصال من خصالهم إطنابا في الثناء عليهم لأن مقام الثناء مقام إطناب، وتنبيها على أن كل صلة من هذه الصلات الثمان هي من أسباب الكون في الجنات.

وهذه الصفات لا يشاركه المشركون في معظمها بالمرة، وبعضها قد يتصف به المشركون ولكنهم لا يراعونه حق مراعاته باطراد، وذلك حفظ الأمانات والعهد، فالمشرك يحفظ الأمانة والعهد اتقاء مذمة الخيانة والغدر، مع أحلافه دون أعدائه، والمشرك يشهد بالصدق إذا لم يكن له هوى في الكذب، وإذا خشي أن يوصم بالكذب. وقد غدر المشركون بالمسلمين في عدة حوادث، وغدر بعضهم بعضا، فلو علم المشرك أنه لا يطلع على كذبه وكان له هوى لم يؤد الشهادة.

{الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} مقيمون، لا يضيّعون منها شيئاً.. جملة اسمية دون أن يقال: الذين يدومون. لقصد إفادتها الثبات تَقْوِيَةً كَمُفَادِ الدوام.

وعن قال قتادة: ذُكر لنا أن دانيال –عليه السلام– نعت أمة محمد –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فقال: يصلون صلاة لو صلاها قوم نوح ما غرقوا، أو قوم عاد ما أرسلت عليهم الريح العقيم، أو ثمود ما أخذتهم الصيحة. فعليكم بالصلاة فإنها خُلُق للمؤمنين حسن.

وقال عقبة بن عامر: هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا يمينا ولا شمالا. والدائم الساكن، ومنه: نهي عن البول في الماء الدائم، أي الساكن.

{وَالَّذِينَ} إعادة اسم الموصول مع الصلات المعطوفة لمزيد العناية بأصحاب تلك الصلات.

{فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ} للإشارة إلى أنهم جعلوا السائل والمحروم كالشركاء لهم في أموالهم من فرط رغبتهم من مواساة إخوانهم إذ لم تكن الصدقة يومئذ واجبة ولم تكن الزكاة قد فرضت.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ومعنى كون الحق معلوما أنه يعلمه كل واحد منهم ويحسبونه، ويعلمه السائل والمحروم بما اعتاد منهم.

{لِلسَّائِلِ} هو المستعطي {وَالْمَحْرُومِ} الذي لا يسأل الناس تعففا مع احتياجه فلا يتفطن له كثير من الناس فيبقى كالمحروم.

وهذه الصفة للمؤمنين مضادة صفة الكافرين المتقدمة في قوله: {وَجَمَعَ فَأَوْعَى} [المعارج:١٨].

والحق المعلوم قيل: هو الزكاة المفروضة، قاله قتادة وابن سيرين.. لأنه وصف الحق بأنه معلوم، وسوى الزكاة ليس بمعلوم، إنما هو على قدر الحاجة، وذلك يقل ويكثر.

وعن ابن عباس قال: هو سوى الصدقة، يصل بها رَحِماً، أو يُقري بها ضيفاً، أو يحمل بهَا كلاًّ، أو يعين بها محروماً. وعن الشعبيّ: أن في المال حقاً سوى الزكاة.

{وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ} فعل مضارع يدل على الاستمرار {بِيَوْمِ الدِّينِ} يوم الجزاء، يوم القيامة، أي يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب.

وهذا الوصف مقابل وصف الكافرين بقوله: {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً} [المعارج:٦].

{وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ} الإشفاق: توقع حصول المكروه وأخذ الحذر منه.. أي: خائفون وَجِلون أن يعذبهم في الآخرة، فهم من خشية ذلك لا يضيّعون له فرضاً، ولا يتعدون له حداً.

وهذا الوصف مقابل قوله في حق الكافرين: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ، لِلْكَافِرِينَ} [المعارج:١-٢] لأن سؤالهم سؤال مستخف بذلك وَمُحِيلِهِ.

{إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ} لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله تبارك وتعالى.

وهذا تعريض بزعم المشركين الأمن إذ قالوا: {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} [الشعراء:١٣٨]



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} يكفونها عن الحرام ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه، لغلبة ملكة الصبر، وامتلاك ناصيته {إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} من الإماء {فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ} قال ابن جرير: أي: التمس لفرجه منكحاً سوى زوجته، أو ملك يمينه {فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} الذين عدوا ما أحل الله لهم، إلى ما حرّمه عليهم.

وهو تعريض بالمشركين: أي ليس في المسلمين سفاح ولا زنى ولا مخالة ولا بغاء.. والعادي: المفسد، أي هم الذين أفسدوا فاختلطت أنسابهم وتطرقت الشكوك إلى حصانة نسائهم، ودخلت الفوضى في نظم عائلاتهم، ونشأت بينهم الإححن من الغيرة.

{وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} والرعي: الحفظ والحراسة. وأصله رعي الغنم والإبل.

أي: راعون لأمانات الله التي ائتمنهم عليها من فرائضه، وأمانات عباده التي ائتمنوا عليها، وعهوده التي أخذها عليهم بطاعته فيما أمرهم به ونهاهم، وعهود عباده التي أعطاهم على ما عقده لهم على نفسه راعون، يرقبون ذلك ويحفظونه فلا يضيّعونه.

وهذه صفات المؤمنين، وضدها صفات المنافقين، وفي الحديث: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ) [البخاري]

وذكر رعي الأمانات والعهد لمناسبة وصف ما يود الكافر يوم الجزاء أن يفتديه من العذاب بفصيلته التي تؤويه فيذهب منه رعي العهود التي يجب الوفاء بها للقبيلة وحسبك من تشويه حاله أنه قد نكث العهود التي كانت عليه لقومه من الدفاع عن حقيقتهم بنفسه وكان يفديهم بنفسه، والمسلم لما كان يرعى العهد بما يمليه عليه دينه جازاه الله بأن دفع عنه خزي ودادة فدائه نفسه بواليه وأهل عهده.

{وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ} لا يكتمون ما استشهدوا عليه، ولكنهم يقومون بأدائها حيث يلزمهم أداؤها، غير مغيّرة ولا مبدّلة.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها.. لا يضيّعون لها ميقاتاً ولا حَدّاً. قيل: الحفظ عن الضياع، استعير للإتمام والتكميل للأركان والهيئات.. وإيثار الفعل المضارع لإفادة تجدد ذلك الحفاظ وعدم التهاون به.

فالدوام خلاف المحافظة. فدوامهم عليها أن يحافظوا على أدائها لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل، ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها، ويقيموا أركانها، ويكملوها بسننها وآدابها، ويحفظوها من الإحباط باقتراب المأثم. فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات والمحافظة إلى أحوالها.

فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها، ولذا قال القاضي: وتكرير ذكر الصلاة ووصفهم بها أولاً وآخراً باعتبارين: للدلالة على فضلها، وإنافتها على غيرها.

ولما أجريت عليهم هذه الصفات الجليلة أخبر عن جزائهم عليها بأنهم مكرمون في الجنة.

{أُولَئِكَ} وجيء باسم الإشارة للتنبيه على أنهم استحقوا ما بعد اسم الإشارة من أجل ما سبق قبل اسم الإشارة كما تقدم في قوله تعالى: {أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ} [البقرة:٥].

{فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ} والإكرام: التعظيم وحسن اللقاء، أي هم من جزائهم بنعيم الجنات يكرمون بحسن اللقاء والثناء، قال تعالى: {وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد:٢٣-٢٤] وقال: {وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ} [التوبة:٧٢].

**فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩)**



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{فَمَالِ الَّذِينَ} وكتب في المصحف اللام الداخلة على {الَّذِينَ} مفصولة عن مدخولها وهو رسم نادر.

{كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ} مسرعين نافرين منك، والإهطاع: مد العنق عند السير، والاستفهام إنكاري وتعجيبي.

{عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ} والمقصود: كثرة الجهات {عِزِينَ} متفرقين حِلقاً ومجالس، جماعة جماعة، معرضين عنك وعن كتاب الله.

واحدها عزَةٌ بتخفيف الزاي، أي: متفرقين. وهو حال من مهطعين، أي: في حال تفرقهم واختلافهم، كما قال الإمام أحمد في أهل الأهواء: فهم مخالفون للكتاب، مختلفون في الكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب.

وكما قال تعالى: {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ} [المدثر:٤٩-٥١]

وروى أحمد عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، أَنَّهُ خَرَجَ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: (مَا لِي أَرَاكُمْ عِزِينَ؟) وَهُمْ قُعُودٌ [وأخرجه مسلم أيضا]

{أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ} وأسند الطمع إلى {كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ} دون أن يقال: "أيطمعون أن يدخلوا الجنة"، تصويرا لحالهم بأنها حال جماعة يريد كل واحد منهم أن يدخل الجنة لتساويهم، يرون أنفسهم سواء في ذلك، ففي قوله: {كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ} تقوية التهكم بهم.

{أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ} ولم يتّصف هو بصفات أهلها المنوّه بها قبل {كَلَّا} لا يكون ذلك، لأنه طمع في غير مطمع.

{إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ} من النطف. يعني: ومن قدر على ذلك فلا يعجزه إهلاكهم، فليحذروا عاقبة البغي والفساد.

كما قال تعالى: {أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} [المرسلات:٢٠]. وقال: {فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ} [الطارق:٥-١٠].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقيل: أي إنهم يعلمون أنهم مخلوقون من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة؛ كما خلق سائر جنسهم. فليس لهم فضل يستوجبون به الجنة، وإنما تستوجب بالإيمان والعمل الصالح ورحمة الله تعالى.

قال قتادة في هذه الآية: إنما خلقت يا ابن آدم من قذر فاتق الله.

وروي أن مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب بن أبي صفرة يتبختر في مطرف خز وجبة خز فقال له: يا عبد الله، ما هذه المشية التي يبغضها الله؟ فقال له: أتعرفني؟ قال نعم، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة. فمضى المهلب وترك مشيته.

**فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤)**

{فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ} يعني مشرق كل يوم من السَّنة ومغربه، أو مشرق كل كوكب ومغربه، أو الأقطار التي تشرق فيها الشمس وتغرب.

وتقدير الكلام: ليس الأمر كما يزعمون أن لا معاد ولا حساب، ولا بعث ولا نشور، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة.

ولهذا أتى بـ "لا" في ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفي، وهو مضمون الكلام، وهو الرد على زعمهم الفاسد في نفي يوم القيامة، وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة، وهو خلق السموات والأرض، وتسخير ما فيهما من المخلوقات من الحيوانات والجمادات، وسائر صنوف الموجودات؛ ولهذا قال تعالى:

{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} [غافر:٥٧]



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأحقاف:٣٣]

{أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس:٨١-٨٢].

والقسم بالله بعنوان ربوبيته المشارق والمغارب معناه: ربوبيته العالم كله لأن العالم منحصر في جهات شروق الشمس وغروبها.

وجمع {الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ} باعتبار تعدد مطالع الشمس ومغاربها في فصول السنة فإن ذلك مظهر عجيب من مظاهر القدرة الإلهية والحكمة الربانية لدلالته من عظيم صنع الله من حيث إنه دال على الحركات الحافة بالشمس التي هي من عظيم المخلوقات، ولذلك لم يذكر في القرآن قسم بجهة غير المشرق والمغرب دون الشمال والجنوب مع أن الشمال والجنوب جهتان مشهورتان عند العرب.

{إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ} نقدر على إهلاكهم والذهاب بهم والمجيء بأمة خير منهم، والخيرية في الإيمان والفضل والطوع والمال.

ويكون هذا تهديدا لهم بأن سيستأصلهم ويأتي بقوم آخرين كما قال تعالى:

{إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} [إبراهيم:١٩]

{وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد:٣٨].

وفي هذا تثبيت للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وتذكير بأن الله عالم بحالهم.

وقيل: يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه، فإن قدرته صالحة لذلك. وإنما كان خلقا أتقن من النشأة الأولى لأنه خلق مناسب لعالم الخلود، وكان الخلق الأول مناسبا لعالم التغير والفناء.

{وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} بمغلوبين، إن أردنا ذلك. أي وما نحن بعاجزين عن ذلك، ولن يفوتنا أحد من هؤلاء الكفار، وليس معناها أنه لن يسبقنا أحد في تبديلهم. ومثله قوله تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ} [العنكبوت:٤] أي يفوتونا ويعجزونا.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقوله: {نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ} [الواقعة: ٦٠-٦١]. أي: فلا يفوتنا شيء ولا يعجزنا أمر نريده.

{فَذَرْهُمْ} يا محمد {يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا} اتركهم يخوضوا في باطلهم وتكذيبهم وكفرهم وعنادهم، ويلعبوا في دنياهم؛ على جهة الوعيد. واشتغل أنت بما أمرت به ولا يعظمن عليك شركهم {حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ} أخذهم فيه وهلاكهم.

{يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ} القبور {سِرَاعًا} حين يسمعون الصيحة الآخرة إلى إجابة الداعي.

{كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ} الصنم المنصوب للعبادة، أو هو حجر أو صنم يذبح عليه؛ ومنه قوله تعالى: {وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ} [المائدة:٣].

قال الحسن: كانوا يبتدرون إذا طلعت الشمس إلى نصبهم التي كانوا يعبدونها من دون الله لا يلوي أولهم على آخرهم.

أو النصب: العَلَم المنصوب على الطريق ليهتدي به السالك، أو ما ينصب علامة لنزول الملك وسيره.

فهم يسرعون إسراع عبدة الأصنام نحو صنمهم، أو إسراع من ضل عن الطريق إلى أعلامها، أو إسراع الجند إلى راية الأمير.

{يُوفِضُونَ} يسرعون {خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ} ذليلة خاضعة من الخزي والهوان، لا يرفعونها لما يتوقعونه من عذاب الله {تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ} تغشاهم ذلة من هول ما حاق بهم، في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة.. قال قتادة: هو سواد الوجوه.

{ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} يوعدونه في الدنيا أن لهم فيه العذاب وأنهم ملاقوه.

وأخرج الخبر بلفظ الماضي لأن ما وعد الله به يكون ولا محالة من تحقق وقوعه.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بسم الله الرحمن الرحيم

# مع سورة نوح

«سورة نوح» بهذا الاسم سميت به هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير، وترجمها البخاري في كتاب التفسير من "صحيحه" بترجمة «سورة إنا أرسلنا نوحا». ولعل ذلك كان الشائع في كلام السلف ولم يترجم لها الترمذي في "جامعه".

وهي مكية بالاتفاق. وعدت الثالثة والسبعين في ترتيب نزول السور، نزلت بعد نزول أربعين آية من سورة النحل وقبل سورة الطور.

وعد العادون بالمدينة ومكة آيها ثلاثين آية، وعدها أهل البصرة والشام تسعا وعشرين آية، وعدها أهل الكوفة ثمان وعشرين آية.

## إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١)

{إِنَّا} افتتاح الكلام بالتوكيد للاهتمام بالخبر إذ ليس المقام لرد إنكار منكر، ولا دفع شك عن متردد في هذا الكلام. وكثيرا ما يفتتح بلغاء العرب أول الكلام بحرف التوكيد لهذا الغرض وربما جعلوا "إن" داخلة على ضمير الشأن في نحو قوله تعالى: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ} [النمل:٣٠-٣١]

{أَرْسَلْنَا نُوحًا} أول رسول أرسل من الله، وأرسل إلى جميع أهل الأرض. فلذلك لما كفروا أغرق الله أهل الأرض جميعا.

{إِلَى قَوْمِهِ} "قوم نوح" هم الناس الذين كانوا عامرين الأرض يومئذ، إذ لا يوجد غيرهم على الأرض، كما هو ظاهر حديث الشفاعة، وذلك صريح ما في التوراة.

{أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ} عدل عن أن يقال له: "أنذر الناس": إلى قوله: {أَنْذِرْ قَوْمَكَ} إلهابا لنفس نوح ليكون شديد الحرص على ما فيه نجاتهم من العذاب، فإن فيهم أبناءه وقرابته وأحبته، وهم عدد تكون بالتوالد في بني آدم في مدة ستمائة سنة من حلول



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

جنس الإنسان على الأرض. ولعل عددهم يوم أرسل نوح إليهم كان لا يتجاوز بضعة آلاف.

{مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} يعني عذاب الطوفان.. يخوفهم غضب الله تعالى عليهم إذ عبدوا الأصنام ولم يتقوا الله ولم يطيعوا ما جاءهم به رسوله، فأمره الله أن ينذرهم عذابا يأتيهم من الله ليكون إنذاره مقدما على حلول العذاب.

**قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤)**

{قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي} افتتاح دعوته قومه بالنداء لطلب إقبال أذهانهم، وندائهم بعنوان: أنهم قومه، تمهيد لقبول نصحه إذ لا يريد الرجل لقومه إلا ما يريد لنفسه. وتصدير دعوته بحرف التوكيد لأن المخاطبين يترددون في الخبر.

{لَكُمْ نَذِيرٌ} مخوف، وتقديم {لَكُمْ} على عامله وهو {نَذِيرٌ} للاهتمام بتقديم ما دلت عليه اللام من كون النذارة لفائدتهم لا لفائدته.

{مُبِينٌ} مظهر لكم بلسانكم الذي تعرفونه.

وكان قوم نوح مشركين كما دل عليه قوله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ} [يونس: ٧١]. وبذلك كان تمثيل حال المشركين من العرب بحال قوم نوح تمثيلا تاما.

{أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ} وحدوه {وَاتَّقُوهُ} خافوه {وَأَطِيعُونِ} فيما أدعوكم إليه من التوحيد، فإني رسول الله إليكم.

جعل الطاعة هنا لنبي الله نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وعلق عليها مغفرة الله لذنوبهم.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقد بين تعالى أن طاعة النبي هي طاعة الله فهي في الأصل طاعة لله لأنه مبلغ عن الله، كما في قوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً * مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} [النساء:٧٩-٨٠].

وقد قال المفسرون: لم يكن في شريعة نوح إلا الدعوة إلى التوحيد فليس في شريعته أعمال تطلب الطاعة فيها، لكن لم تخل شريعة إلهية من تحريم الفواحش مثل قتل الأنفس وسلب الأموال.

{يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ} «من» إما مزيدة للتوكيد، أو تبعيضية. وهو ما وعدهم العقوبة عليها. وأما ما لم يعدهم العقوبة عليها، فقد تقدم عفوه لهم عنها.

أو بعض الذنوب، وهو ما لا يتعلق بحقوق المخلوقين.

أو يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه منها.

{وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} محدد معين عند الله على تفاوت آجالهم... وهو أقصى ما قدره بشرط الإيمان. أي: فلا يعاجلكم بعذاب غرق أو نحوه.

قال ابن عاشور: "وعد بخير دنيوي يستوي الناس في رغبته، وهو طول البقاء فإنه من النعم العظيمة لأن في جبلة الإنسان حب البقاء في الحياة على ما في الحياة من عوارض ومكدرات. وهذا ناموس جعله الله تعالى في جبلة الإنسان لتجري أعمال الناس على ما يعين على حفظ النوع.

قال المعري:

كُلٌّ يُرِيدُ الْعَيْشَ وَالْعَيْشُ حَتْفُهُ ... وَيَسْتَعْذِبُ اللَّذَّاتِ وَهْيَ سِمَامُ

والتأخير: ضد التعجيل، وقد أطلق التأخير على التمديد والتوسيع من أجل الشيء.

وقد أشعر وعده إياهم بالتأخير أنه تأخير مجموعهم، أي مجموع قومه لأنه جعل جزاء لكل من عبد الله منهم واتقاه وأطاع الرسول، فدل على أنه أنذرهم في خلال ذلك باستئصال القوم كلهم، وأنهم كانوا على علم بذلك كما أشار إليه قوله: {أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [نوح:١]. كما تقدم آنفا، وكما يفسره قوله تعالى في سورة هود {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ}



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

[هود:٣٨] أي سخروا من الأمر الذي يصنع الفلك للوقاية منه. وهو أمر الطوفان، فتعين أن التأخير المراد هنا هو عدم استئصالهم. والمعنى: ويؤخر القوم كلهم إلى أجل مسمى وهو آجال إِشْخَاصِهِمْ وهي متفاوتة".

{إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ} الذي كتبه على من كذب وتولى، وأضاف الأجل إليه سبحانه لأنه الذي أثبته. وقد يضاف إلى القوم، كقوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ} [الأعراف:٣٤] لأنه مضروب لهم.

{إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} لو أنتم من أهل العلم والنظر لأنبتم.

فالذي رغب نوح قومه فيه هو سبب تأخير آجالهم عند الله فلو فعلوه تأخرت آجالهم وبتأخيرها يتبين أن قد تقرر في علم الله أنهم يعملون ما يدعوهم إليه نوح وأن آجالهم تطول، وإذ لم يفعلوه فقد كشف للناس أن الله علم أنهم لا يفعلون ما دعاهم إليه نوح وأن الله قاطع آجالهم، وقد أشار إلى هذا المعنى قول النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ) [البخاري]، وقد استعصى فهم هذا على كثير من الناس فخلطوا بين ما هو مقرر في علم الله، وما أظهره قدر الله في الخارج الوجودي.

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩)

{قَالَ} نوح بعد أن بذل غاية الجهد، وضاقت عليه الحيل، في تلك المدد الطوال.

وجرد فعل {قَالَ} هنا، من العاطف تنبيها على مبادرة نوح بإبلاغ الرسالة إلى قومه وتمام حرصه في ذلك كما أفاده قوله: {لَيْلاً وَنَهَاراً}

{رَبِّ إِنِّي} وتصدير كلام نوح بالتأكيد لإرادة الاهتمام بالخبر.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{دَعَوْتُ قَوْمِي} إلى التوحيد والعمل الصالح {لَيْلًا وَنَهَارًا} دائماً بلا فتور ولا توان.. للدلالة على عدم الهوادة في حرصه على إرشادهم، وأنه يترصد الوقت الذي يتوسم أنهم فيه أقرب إلى فهم دعوته منهم في غيره، من أوقات النشاط وهي أوقات النهار، ومن أوقات الهدوء وراحة البال وهي أوقات الليل.

وقد بين تعالى مدة مكثه فيهم على تلك الحالة في قوله تعالى: {فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً} [العنكبوت:١٤].

وهذا الخبر مستعمل في لازم معناه وهو الشكاية والتمهيد لطلب النصر عليهم لأن المخاطب به عالم بمدلول الخبر. وذلك ما سيفضي إليه بقوله: {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} [نوح:٢٦] الآيات.

وفائدة حكاية ما ناجى به نوح ربه إظهار توكله على الله، وانتصار الله له، والإتيان على مهمات من العبرة بقصته، بتلوين لحكاية أقواله وأقوال قومه وقول الله له.

{فَلَمْ يَزِدْهُمْ} كان فرارهم من التوحيد ثابتا لهم من قبل {دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا} استثناء منقطع، والفرار مستعار لقوة الإعراض، أي فلم يزدهم دعائي إياهم قربا مما أدعوهم إليه من الهدى لكن زادهم فرارا، كما في قوله تعالى حكاية عن صالح –عليه السلام–: {فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ} [هود:٦٣] أي: فما تزيدونني غير تضليل وإبعاد عن الخير.

{وَإِنِّي كُلَّمَا} جاء بكلمة {كُلَّمَا} الدالة على شمول كل دعوة من دعواته مقترنة بدلائل الصد عنها.

{دَعَوْتُهُمْ} إلى عبادتك وتقواك وطاعتي فيما أمرتهم به.

{لِتَغْفِرَ لَهُمْ} بسببه، لام التعليل، أي دعوتهم بدعوة التوحيد فهو سبب المغفرة، فالدعوة إليه معللة بالغفران.

وفي ذلك تعريض بحمقهم وتعجب من خلقهم إذ يعرضون عن الدعوة لما فيه نفعهم فكان مقتضى الرشاد أن يسمعوها ويتدبروها.

{جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ} سدوا مسامعهم من استماع الدعوة، كما في قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ} [فصلت:٢٦].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وأطلق اسم الأصابع على الأنامل على وجه المجاز المرسل بعلاقة البعضية، فإن الذي يجعل في الأذن الأنملة لا الأصبع كله، فعبر عن الأنامل بالأصابع للمبالغة في إرادة سد المسامع بحيث لو أمكن لأدخلوا الأصابع كلها، كما في قوله تعالى: {يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنْ الصَّوَاعِقِ} [البقرة:١٩].

{وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ} جعلوها غشاء، أي غطاء على أعينهم، تعضيدا لسد آذانهم بالأصابع لئلا يسمعوا كلامه ولا ينظروا إشاراته، وأكثر ما يطلق الغشاء على غطاء العينين، قال تعالى: {وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} [البقرة:٧] والسين والتاء في {اسْتَغْشَوْا} للمبالغة.

{وَأَصَرُّوا} على الشر والكفر فلم يتوبوا.. والإصرار: تحقيق العزم على فعل، وهو مشتق من الصَّرِّ وَهُوَ الشَّدُّ عَلَى شَيْءٍ وَالْعَقْدُ عَلَيْهِ.

{وَاسْتَكْبَرُوا} تعاظموا عن الإذعان للحق، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة. لأنهم قالوا: {أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ} [الشعراء:١١١] فهو مبالغة في تكبروا، أي جعلوا أنفسهم أكبر من أن يأتمروا لواحد منهم: {مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ} [هود:٢٧].

وقريب منه قوله تعالى: {كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} [الشورى:١٣]

{اسْتِكْبَارًا} وتأكيد {اسْتَكْبَرُوا} بمفعوله المطلق للدلالة على تمكن الاستكبار. وتنوين {اسْتِكْبَاراً} للتعظيم والتفخيم، أي استكبارا شديدا لا يفله حد الدعوة.

{ثُمَّ} تفيد في عطفها الجمل "أن مضمون الجملة المعطوفة أهم من مضمون المعطوف عليها"، لأن اختلاف كيفية الدعوة ألصق بالدعوة من أوقات إلقائها لأن الحالة أشد ملابسة بصاحبها من ملابسة زمانه.

{إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا} ارتقى في شكواه واعتذاره بأن دعوته كانت مختلفة الحالات في القول من جهر وإسرار، فالدعاء أحد نوعيه الجهار أي العلن.

{ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ} قال مجاهد: أعلنت: صحت {وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا} مفعول مطلق مفيد للتوكيد، أي إسرارا خفيا.. ووجه توكيد الإسرار أن إسرار الدعوة



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

كان في حال دعوته سادتهم وقادتهم لأنهم يمتعضون من إعلان دعوتهم بمسمع من أتباعهم.

أي: دعوتهم مرة بعد مرة، على وجوه متنوعة، ما بين مجاهرة وإظهار بلا خفاء، وما بين إعلان وصياح بهم، وما بين إسرار فيما بيني وبينهم في خفاء.

وهذه المراتب أقصى ما يمكن للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر. والجمع بين الحالتين أقوى في الدعوة وأغلظ من إفراد إحداهما.

**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢)**

{فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ} فصل دعوته بفاء التفريع فقال {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ} فهذا القول هو الذي قال لهم ليلا ونهارا وجهارا وإسرارا.

ومعنى {اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ} آمنوا إيمانا يكون استغفارا لذنبكم فإنكم إن فعلتم غفر الله لكم.

{إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا} وعلل ذلك لهم بأن الله موصوف بالغفران صفة ثابتة تعهد الله بها لعباده المستغفرين، فأفاد التعليل بحرف "إن" وأفاد ثبوت الصفة لله بذكر فعل {كان}. وأفاد كمال غفرانه بصيغة المبالغة بقوله {غَفَّاراً}.

وهذا وعد بخير الآخرة ورتب عليه وعدا بخير الدنيا بقوله:

{يُرْسِلِ السَّمَاءَ} بالمطر، ومن أسماء المطر السماء، وفي البخاري عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنْ اللَّيْلَةِ.

{عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا} متتابعاً ذا غيث كثير.. وكانوا أهل فلاحة فوعدهم بنزول المطر الذي به السلامة من القحط وبالزيادة في الأموال.

{وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ} فيكثرها عندكم {وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ} النخيل والأعناب، لأن الجنات تحتاج إلى السقي.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَيَجْعَلْ} إعادة فعل "يجعل" بعد واو العطف للتوكيد اهتماما بشأن المعطوف لأن الأنهار قوام الجنات وتسقي المزارع والأنعام {لَكُمْ أَنْهَارًا} لسقيا جناتكم ومزارعكم.

** وفي هذا دلالة على أن الله يجازي عباده الصالحين بطيب العيش قال تعالى:

{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [النحل:٩٧]

{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} [الأعراف:٩٦]

{وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا} [الجن:١٦].

** وفي هذه الآية والتي في «هود»: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} [هود:٣].. دليل على أن الاستغفار يستنزل به الرزق والأمطار.

قال الشعبي: خرج عمر يستسقي فلم يزد على الاستغفار حتى رجع، فأمطروا فقالوا: ما رأيناك استسقيت؟ فقال: لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر؛ ثم قرأ: {اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً}.

وقال الأوزاعي: خرج الناس يستسقون، فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: اللهم إنا سمعناك تقول: {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ} وقد أقررنا بالإساءة، فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا؟! اللهم اغفر لنا وأرحمنا واسقنا! فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا.

وقال ابن صبيح: شكا رجل إلى الحسن الجدوبة فقال له: استغفر الله. وشكا آخر إليه الفقر فقال له: استغفر الله. وقال له آخر: ادع الله أن يرزقني ولدا؛ فقال له: استغفر الله. وشكا إليه آخر جفاف بستانه؛ فقال له: استغفر الله. فقلنا له في ذلك؟ فقال: ما قلت من عندي شيئا؛ إن الله تعالى يقول: {اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً}.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وأفضل الاستغفار ما كان عن إخلاص وإقلاع من الذنوب. وهو الأصل في الإجابة.

## مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤)

{مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} بدل خطابه مع قومه من طريقة النصح والأمر إلى طريقة التوبيخ.

أي: لا ترون له عظمة، إذ تشركون معه مالا يسمع ولا يبصر، فنفي الرجاء مراد به نفي لازمه، وهو الاعتقاد، مبالغة.

وجوّز أن يكون الرجاء بمعنى الخوف، أي: مالكم لا تخافون عظمة الله وقدرته بالعقوبة. قال الشهاب: وهو أظهر.

{وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا} تراباً ثم نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم أجنة، وهكذا طوراً بعد طور. وهي المبينة في قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون:١٢-١٤]

أي: ومقتضى علم ذلك شدة الرهبة من بطشه وأخذه، لعظيم قدرته. فهو دليل على تمكن الخالق من كيفيات الخلق والتبديل في الأطوار، وهم يدركون ذلك بأدنى التفات للذهن، فكانوا محقوقين بأن يتوصلوا به إلى معرفة عظمة الله وتوقع عقابه لأن الدلالة على ذلك قائمة بأنفسهم، وهل التصرف فيهم بالعقاب والإثابة إلا دون التصرف فيهم بالكون والفساد.

فأصل الخلقة والإيجاد أقوى دليل على القدرة وهو الذي يجاب به على الكفرة كما في قوله تعالى: {قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ} [عبس:١٧] ثم قال: {مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} [عبس:١٨-١٩]

هذا في أنفسكم، وكذلك يستدل على باهر عظمته، وقاهر قدرته من آياته الكونية فقال تعالى:



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠)

{أَلَمْ تَرَوْا} استفهام تقريري مكنى به عن الإنكار عن عدم العلم بدلائل ما يرونه على جهة الإخبار لا المعاينة وهو الذي يشهد له القرآن.

كما في قوله تعالى: {قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ} [فصلت:٩-١٣]

لأن الله تعالى خاطب هنا الكفار قطعا وخاطبهم بأمور مفصلة لم يشهدوها قطعا من خلق الأرض في يومين ومن تقدير أقواتها في أربعة أيام ومن استوائه إلى السماء وهي دخان... كل ذلك تفصيل لأمور لم يشهدوها ولم يعلموا عنها بشيء ومن ضمنها قضاؤه سبع سماوات فكان كله على سبيل الإخبار لجماعة الكفار.

وعقبه بقوله {ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} فكان مقتضى هذا الإخبار وموجب هذا التقدير من العزيز العليم أن يصدقوا أو أن يؤمنوا وهذا من خصائص كل إخبار يكون مقطوعا بصدقه من كل من هو واثق بقوله يقول الخبر وكان لقوة صدقه ملزم لسامعه ولا يبالي قائله بقبول السامع له أو إعراضه عنه.

ولذا قال تعالى بعد ذلك مباشرة {فَإِنْ أَعْرَضُوا} أي: بعد إعلامهم بذلك كله فلا عليك منهم {فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ}.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وحيث إن الله خاطبهم هنا {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ}؟ فكان هذا أمر لفرط صدق الإخبار به كالمشاهد المحسوس الملزم لهم.

وقد يقال إن الرؤية هنا في الكيفية حاصلة بالعين محسوسة ولكن في شخصية الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ليلة الإسراء والمعراج حيث عرج به ورأى السبع الطباق وكان يستأذن لكل سماء، ومشاهدة الواحد من الجنس كمشاهدة الجميع، فكأننا شاهدناها كلنا لإيماننا بصدقه –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ولحقيقة معرفتهم إياه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في الصدق من قبل والعلم عند الله تعالى.

{كَيْفَ} هنا مجردة عن الاستفهام للدلالة على الكيفية، أي الحالة.

{خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} يجوز أن يكون وصف {سبع} معلوما للمخاطبين من قوم نوح، أو من أمة الدعوة الإسلامية بأن يكونوا علموا ذلك من قبل؛ فيكون مما شمله فعل {أَلَمْ تَرَوْا}.

ويجوز أن يكون تعليما للمخاطبين على طريقة الإدماج.

{طِبَاقًا} بعضها فوق بعض، وذلك يقتضي أنها منفصل بعضها عن بعض وأن بعضها أعلى من بعض.

{وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ} أي في سماء الدنيا {نُورًا} أي لأهل الأرض {وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا} السراج: المصباح الزاهر نوره.. أي: مصباحا لأهل الأرض يزيل ظلمه الليل، وينير وجه الأرض ليتوصلوا إلى التصرف لمعايشهم.

وهو تشبيه القصد منه تقريب المشبه من إدراك السامع، فإن السراج كان أقصى ما يستضاء به في الليل، وقل من العرب من يتخذوه وإنما كانوا يرونه في أديرة الرهبان أو قصور الملوك وأضرابهم.

ولم يخبر عن الشمس بالضياء كما في قوله {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً} [يونس:٥]، والمعنى واحد وهو الإضاءة، فلعل إيثار السراج هنا لمقاربة تعبير نوح في لغته، مع ما فيه من الرعاية على الفاصلة، لأن الفواصل التي قبلها جاءت على حروف صحيحة ولو قيل ضياء لصارت الفاصلة همزة، والهمزة قريبة من حروف العلة فيثقل الوقف عليها.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وفي جعل القمر نورا إيماء إلى أن ضوء القمر ليس من ذاته فإن القمر مظلم وإنما يضيء بانعكاس أشعة الشمس على ما يستقبلها من وجهه بحسب اختلاف ذلك الاستقبال من تبعض وتمام، وهو أثر ظهوره هلالا ثم اتساع استنارته إلى أن يصير بدرا، ثم ارتجاع ذلك، وفي تلك الأحوال يضيء على الأرض إلى أن يكون المحاق. وبعكس ذلك جعلت الشمس سراجا لأنها ملتهبة وأنوارها ذاتية فهي صادرة عنها إلى الأرض وإلى القمر مثل أنوار السراج تملأ البيت وتلمع أواني الفضة ونحوها مما في البيت من الأشياء المقابلة.

وقد اجتمع في قوله: {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً} استدلال وامتنان.

** والآية الكريمة لم تخصص قمرا واحدا، والتركيب اللغوي المستعمل فيها لا يفيد الحصر ولا القصر، فقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا} غايته – في هذا المقام – إثبات نورانية القمر، دون التعرض لغيره من الأقمار بنفي ولا إثبات، مثالها كما تقول: "جعلت هذا الكتاب نبراسي". فهذا لا ينفي أنك جعلت غيره من الكتب أو المعلمين أيضا نبراسا لك، وفي مكان معتبر من التقدير والاهتمام، وهذا واضح في اللغة العربية؛ ولهذا قرر أكثر علماء الأصول عدم حجية ما يسمى بمفهوم اللقب، وهو الاستدلال بالحكم على اسم جنس أو علم على نفي الحكم عما عداه.

يقول ابن قدامة رحمه الله: «مفهوم اللقب» أن يخص اسمًا بحكم، فيدل على أن ما عداه بخلافه: أنكره الأكثرون، وهو الصحيح؛ لأنه يفضي إلى سد باب القياس".

وذهب بعض العلماء إلى أن الألف واللام (ال) في كلمة (القمر) في الآية الكريمة ليست للعهد، وإنما يراد بها الجنس، أي جنس الأقمار جعلها الله عز وجل نورا في السماوات، وهذا يمكن أن يشمل القمر التابع للكرة الأرضية، وغيره من الأقمار.

يقول العلامة جمال الدين القاسمي –رحمه الله–:



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

"ليس القمر خاصا بالأرض، بل للسيارات الأخرى أقمار {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً} فالألف واللام في الْقَمَرَ للجنس، لا للعهد، كما في قوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين:٤]

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا –رحمه الله–:

"وأما الأقمار فهي كالمرآة، تعكس نور الشمس على الكواكب التابعة لها؛ فلذا لم تسم في القرآن بالسُّرج، فإنها لا نور لها من ذاتها، قال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً. وَجَعَلَ الْقَمَرَ} أي: جنس القمرِ {فيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً} أي: لهم جميعًا".

{وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ} أطلق على معنى: أنشأكم، فعل {أَنْبَتَكُمْ} للمشابهة بين إنشاء الإنسان وإنبات النبات من حيث إن كليهما تكوين، كما قال تعالى: {وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا} [آل عمران:٣٧]، أي أنشأها، ويزيد وجه الشبه هنا قربا من حيث إن إنشاء الإنسان مركب من عناصر الأرض، وقيل التقدير: أنبت أصلكم، أي آدم عليه السلام، قال تعالى: {كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ} [آل عمران:٥٩].

{نَبَاتًا} مفعول مطلق للتوكيد، ولم يجر على قياس فعله فيقال: "إنباتا"، لأن نباتا أخف فلما تسنى الإتيان به لأنه مستعمل فصيح لم يعدل عنه إلى الثقيل كمالا في الفصاحة، بخلاف قوله بعده {إِخْرَاجاً} فإنه لم يعدل عنه إلى: خروجا، لعدم ملاءمته لألفاظ الفواصل قبله المبنية على ألف مثل ألف التأسيس، فكما تعد مخالفتها في القافية عيبا كذلك تعد المحافظة عليها في الأسجاع والفواصل كمالا.

{ثُمَّ} دالة على التراخي الرتبي {يُعِيدُكُمْ فِيهَا} عند موتكم بالدفن {وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا} للحساب والجزاء.. مفعول المطلق لرد إنكارهم البعث.

{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا} تستقرون عليها وتمتهدونها {لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا} طرقاً مختلفة.. جمع فج، والفج: الطريق الواسع، وأكثر ما يطلق على الطريق بين جبلين لأنه يكون أوسع من الطريق المعتاد.

فالبساط: ما يفرش للنوم عليه والجلوس من ثوب أو غيره.. أي كالبساط. ووجه الشبه تناسب سطح الأرض في تعادل أجزاءه بحيث لا يوجع أرجل الماشين ولا يقض



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

جنوب المضطجعين، وليس المراد أن الله جعل حجم الأرض كالبساط، وقد نبه على ذلك بالعلة الباعثة في قوله: {لكم}، والعلة الغائبة في قوله: {لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً} وحصل من مجموع العلتين الإشارة إلى جميع النعم التي تحصل للناس من تسوية سطح الأرض مثل الحرث والزرع، وإلى نعمه خاصة وهي السير في الأرض وخصت بالذكر لأنها أهم لاشتراك كل الناس في الاستفادة منها.

**قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤)**

{قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ} تأكيد الخبر بـ "إن" للاهتمام بما استعمل فيه من التحسر والاستنصار.

{عَصَوْنِي} خالفوا أمري وردّوا عليّ ما دعوتهم إليه من الهدى والرشاد.

شكاهم إلى الله تعالى، وأنهم عصوه ولم يتبعوه فيما أمرهم به من الإيمان.

وقال أهل التفسير: لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما داعيا لهم وهم على كفرهم وعصيانهم.

قال ابن عباس: رجا نوح عليه السلام الأبناء بعد الآباء؛ فيأتي بهم الولد بعد الولد حتى بلغوا سبع قرون، ثم دعا عليهم بعد الإياس منهم، وعاش بعد الطوفان ستين عاما حتى كثر الناس وفشوا.

{وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا} أي: رؤساءهم المتبوعين وأغنياءهم، أهل المال والجاه، المعرضين عن الحق، الذين غرتهم أموالهم وأولادهم، فهلكوا بسببهما، وخسروا سعادة الدارين. كما قال تعالى: {وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً} [المزمل: ١١].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقيل: وأدمج في الصلة أنهم أهل أموال وأولاد إيماء إلى أن ذلك سبب نفاذ قولهم في قومهم وائتمار القوم بأمرهم: فأموالهم إذا أنفقوها لتأليف أتباعهم، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الأنفال:٣٦]، وأولادهم أرهبوا بهم من يقاومهم.

والخسار مستعار لحصول الشر من وسائل شأنها أن تكون سبب خير، كخسارة التاجر من حيث أراد الربح، فإذا كان هؤلاء خاسرين فالذين يتبعونهم يكونون مثلهم في الخسارة وهم يحسبون أنهم أرشدوهم إلى النجاح.

{وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا} مبالغة، أي كبيرا جدا متناهياً كبره، فإن الكبّار أكبر من الكبير.

واختلف في مكرهم ما هو؟

فقيل: تحريشهم سفلتهم على قتل نوح.

وقيل: هو تغريرهم الناس بما أوتوا من الدنيا والولد؛ حتى قالت الضعفة: لولا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم.

وقال الكلبي: هو ما جعلوه لله من الصاحبة والولد.

وقيل: مكرهم كفرهم.

وقال مقاتل: هو قول كبرائهم لأتباعهم: {وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً}.

{وَقَالُوا} قال بعضهم لبعض {لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} تكرير {لا} النافية لتأكيد النفي الذي في قوله: {لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ} وعدم إعادة {لا} مع قوله: {وَيَعُوقَ وَنَسْراً} لأن الاستعمال جار على أن لا يزاد في التأكيد على ثلاث مرات.

قال قتادة: كانت آلهة تعبدها قوم نوح، ثم عبدتها العرب بعد ذلك.

قيل: فلما كان أيام الطوفان دفنها الطين والتراب والماء؛ فلم تزل مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقيل: أن أصنام قوم نوح قد دثرت وغمرها الطوفان وأن أسماءها بقيت محفوظة عند الذين نجوا مع نوح من المؤمنين فكانوا يذكرونها ويعظون ناشئتهم بما حل بأسلافهم من جراء عبادة تلك الأصنام، فبقيت تلك الأسماء يتحدث بها العرب الأقدمون في أثارات علمهم وأخبارهم، فجاء عمر بن لحي الخزاعي الذي أعاد للعرب عبادة الأصنام فسمى لهم الأصنام بتلك الأسماء وغيرها

وقال ابن جرير: كان خبرهم –فيما بلغنا– من محمد بن قيس قال: كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم؛ فصوروهم. فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم.

وروى البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– صَارَتْ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سَبَإٍ وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الْكَلَاعِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ.

قال قتادة: والله ما عدا – أي: كل منها – خشبة أو طينة أو حجراً.

وبهذا المعنى فسر ما جاء في صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ [تسمى مارية] فِيهَا تَصَاوِيرُ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– (إِنَّ أُولَئِكِ إِذَا كَانَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكِ الصُّوَرَ أُولَئِكِ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

قال ابن القيم في «إغاثة اللهفان»: أول ما كاد به الشيطان عُبَّاد الأصنام، من جهة العكوف على القبور، وتصاوير أهلها، ليتذكروهم بها، كما قص الله سبحانه قصصهم في كتابه فقال: {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ} الآية.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ثم قال: وتلاعب الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسباب عديدة، تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم: فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم، كما تقدم عن قوم نوح عليه السلام، ولهذا (لعن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– المتخذين على القبور المساجد السرج)، و (نهى عن الصلاة إلى القبور)، و (سأل ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد)، و (نهى أمته أن يتخذوا قبره عيداً)، وقال: (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)، و (أمر بتسوية القبور، وطمس التماثيل)، فأبى المشركون إلا خلافه في ذلك كله، إما جهلاً، وإما عناداً لأهل التوحيد، ولم يضرهم ذلك شيئاً.

{وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا} وهذا من قول نوح. أي ضل بسببها خلقاً كثيراً؛ نظيره قول إبراهيم: {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ} فأجرى عليهم وصف ما يعقل؛ لاعتقاد الكفار فيهم ذلك.

وقيل: عطف على {وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ}، أي أضلوا بقولهم هذا وبغيره من تقاليد الشرك كثيرا من الأمة بحيث ما آمن مع نوح إلا قليل.

{وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا} خذلاناً واستدراجاً. وإنما دعا ذلك ليأسه من إيمانهم.

قال أبو السعود: ووضع الظاهر موضع ضميرهم، للتسجيل عليهم بالظلم المفرط، وتعليل الدعاء عليهم به.

**مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)**

{مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ} من أجلها.. قوم كفروا ألف سنة، وجمع الخطيئات مراد بها الإشراك، وتكذيب الرسول، وأذاه، وأذى المؤمنين معه، والسخرية منه حين توعدهم بالطوفان، وما ينطوي عليه ذلك كله من الجرائم والفواحش.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{أُغْرِقُوا} بالطوفان {فَأُدْخِلُوا نَارًا} أذيقوا به عذاب النار.. جمع الله لهم أقصى العقوبتين الإغراق والإحراق، مقابل أعظم الذنبين الضلال والإضلال.

{فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا} تعريض بالمشركين من العرب باتخاذهم آلهة من دون الله، وأنها غير قادرة على نصرهم، وتهكم بهم، كأنه قال: فلم يجدوا لهم من دون الله آلهة ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله.

أي كما لم تنصر الأصنام عبدتها من قوم نوح، كذلك لا تنصركم أصنامكم. كقوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا} [ الأنبياء:٤٣].

والآية جملة معترضة بين مقالات نوح عليه السلام، وليست من حكاية قول نوح، فهي إخبار من الله تعالى لرسوله محمد –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بأنه قدّر النصر لنوح والعقاب لمن عصوه من قومه قبل أن يسأله نوح استئصالهم، والغرض من الاعتراض بها التعجيل بتسلية رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– على ما يلاقيه من قومه مما يماثل ما لاقاه نوح من قومه.

{وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} أحداً.. قال ابن جرير: يعني بالديَّار من يدور في الأرض فيذهب ويجيء فيها، وهو فَيْعال من الدوران.

{إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ} عن طريق الحق.. وهو تعليل لسؤاله أن لا يترك الله على الأرض أحدا من الكافرين.

{وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا} والفاجر: المتصف بالفجور، وهو العمل الشديد الفساد.

{كَفَّارًا} مبالغة في الموصوف بالكفر، أي إلا من يجمع بين سوء الفعل وسوء الاعتقاد، قال تعالى: {أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ} [عبس:٤٢].

قال أبو السعود: أي: إلا من سيفجر ويكفر، فوصفهم بما يصيرون إليه، وكأنه اعتذار مما عسى يرد عليه من أن الدعاء بالاستئصال مع احتمال أن يكون من أخلافهم من يؤمن، منكر، وإنما قاله لاستحكام علمه بما يكون منهم ومن أعقابهم بعد ما جربهم، واستقرأ أحوالهم قريباً من ألف سنة.

وقال بعضهم: ملَّ نوح عليه السلام من دعوة قومه وضجر، واستولى عليه الغضب، ودعا ربه لتدمير قومه وقهرهم، وحكم بظاهر الحال أن المحجوب الذي



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

غلب عليه الكفر لا يلد إلا مثله، فإن النطفة التي تنشأ من النفس الخبيثة المحجوبة، وتتربى بهيئاتها المظلمة، لا تقبل إلا نفساً مثلها، كالبذر الذي لا ينبت إلا من صنفه ونسخه.

قال ابن العربي: "دعا نوح على الكافرين أجمعين، ودعا النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– على من تحزب على المؤمنين وألب عليهم. وكان هذا أصلا في الدعاء على الكافرين في الجملة، فأما كافر معين لم تعلم خاتمته فلا يدعى عليه؛ لأن مآله عندنا مجهول، وربما كان عند الله معلوم الخاتمة بالسعادة. وإنما خص النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بالدعاء: عتبة وشيبة وأصحابهما؛ لعلمه بمآلهم وما كشف له من الغطاء عن حالهم. والله أعلم".

قال الشنقيطي –رحمه الله–: "في هذه نص على أن نبي الله نوحا طلب من الله إهلاك من على الأرض جميعا مع أن عادة الرسل الصبر على أممهم، وفيه إخبار نبي الله نوح عمن سيولد من بعد وأنهم لم يلدوا إلا فاجرا كفارا فكيف دعا على قومه هذا الدعاء وكيف حكم على المواليد فيما بعد؟

والقرآن الكريم بين هذين الأمرين:

أما الأول: فإنه لم يدع عليهم هذا الدعاء إلا بعد أن تحدوه ويئس منهم أما تحديهم ففي قولهم: {قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [هود:٣٢].

وقوله: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ} [القمر:٩–١٠].. {وَازْدُجِرَ} وانتهروه متوعدين إياه بأنواع الأذى، إن لم ينته عن دعوته.

وأما يأسه منهم فلقوله تعالى: {وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ} [هود:٣٦].

وأما إخباره عمن سيولد بأنه لن يولد لهم إلا فاجر كفار فهو من مفهوم الآية المذكورة آنفا لأنه إذا لم يؤمن من قومه إلا من قد آمن فسواء في الحاضر أو المستقبل.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وكذلك بدليل الاستقراء –وهو دليل معتبر شرعا وعقلا– وهو أنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما وما آمن معه إلا قليل كانوا هم ومن معهم غيرهم حمل سفينة فقط، فكان دليلا على قومه أنهم فتنوا بالمال ولم يؤمنوا له وهو دليل نبي الله موسى عليه السلام أيضا على قومه.

كما قال تعالى: {رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [يونس:٨٨]

فأخبر نبي الله موسى عن قومه أنهم لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم وذلك من استقراء حالهم في مصر لما أراهم الآية الكبرى: {فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات:٢١–٢٤].

وبعد أن ابتلاهم الله بما قص علينا في قوله: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ} [الأعراف:١٣٣].

وقوله تعالى بعدها: {وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ} [الأعراف:١٣٤–١٣٥].

فمن كانت هذه حالته وموسى يعاين ذلك منهم لا شك أنه يحكم عليهم أنهم لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

وكذلك كان دليل الاستقراء لرسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في قومه استدل به على عكس الأقوام الآخرين حينما رجع من الطائف وفعلت معه ثقيف ما فعلت فأدموا قدميه وجاءه جبريل ومعه ملك الجبال واستأذنه في أن يطبق عليهم الأخشبين فقال: (لا اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون إني لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله) وذلك أنه –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– علم باستقراء حالهم أنهم لا يعلمون فهم يمتنعون عن الإيمان لقلة تعلمهم وأنهم في حاجة إلى التعليم.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فإذا علموا تعلموا، وأن طبيعتهم قابلة للتعليم لا أنهم كغيرهم في إصرارهم لأنه شاهد من كبارهم إذا عرض عليهم القرآن وخوطبوا بخطاب العقل ووعوا ما يخاطبون به وسلموا من العصبية والنوازع الأخرى فإنهم يستجيبون حالا كما حدث لعمر وغيره –رضي الله عنهم– إلا من أعلمه الله بحاله مثل الوليد بن المغيرة: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً} إلى قوله {كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآياتنَا عَنِيداً سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً} إلى قوله {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} [المدثر:١١–٢٦]، فعلم – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حاله وماله ولذا فقد دعا عليه يوم بدر.

ومثله أبو لهب لما تبين حاله بقوله تعالى: {سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ} [المسد:٣–٤]

فلكون العرب أهل فطرة ولكون الإسلام دين الفطرة أيضا كانت الاستجابة إليه أقرب.

وانظر مدة مكثه –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– من البعثة إلى انتقاله إلى الرفيق الأعلى ثلاثا وعشرين سنة كم عدد من أسلم فيها بينما نوح عليه السلام يمكث ألف سنة إلا خمسين عاما فلم يؤمن معه إلا القليل.

ولذا كان قول نوح –عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام–: {وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً}، كان بدليل الاستقراء من قومه والعلم عند الله تعالى.[أضواء البيان]

## رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)

{رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ} وكانا مؤمنين {وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا} قال ابن جرير: أي: لمن دخل مسجدي ومصلاي، مصلياً مؤمناً بواجب فرضك عليه. وقيل: بيتي منزلي {وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} عامة إلى يوم القيامة {وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ} الكافرين {إِلَّا تَبَارًا} هلاكاً وخساراً.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فهو تخصيص للظالمين من قومه بسؤال استئصالهم بعد أن شملهم وغيرهم بعموم قوله: {لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} [نوح:٢٦] حرصا على سلامة المجتمع الإنساني من شوائب المفاسد وتطهيره من العناصر الخبيثة.

وجعل الدعاء لنفسه ووالديه خاتمة مناجاته فابتدأ بنفسه ثم بأقرب الناس به وهما والداه، ثم عمم أهله وذويه المؤمنين فدخل أولاده وبنوه والمؤمنات من أزواجهم وعبر عنهم بمن دخل بيته كناية عن سكناهم معه، فالمراد بقوله: {دَخَلَ بَيْتِيَ} دخول مخصوص وهو الدخول المتكرر الملازم. ومنه سميت بطانة المرء دخيلته ودخلته ثم عمم المؤمنين والمؤمنات، ثم عاد بالدعاء على الكفرة بأن يحرمهم الله النجاح وهو على حد قوله المتقدم {وَلاَ تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً} [نوح:٢٤].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بسم الله الرحمن الرحيم

# مع سورة الجن

سميت في كتب التفسير وفي المصاحف ومنها الكوفي المكتوب بالقيروان في القرن الخامس «سورة الجن». وكذلك ترجمها الترمذي في كتاب التفسير من جامعه، وترجمها البخاري في كتاب التفسير «سورة قل أوحي إلي».

واشتهر على ألسنة المكتبين والمتعلمين في الكتاتيب القرآنية باسم {قُلْ أُوحِيَ} [الجن: ١].

ولم يذكرها في الإتقان في عداد السور التي لها أكثر من اسم ووجه التسميتين ظاهر.

وهي مكية بالاتفاق. ويظهر أنها نزلت في حدود سنة عشر من البعثة.

وذكر ابن إسحاق أن نزول هذه السورة بعد سفر رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إلى الطائف يطلب النصرة من ثقيف، أي وذلك يكون في سنة عشر بعد البعثة وسنة ثلاث قبل الهجرة.

وقد عدت السورة الأربعين في نزول السور، نزلت بعد الأعراف وقبل يس.

واتفق أهل العدد على عد آيها ثمان وعشرين.

**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢)**

{قُلْ} افتتاح السورة بالأمر بالقول يشير إلى أن ما سيذكر بعده حدث غريب، وخاصة بالنسبة للمشركين الذين هم مظنة التكذيب به كما يقتضيه قوله: {كَمَا ظَنَنتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا} [الجن:٧] حسبما يأتي.

أمر الله تعلى رسوله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بأن يُعلم المسلمين وغيرهم بأن الله أوحى إليه وقوع حدث عظيم في دعوته، أقامه الله تكريما لنبيه وتنويها بالقرآن، وهو أن



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

سخر بعض الجن لاستماع القرآن وألهمهم أو علمهم فهم ما سمعوه واهتداءهم إلى مقدار إرشاده إلى الحق والتوحيد وتنزيه الله والإيمان بالبعث والجزاء فكانت دعوة الإسلام في أصولها بالغة إلى عالم من العوالم المغيبة.

{أُوحِيَ إِلَيَّ} والذين أمر الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بأن يقول لهم أنه أوحي إليه بخبر الجن: هم جميع الناس الذين كان النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يبلغهم القرآن من المسلمين والمشركين، أراد الله إبلاغهم هذا الخبر لما له من دلالة على شرف هذا الدين وشرف كتابه وشرف من جاء به، وفيه إدخال مسرة على المسلمين وتعريض بالمشركين إذ كان الجن قد أدركوا شرف القرآن وفهموا مقاصده وهم لا يعرفون لغته ولا يدركون بلاغته فأقبلوا عليه، والذين جاء بلسانهم وأدركوا خصائص بلاغته أنكروه وأعرضوا عنه.

وفي الآية –كما قال القاضي– دلالة على أنه –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ما رآهم، ولم يقرأ عليهم، وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته فسمعوها، فأخبر الله به رسوله.

{أَنَّهُ} تأكيد الخبر الموحى بحرف "أن" للاهتمام به ولغرابته {اسْتَمَعَ} لهذا القرآن الحكيم.

{نَفَرٌ} والمشهور أن النفر ما بين الثلاثة إلى العشرة، وقد يستعمل إلى الأربعين كالرهط.

{مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا} لما رجعوا إلى قومهم الذين لم يحضروا استماع القرآن.. ألهمهم الله أن ينذروهم ويرشدوهم إلى الصلاح، كما قال تعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنْ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ، قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا} [الأحقاف:٢٩–٣٠].

{إِنَّا} تأكيد الخبر بـ "إن" لأنهم أخبروا به فريقا منهم يشكون في وقوعه فأتوا بكلامهم بما يفيد تحقيق ما قالوه، وهو الذي يعبر عن مثله في العربية بحرف "إن".

{سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا} غريباً، لا تناسبه عبارة الخلق، ولا يدخل تحت قدرتهم.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقيل: عجبا في فصاحة كلامه. أو: عجبا في بلاغة مواعظه. أو: عجبا في عظم بركته. أو: قرآنا عزيزا لا يوجد مثله. أو: يعنون عظيما.

ووصف القرآن بالعجب وصف بالمصدر للمبالغة في قوة المعنى، أي يعجب منه، ومعنى ذلك أنه بديع فائق في مفاده.

{يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ} إلى الحق وسبيل الصواب، أو إلى مراشد الأمور. أو إلى معرفة الله تعالى.

{فَآمَنَّا بِهِ} فاهتدينا به، وصدقنا أنه من عند الله.. والإيمان بالقرآن يقتضي الإيمان بمن جاء به وبمن أنزله ولذلك قالوا:

{وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} من خلقه، في العبادة معه، لأنه المتفرد بالربوبية.

أي ينتفي ذلك في المستقبل. وهذا يقتضي أنهم كانوا مشركين ولذلك أكدوا نفي الإشراك بحرف التأبيد فكما أكد خبرهم عن القرآن والثناء عليه بـ "إن" أكد خبرهم عن إقلاعهم عن الإشراك ب {لن}.

وفي هذا تعجيب المؤمنين بذهاب مشركي قريش عما أدركته الجن بتدبرها القرآن.

** روى مسلم عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما– قَالَ: مَا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَلَى الْجِنِّ وَمَا رَآهُمْ انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمْ الشُّهُبُ فَرَجَعَتْ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا مَا لَكُمْ قَالُوا حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ قَالُوا مَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ شَيْءٍ حَدَثَ فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فَانْطَلَقُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَمَرَّ النَّفَرُ الَّذِينَ أَخَذُوا نَحْوَ تِهَامَةَ وَهُوَ بِنَخْلٍ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ وَقَالُوا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا يَا قَوْمَنَا {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

نَبِيِّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ} [زاد البخاري: وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنّ].

وروى مسلم عَنْ عَامِرٍ قَالَ سَأَلْتُ عَلْقَمَةَ هَلْ كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ شَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لَيْلَةَ الْجِنِّ قَالَ فَقَالَ عَلْقَمَةُ أَنَا سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ فَقُلْتُ هَلْ شَهِدَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لَيْلَةَ الْجِنِّ؟ قَالَ لَا وَلَكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَفَقَدْنَاهُ فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الْأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ فَقُلْنَا اسْتُطِيرَ [طارت به الجن] أَوْ اغْتِيلَ [الغِيلة هي القتل في خفية] قَالَ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءٍ مِنْ قِبَلِ حِرَاءٍ قَالَ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْنَاكَ فَطَلَبْنَاكَ فَلَمْ نَجِدْكَ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ فَقَالَ: (أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ) قَالَ فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ وَسَأَلُوهُ الزَّادَ فَقَالَ: (لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– (فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ)

وقد قيل: "إن الجن أتوا رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– دفعتين: إحداهما بمكة وهي التي ذكرها ابن مسعود، والثانية بِنَخْلَة وهي التي ذكرها ابن عباس".

قال البيهقي:" الذي حكاه عبد الله بن عباس إنما هو في أول ما سمعت الجن قراءة النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وعلمت بحاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم كما حكاه، ثم أتاه داعي الجن مرة أخرى فذهب معه وقرأ عليهم القرآن كما حكاه عبد الله بن مسعود".

** قال الماوردي: "ظاهر الآية أنهم آمنوا عند سماع القرآن. قال: والإيمان يقع بأحد أمرين: إما بأن يعلم حقيقة الإعجاز وشروط المعجزة، فيقع له العلم بصدق الرسول، أو يكون عنده علم من الكتب الأولى، فيها دلائل على أنه النبيّ المبشر به، وكلا الأمرين في الجن محتمل".

** قال الرازي: في الآية فوائد:

إحداها: أن يعرفوا بذلك أنه عليه السلام كما بعث إلى الإنس، فقد بعث إلى الجن.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وثانيها: أن يعلم قريش أن الجن، مع تمردهم، لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه، فآمنوا بالرسول.

وثالثها: أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس.

ورابعها: أن يعلم أن الجن يستمعون كلامنا، ويفهمون لغاتنا.

وخامسها: أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان.

وفي كل هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها الناس.

**وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥)**

{وَأَنَّهُ تَعَالَى} التعالي: شدة العلو، جعل شديد العلو كالمتكلف العلو لخروج علوه عن غالب ما تعارفه الناس فأشبه التكلف.

{جَدُّ رَبِّنَا} جلاله وعظمته، والجد لغة: العظمة والجلال؛ ومنه قول أنس –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: "كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جد في عيوننا؛ أي عظم وجل".

وقال أنس بن مالك والحسن وعكرمة أيضا: غناه. ومنه قيل للحظ جد، ورجل مجدود أي محظوظ؛ وفي الحديث: (وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ) [البخاري] قال أبو عبيدة والخليل: أي ذا الغنى، منك الغنى، إنما تنفعه الطاعة.

وهذا تمهيد وتوطئة لقوله:

{مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا} قال ابن جرير: الجَدَّ بمعنى الحظ. يقال: فلان ذو جَد في هذا الأمر إذا كان له حظ فيه، وهو الذي يقال له بالفارسية: البخت. والمعنى: أن حظوته من الملك والسلطان والقدرة العظيمة عالية، فلا تكون له صاحبة ولا ولد، لأن الصاحبة إنما تكون للضعيف العاجز الذي تضطره الشهوة الباعثة إلى اتخاذها، وأن الولد إنما يكون عن شهوة أزعجته إلى الوقاع الذي يحدث منه الولد. فقال النفر من الجن: علا ملك ربِّنا وسلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه، الذين تضطرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة، أو وقاع شيء يكون منه ولد.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال ابن عاشور: لأن اتخاذ الصاحبة للافتقار إليها لأنسها وعونها والالتذاذ بصحبتها، وكل ذلك من آثار الاحتياج، والله تعالى الغني المطلق، والولد يرغب فيه للاستعانة والأنس به، مع ما يقتضيه من انفصاله من أجزاء والديه وكل ذلك من الافتقار والانتقاص.

وتأكيد الخبر بـ "إن" سواء كانت مكسورة أو مفتوحة لأنه مسوق إلى فريق يعتقدون خلاف ذلك من الجن.

{وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا} مضلهم ومغويهم. والسفيه هنا: إبليس، وقيل: المشركون من الجن: قال قتادة: "عصاه سفيه الجن، كما عصاه سفيه الإنس".

{عَلَى اللَّهِ شَطَطًا} الشطط: البعيد المفرط في البعد. وأصله مجاوزة الحد، والمراد منه نسبة الصاحبة والولد إلى الله تعالى.. أي: قولاً ذا شطط. جعل عين الشطط مبالغة فيه.

وقد بين القرآن أن المراد بالشطط البعد الخاص، وهو البعد عن الحق والعدل والصواب، كما في قوله تعالى: {فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ} [ص:٢٢]

ومنه البعد عن حقيقة التوحيد إلى الشرك، وهو المراد هنا كما في قوله: {لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً} [الكهف:١٤]، لأن دعاءهم غير الله أبعد ما يكون عن الحق. ويدل على أنه المراد هنا ما جاء في هذه السورة: {فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً}.

{وَأَنَّا ظَنَنَّا} حسبنا {أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} في نسبة ما ليس بحق إليه سبحانه، فلذلك صدقناهم في أن لله صاحبة وولدا.

وهو اعتذار عن اتباعهم السفيه في ذلك، لظنهم أن أحداً لا يكذب على الله، حتى تبيّن لهم بالقرآن كذب السفيه وافتراؤه.

وفي هذه الآية إشارة إلى خطر التقليد في العقيدة، وأنها لا يجوز فيها الأخذ بحسن الظن بالمقلَد بل يتعين النظر واتهام رأي المقلد حتى ينهض دليله.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧)

{وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ} العوذ: الالتجاء إلى ما ينجي من شيء يضر، قال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ} [المؤمنون:٩٧] أي: نزغاتهم بما يوسوسون به.

{بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} الرهق في الأصل غشيان الشيء، فخص بما يعرض من الكبر أو الضلال، أي: خطيئة وإثما.

فالضمير إما للجن، أي: فزادوهم باستعاذتهم بهم، غيّاً وإثماً وضلالاً أو خوفا وإرهابا وذعرا، حتى يبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذا بهم.

أي أن الجن كانوا يحتقرون الإنس بهذا الخوف فكانوا يكثرون من التعرض لهم والتخيل إليهم فيزدادون بذلك مخافة.

أو إما الضمير للإنس على معنى: فزادوا الجن باستعاذتهم كبراً وعتوّاً وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة.

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية فيقول: "أعوذ بعزيز هذا الوادي"، فزادهم ذلك إثماً. ففي الآية إشارة إلى ما كانوا يعتقدون في الجاهلية من أن الوديان مَقرُّ الجن، وأن رؤساءها تحميهم منهم.

وهكذا قال إبراهيم: كانوا إذا نزلوا الوادي قالوا: نعوذ بسيد هذا الوادي من شر ما فيه، فتقول الجن: ما نملك لكم ولا لأنفسنا ضراً ولا نفعاً.

وقال كردم بن أبي السائب: "خرجت مع أبي إلى المدينة أول ما ذكر النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فآوانا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل جاء الذئب فحمل حملا من الغنم، فقال الراعي: يا عامر الوادي، "أنا" جارك. فنادى مناد يا سرحان أرسله، فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة".

وقال الربيع بن أنس: كانوا يقولون: فلان من الجن ربّ هذا الوادي، فكان أحدهم إذا دخل الوادي يعوذ برب الوادي من دون الله. قال: فيزيدهم ذلك رهقاً، وهو الفَرَق.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وعن عكرمة قال: كان الجن يَفْرَقُون من الإنس كما يفرَق الإنس منهم أو أشد، وكان الإنس إذا نزلوا واديا هرب الجن، فيقول سيد القوم: نعوذ بسيد أهل هذا الوادي. فقال الجن: نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم. فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخبل والجنون، فذلك قول الله: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}.

وقال ابن زيد: كان الرجل في الجاهلية إذا نزل بوادٍ قبل الإسلام قال: "إني أعوذ بكبير هذا الوادي". فلما جاء الإسلام، عاذوا بالله وتركوهم. انتهى.

قال مقاتل: "كان أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن، ثم من بني حنيفة، ثم فشا ذلك في العرب، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم".

** قال مجاهد: {فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} أي إن الإنس زادوا الجن طغيانا بهذا التعوذ، حتى قالت الجن: سدنا الإنس والجن.

وقال قتادة وأبو العالية والربيع وابن زيد: ازداد الإنس بهذا فرقا وخوفا من الجن.

وقال سعيد بن جبير: كفرا. ولا خفاء أن الاستعاذة بالجن دون الاستعاذة بالله كفر وشرك.

ولذا نزلت سورتا المعوذتين لتعليم الاستعاذة بالله تعالى وحده والتبرؤ من الاستعاذة بغيره، وكذلك أذكار الاستعاذات المأثورة، فإنها للإرشاد لذلك.

روى مسلم عن خَوْلَةَ بِنْتَ حَكِيمٍ السُّلَمِيَّةَ تَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ: (مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ).

قال بعضهم: في الحديث تفسير آية الجن، وأن ما فيها من الشرك، وأن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر، أو جلب نفع، لا يدل على أنه ليس من الشرك.

{وَأَنَّهُمْ} أي: وأوحى إليّ أن الجنّ {ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ} في جاهليتكم، فجملة {كَمَا ظَنَنْتُمْ} معترضة، فيجوز أن تكون من القول المحكي بقول الجن بعضهم لبعض يشبهون كفارهم بكفار الإنس.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ويجوز أن تكون من كلام الله تعالى المخاطب به المشركون الذي أمر رسوله بأن يقوله لهم.

{أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا} رسولاً إلى خلقه يدعوهم إلى توحيده وما فيه سعادتهم.

أو لن ينشر الله أحداً من قبره للحساب والجزاء. وهذا من قول الله تعالى للإنس.

أي: وأن الجن ظنوا أن لن يبعث الله الخلق كما ظننتم.. وكل هذا توكيد للحجة على قريش؛ أي إذا آمن هؤلاء الجنّ بمحمد، فأنتم أحق بذلك.

والإخبار عن هذا فيه تعريض بالمشركين بأن فساد اعتقادهم تجاوز عالم الإنس إلى عالم الجن.

**وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠)**

{وَأَنَّا لَمَسْنَا} واللمس: حقيقة الجس باليد، ويطلق مجازا على اختبار أمر لأن إحساس اليد أقوى إحساس، فشبه به الاختبار عن طريق الاستعارة.

{السَّمَاءَ} تطلبنا بلوغ السماء، واستماع كلام أهلها كما جرت عادتنا.

{فَوَجَدْنَاهَا} قد {مُلِئَتْ} دليل على أن الحادث هو الملء والكثرة.

{حَرَسًا شَدِيدًا} زيد في حرس السماء حتى امتلأت منها ومنهم.

{وَشُهُبًا} جمع شهاب، وهو القطعة التي تنفصل عن بعض النجوم فتسقط في الجو أو في الأرض أو البحر، وتكون مضاءة عند انفصالها..أي: ورواجم.

ووحد الشديد على لفظ الحرس؛ وهو كما يقال: "السلف الصالح" بمعنى الصالحين، وجمع السلف أسلاف، وجمع الحرس أحراس.

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمدًا –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له أن السماء مُلئَت حرسا شديدًا، وحفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك؛ لئلا



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

يسترقوا شيئا من القرآن. فيلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق. وهذا من لطف الله بخلقه ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز

وبين تعالى المراد بتلك الحراسة بأنه لحفظها عن استراق السمع، كما في قوله: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظاً} [الصافات:٦-٧]، وبين تعالى حالهم قبل ذلك بأنهم كانوا يقعدون منها مقاعد للسمع فيسترقون الكلمة وينزلون بها إلى الكاهن فيكذب معها مائة كذبة، كما بين تعالى أن الشهب تأتيهم من النجوم. كما في قوله تعالى: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ} [الملك:٥].

وقد كانت الكواكب يُرمَى بها قبل ذلك، ولكن ليس بكثير بل في الأحيان بعد الأحيان، كما روى مسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ الْأَنْصَارِ أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا؟) قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، كُنَّا نَقُولُ وُلِدَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ عَظِيمٌ وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (فَإِنَّهَا لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ وَلَكِنْ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ثُمَّ قَالَ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ. قَالَ فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَتَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيَقْذِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ وَيُرْمَوْنَ بِهِ فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ).. وهذا يدل على أن الرجم كان قبل المبعث.

وهذا الكلام توطئة وتمهيد لقولهم بعده:

{وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ} مجاز في ملازمة المكان زمنا طويلا لأن ملازمة المكان من لوازم القعود، ومنه قوله تعالى: {وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} [التوبة:٥].

{مِنْهَا} من السماء {مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ} اللام لام العلة أي لأجل السمع.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أي: كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب. والآن ملئت المقاعد كلها. وهذا ذكر ما حملهم على الضرب في البلاد حتى عثروا على رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- واستمعوا قراءته.

قيل للزهري: أكان يرمى في الجاهلية؟ قال: نعم. قلت: أفرأيت قوله سبحانه: {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً} قال: غلظت وشدد أمرها حين بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

{فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا} كنا نقعد من السماء مقاعد لنستمع ما يحدث، وما يكون فيها، فمن يستمع الآن يجد له شهاب نار قد أرصد له لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يمحقه ويهلكه.

{وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ} أي هذا الحرس الذي حرست بهم السماء.

{أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} يعنون أن ما حدث من منعهم السمع من السماء، ورجم من استمع منهم بالشهب، كانوا يقولون هو لأمر عظيم أراده الله بأهل الأرض، إما عذاب أو رحمة، أي: حتى علموا بعد باستماعهم القرآن، أنه لخير أريد بهم، وذلك بعثة نبيّ مصلح يرشد إلى الحق.

قال الناصر: "ولقد أحسنوا الأدب في ذكر إرادة الشر محذوفة الفاعل. والمراد بالمريد هو الله عز وجل، وإبرازهم لاسمه عند إرادة الخير والرشد".

وقد ورد في الصحيح: (لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ).[مسلم] جريا على واجب الأدب مع الله تعالى في تحاشي إسناد الشر إليه.

وفيه دليل على أن الجن لا تعلم الغيب، وقد صرح تعالى في قوله: {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ} [سبأ:١٤]



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢)

{وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ} المسلمون العاملون بطاعة الله {وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ} قوم دون ذلك، وهم المقتصدون في الصلاح غير الكاملين فيه، أو الكافرون.

{كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا} أهواء مختلفة، وفرقاً شتى.. والطرائق: جمع طريقة، وهي طريقة الرجل ومذهبه. والقدد نحو من الطرائق وهو توكيد لها، وهي الضروب والأجناس المختلفة، جمع قدّة كالقطعة.

وقد كان في الجن من آمن بموسى وعيسى، وأخبر الله عنهم أنهم قالوا: {قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ} [الأحقاف:٣٠] وهذا يدل على إيمان قوم منهم بالتوراة.

والمعنى: أنهم يدعون إخوتهم إلى وحدة الاعتقاد باقتفاء هدى الإسلام، فالخبر مستعمل في التعريض بذم الاختلاف بين القوم وأن على القوم أن يتحدوا ويتطلبوا الحق ليكون اتحادهم على الحق.

وليس المقصود منه فائدة الخبر لأن المخاطبين يعلمون ذلك، والتوكيد ب "أن" متوجهة إلى المعنى التعريضي.

{وَأَنَّا ظَنَنَّا} الظن هنا بمعنى: "العلم واليقين"، وهو خلاف الظن في قوله تعالى: {وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ}.

{أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ} إن أراد بنا سوءاً {وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا} لن نفوته بهرب ولا غيره إن طلبنا لأنا في قبضته وسلطانه.

قال الزمخشريّ: هذه صفة أحوال الجن، وما هم عليه من أحوالهم وعقائدهم، منهم أخيار وأشرار، ومقتصدون، وأنهم يعتقدون أن الله –عز وجل– عزيز غالب لا يفوته مطلب، ولا يُنجي عنه مهرب.

قال ابن عاشور: لما كان شأن الصلاح أن يكون مرضيا عند الله تعالى وشأن ضده بعكس ذلك كما قال تعالى: {وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ} [البقرة:٢٠٥] أعقبوا لتعريض الإقلاع عن ضد الصلاح بما يقتضي أن الله قد أعد لغير الصالحين عقابا



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فأيقنوا أن عقاب الله لا يفلت من أحد استحقه. وقدموه على الأمر بالإيمان الذي في قوله: {وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى} [الجن:١٣] الآية، لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، والتخلية مقدمة على التحلية.

**وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧)**

{وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى} القرآن الذي يهدي إلى الطريق المستقيم {آمَنَّا بِهِ} صدّقنا بأنه حق من عند الله.. يفتخرون بذلك، وهو مفخر لهم، وشرف رفيع وصفة حسنة.

وكان –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مبعوثا إلى الإنس والجن. قال الحسن: "بعث الله محمدا –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إلى الإنس والجن، ولم يبعث الله تعالى قط رسولا من الجن، ولا من أهل البادية، ولا من النساء؛ وذلك قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} [يوسف:١٠٩]

وفي الحديث الصحيح الذي رواه أحمد: (بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ) أي الإنس والجن. وقيل: أي إلى العجم والعرب؛ لأن الغالب على ألوان العجم الحُمْرة والبياض، وعلى ألوان العرب الأدمة والسُّمرة.

{فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا} أن ينقص من حسناته فلا يجازى عليها.

{وَلَا رَهَقًا} والرهق: الإهانة، أي لا يخشى أن يبخس في الجزاء على إيمانه ولا أن يهان وترهقه ذّلة، وتلحقه هيئة معذبة موجبة للخسوء والطرد.. وهذا قول حكاه الله تعالى عن الجن؛ لقوة إيمانهم وصحة إسلامهم.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

يعني: أنه يجزى الجزاء الأوفى، وتكون له في الآخرة العاقبة الحسنى. كقوله تعالى: {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً} [طه:١١٢] أي ولا هضمًا بنقص حسناته. وفهم منه أن من لا يؤمن يهان بالعذاب.

فبعد أن ذكروا قومهم بعذاب الله في الدنيا أو اطمأنوا بتذكر ذلك في نفوسهم، عادوا إلى ترغيبهم في الإيمان بالله وحده، وتحذيرهم من الكفر بطريق المفهوم. وأريد بالهدى القرآن إذ هو المسموع لهم ووصفوه بالهدى للمبالغة في أنه هاد.

{وَأَنَّا مِنَّا} بعد سماع القرآن {الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ} الكافرون الجائرون عن طريق الحق.. أي وإنا بعد استماع القرآن مختلفون، فمنا من أسلم ومنا من كفر.

والقاسط: الجائر، لأنه عادل عن الحق، والمقسط: العادل؛ لأنه عادل إلى الحق؛ يقال: قسط: أي جار، وأقسط: إذا عدل.

{فَمَنْ أَسْلَمَ} أذعن وانقاد {فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا} ترجّوا وتوخوا رشداً عظيماً، وقصدوا صواباً واستقامة. ومنه تحرى القبلة.

{وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ} الجائرون عن طريق الحق والإيمان.

{فَكَانُوا} أي في علم الله تعالى.. أو إقحام فعل "كانوا" لتحقيق مصيرهم إلى النار حتى كأنهم كانوا كذلك من زمن مضى.

{لِجَهَنَّمَ حَطَبًا} توقد وتسعر بهم، كما توقد بكفار الإنس.

وفي الكشاف: أن الحجاج قال لسعيد بن جبير حين أراد قتله ما تقول في؟ قال: «قاسط عادل»، فقال القوم ما أحسن ما قال. حسبوا أنه وصفه بالقسط بكسر القاف والعدل، فقال الحجاج: يا جهلة إنه سماني ظالما مشركا، وتلا لهم قوله تعالى: {وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً} وقوله تعالى: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام: ١].

{وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا} هذا من قول الله تعالى.. والتقدير: وأوحي إلي أنه لو استقام الجن أو الإنس أو كلاهما.

{عَلَى الطَّرِيقَةِ} تمثيل لهيئة المتصف بالسلوك الصالح والاعتقاد الحق بهيئة السائر سيرا مستقيما على طريقة، ولذلك فالتعريف في {الطَّرِيقَةِ} للجنس لا للعهد.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا} الغَدَق: الماء الغزير الكثير. يقال: غدقت العين تغدق، فهي غدقة، إذا كثر ماؤها.

** القول الأول: لو آمن هؤلاء القاسطون والكفار لوسعنا عليهم في الدنيا وبسطنا لهم في الرزق.

كقوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ} [المائدة:٦٦] وكقوله: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} [الأعراف:٩٦]

وإنما تجوز بالماء الغدق –وهو الكثير– عما ذكر؛ لأنه أصل المعاش وسعة الرزق، ولعزة وجوده بين العرب، أو لأن غيره يعلم منه بالأولى فالخير والرزق كله بالمطر، فأقيم مقامه.

{لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} نختبرهم فيما هم فاعلون من شكر النعمة وصرفها فيما يرضي الله أم الطغيان بها ومنع حقها.

كما قال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} [الكهف:٧]

قال عمر في هذه الآية: "أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة".

** والقول الثاني: قول أبي مِجلز لاحق بن حُمَيد: {وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ} الضلالة {لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا} أي: لأوسعنا عليهم الرزق استدراجا، كما قال تعالى:

{فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} [الأنعام:٤٤] وكقوله: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون:٥٥–٥٦]

{وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ} عبادته أو موعظته.. أو القرآن، وفي إعراضه عنه وجهان: أحدهما عن القبول، إن قيل إنها في أهل الكفر. الثاني عن العمل، إن قيل إنها في المؤمنين.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{يَسْلُكْهُ} ندخله، فالسلك: حقيقته الإدخال. واستعمل السلك هنا في معنى شدة وقوع الفعل. والمعنى: نعذبه عذابا لا مصرف عنه.

وقرأ الجمهور {نسلكه} بنون العظمة ففيه التفات، وقرأه عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف {يسلكه} بياء الغائب فالضمير المستتر يعود إلى ربه.

{عَذَابًا صَعَدًا} شديداً شاقاً.. وصف به العذاب لأنه يتصعد المعذب، أي: يعلوه ويغلبه فلا يطيقه.

## وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩)

{وَأَنَّ} قل أوحي إلي أن {الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ} مختصة به، والمسجد عرفا كل ما خصص للصلاة، وهو المراد بالإضافة هنا لله تعالى وهي إضافة تشريف وتكريم مع الإشعار باختصاصها بالله أي بعبادته وذكره.

كما قال تعالى: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ} [النور:٣٦-٣٧].

عن ابن عباس في قوله: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} قال: لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام، ومسجد إيليا: بيت المقدس.

ولهذا منعت من اتخاذها لأمور الدنيا من بيع وتجارة كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي المَسْجِدِ، فَقُولُوا: لَا أَرْبَحَ اللَّهُ تِجَارَتَكَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَنْشُدُ فِيهِ ضَالَّةً، فَقُولُوا: لَا رَدَّ اللَّهُ عَلَيْكَ) [النسائي والترمذي وحسنه].

وكذلك إنشاد الضالة لقوله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– (مَنْ سَمِعَ رَجُلًا يَنْشُدُ ضَالَّةً فِي الْمَسْجِدِ فَلْيَقُلْ: لَا رَدَّهَا اللَّهُ عَلَيْكَ. فَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهَذَا) [مسلم].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وفي حديث الأعرابي الذي بال في المسجد قال له –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلَا الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ) [مسلم]

وفي رواية: (إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُتَّخَذْ لِهَذَا الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ)

وفي موطأ مالك أن عمر –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– بنى رحبة في ناحية المسجد تسمى «البطحاء» وقال من كان يريد أن يلغط أو ينشد شعرا أو يرفع صوته فليخرج إلى هذه الرحبة.. واللغط هو الكلام الذي فيه جلبة واختلاط.

** مع أن المساجد لله لا يذكر فيها إلا الله فإنه تجوز القسمة فيها للأموال. ويجوز وضع الصدقات فيها على رسم الاشتراك بين المساكين وكل من جاء أكل. ويجوز حبس الغريم فيها، وربط الأسير والنوم فيها، وسكنى المريض فيها، وفتح الباب للجار إليها، وإنشاد الشعر فيها إذا عري عن الباطل.

{فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} فلا تعبدوا فيها غيره. الفاء للتفريع.

تعريض بما كان عليه المشركون من عبادتهم غيره تعالى بمسجده الحرام، ونصبهم في التماثيل والأنصاب، وبما عليه أهل الكتاب، فإن المساجد لم تُشَدْ إلا ليذكر فيها اسمه تعالى وحده. ومن هنا ذهبت الحنابلة إلى أنه لا يجتمع في دين الله مسجد وقبر، وأن أيهما طرأ على الآخر وجب هدمُه.

{وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ} محمد –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، عدل عن الاسم الظاهر لقصد تكريم النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بوصف {عَبْدُ اللَّهِ} لما في هذه الإضافة من التشريف، كما في قوله: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} [الإسراء: ١].

{يَدْعُوهُ} يعبد ربه {كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} جمع لبدة، وهو ما تلبد بعضه على بعض، ومنها لبدة الأسد.. أي: جماعات بعضها فوق بعض، تعجباً مما رأوه من عبادته، واقتداء أصحابه به، وإعجاباً بما تلا من القرآن، لأنهم رأوا ما لم يروا مثله، وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره.

فالضمير في {كَادُوا} للجن، وقد بيّن ذلك حديث البخاري كما تقدم.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وجوّز رجوعه للمشركين بمكة. والمعنى: لما قام رسولاً يعبد الله وحده، مخالفاً للمشركين في عبادتهم الآلهة من دونه، كاد المشركون لتظاهرهم عليه، وتعاونهم على عداوته، يزدحمون عليه متراكمين.

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤)

{قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي} أعبده، وأبتهل إليه وحده {وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا} تأكيد.. أي: فليس ذلك ببدع ولا منكر يوجب تعجبكم، أو إطباقكم على مقتي.

{قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا} لأن ذلك لله تعالى وحده، فلا تستعجلوني بالعذاب.

{قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ} إن أراد بي سوءاً {وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} ملتجأ إن أهلكني، أو لن أجد مكانا يعصمني. وأصله: المدخل من اللحد.

{إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ} استثناء من قوله: {لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا} فإن التبليغ إرشاد ونفع. فهو متصل، وما بينهما اعتراض مؤكد لنفي الاستطاعة.

أي: لا أملك إلا التبليغ، والرسالات من معاني الوحي، وأحكام الحق.

{وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} فلم يسمع ما جاء به، ولم يقبل ما يبلغه. {فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا} وجمع "خالدين" لأن المعنى لكل من فعل ذلك، فوحد أولا للفظ "من" ثم جمع للمعنى. {أَبَدًا} دليل على أن العصيان هنا هو الشرك

{حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ} في الرسالات الإلهية، من الظهور عليهم والفتح، أو العذاب الأخروي {فَسَيَعْلَمُونَ} حينئذ {مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا} أي: أجند الرحمن من المؤمنين أو إخوان الشياطين من الكافرين.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨)

{قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ} يعني قيام الساعة. وقيل: عذاب الدنيا؛ أي لا أدري "فإن" بمعنى "ما" أو "لا"؛ أي لا يعرف وقت نزول العذاب، ووقت قيام الساعة إلا الله؛ فهو غيب لا أعلم منه إلا ما يعرفنيه الله.

{أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا} أجلا وغاية تطول مدتها.

روى أحمد عن أبي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ، صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ وَهُوَ بِالْفُسْطَاطِ [الخيمة، والمراد أنه خرج مع أهل الغزو] فِي خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ، وَكَانَ مُعَاوِيَةُ أَغْزَى النَّاسَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ، فَقَالَ: (وَاللهِ لَا تَعْجِزُ هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ نِصْفِ يَوْمٍ) إِذَا رَأَيْتَ الشَّامَ مَائِدَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ [أي: من المسلمين، وذلك بأن يكون أميراً فيه، والمراد إذا كان أمير الشام من المسلمين] وَأَهْلِ بَيْتِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ فَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ " [إسناده على شرط مسلم]

وروى أبو داود في آخر «كتاب الملاحم» عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَنْ يُعْجِزَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ مِنْ نِصْفِ يَوْمٍ» [أبو داود وصححه الألباني]

قال عبد المحسن العباد في «شرح سنن أبي داود»: ونصف اليوم هو خمسمائة سنة، قال تعالى: {وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} [الحج:٤٧]، فنصفها خمسمائة سنة، فمن العلماء من قال: إن المقصود من ذلك أنه يؤخرها إلى خمسمائة سنة، ولذلك أورده أبو داود هذا الحديث في: «باب قيام الساعة»، ومعناه: أن الساعة قد تقوم بعد خمسمائة سنة، والمراد أنهم لا بدَّ يدركون نصفه، والمقصود بقاؤهم هذا المقدار، وليس فيه نفي الزيادة على ذلك. وهم اليوم زادوا على ضعف ذلك.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ومن العلماء من قال: إن معناه يتعلق بالفقراء الذين لن يحاسبوا ويدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام والتي هي نصف يوم، فهو لن يعجز الله.

فقوله: (لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم) المقصود بذلك: أن يؤخر الأغنياء عن دخول الجنة، وأن يمهلهم للحساب، ويدل عليه ما جاء في الحديث الذي فيه أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة سنة، فهو يبين معنى هذا الحديث، وأنه ليس المقصود بأن الدنيا تنتهي بعد خمسمائة سنة، لأنه مضى على هذا الحديث ألف وأربعمائة وزيادة، يعني: خمسمائة وخمسمائة والخمسمائة الثالثة هي الآن في خمسها الأخير، فإذاً: الذي يبدو أنه كما قال بعض أهل العلم: إن المقصود من ذلك تأخير الأغنياء في الحساب، فيتأخرون عن الفقراء الذين لا حساب عليهم، ويسبقونهم في دخول الجنة بهذه المدة التي هي خمسمائة سنة أو نصف يوم.

وفي رواية لأبي داود عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ (إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا تَعْجِزَ أُمَّتِي عِنْدَ رَبِّهَا أَنْ يُؤَخِّرَهُمْ نِصْفَ يَوْمٍ) قِيلَ لِسَعْدٍ وَكَمْ نِصْفُ ذَلِكَ الْيَوْمِ قَالَ خَمْسُ مِائَةِ سَنَةٍ. [صححه الألباني]

يعني: الأغنياء منهم يؤخرهم في الحساب نصف يوم، وهو خمسمائة سنة، أي: أن الأغنياء يتأخر دخولهم عن الفقراء بنصف يوم؛ لأن هؤلاء الفقراء يدخلون قبلهم لأنه لا حساب عليهم، وأما الأغنياء فإنهم يحاسبون على أموالهم ما دخل وما خرج منها.

{عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا} والغيب ما غاب عن العباد.

{إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} قال الزمخشري: يعني أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذي هو مصطفى للنبوة خاصة، لا كل مرتضى.

أي: إلا رسولاً قد ارتضاه لعلم بعض الغيب، ليكون إخباره عن الغيب معجزة له، فإنه يطلعه على ما يشاء من غيبه: ليكون ذلك دالا على نبوته.

وهذه كقوله تعالى: {وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ} [البقرة:٢٥٥]



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ} كناية عن جميع الجهات {رَصَدًا} حرساً من الملائكة يحفظونه من تخاليط الشياطين ووساوسهم، حتى يبلغ ما أمر به من غيبه ووحيه.

قال العلماء رحمة الله عليهم: لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه، ثم استثنى من ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم. وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر في الكتب ويزجر بالطير ممن ارتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه، بل هو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه.

وقيل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– لما أراد لقاء الخوارج: أتلقاهم والقمر في العقرب؟ فقال –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: فأين قمرهم؟ وكان ذلك في آخر الشهر. فانظر إلى هذه الكلمة التي أجاب بها، وما فيها من المبالغة في الرد على من يقول بالتنجيم، والإفحام لكل جاهل يحقق أحكام النجوم.

وقال له مسافر بن عوف: يا أمير المؤمنين! لا تسر في هذه الساعة وسر في ثلاث ساعات يمضين من النهار. فقال له علي –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: ولم؟ قال: إنك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك بلاء وضر شديد، وإن سرت في الساعة التي أمرتك بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت. فقال علي –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: ما كان لمحمد –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– منجم، ولا لنا من بعده –من كلام طويل يحتج فيه بآيات من التنزيل– فمن صدقك في هذا القول لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله ندا أو ضدا، اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك. ثم قال للمتكلم: نكذبك ونخالفك ونسير في الساعة التي تنهانا عنها.

ثم أقبل على الناس فقال: يا أيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلا ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر؛ وإنما المنجم كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار، والله لئن بلغني أنك تنظر في النجوم وتعمل بها لأخلدنك في الحبس ما بقيت وبقيت، ولأحرمنك العطاء ما كان لي سلطان.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ثم سافر في الساعة التي نهاه عنها، ولقي القوم فقتلهم في وقعة النهروان الثابتة في الصحيح لمسلم.

ثم قال: لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها وظفرنا وظهرنا لقال قائل سار في الساعة التي أمر بها المنجم، ما كان لمحمد –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– منجم ولا لنا من بعده، فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر وسائر البلدان – ثم قال: يا أيها الناس! توكلوا على الله وثقوا به؛ فإنه يكفي ممن سواه.

{لِيَعْلَمَ} قال قتادة ومقاتل: أي ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو الرسالة. وفيه حذف يتعلق به اللام؛ أي أخبرناه بحفظنا الوحي ليعلم أن الرسل قبله كانوا على مثل حالته من التبليغ بالحق والصدق.. واختاره ابن جرير.

وقيل: ليعلم الله ذلك علم مشاهدة كما علمه غيبا.

{أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ} وإيراد علمه تعالى للعناية بأمر الإبلاغ، والإشعار بترتيب الجزاء عليه، والمبالغة في الحث عليه، والتحذير عن التفريط فيه.

{وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ} أي أحاط علمه بما عندهم، أي بما عند الرسل وما عند الملائكة.

{وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} أي أحاط بعدد كل شيء وعرفه وعلمه فلم يخف عليه منه شيء

فرداً فرداً لسعة علمه. تقرير ثان لإحاطته بما عند الرسل من وحيه وكلامه، ووعد ووعيد كما عرف من نظائره.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بسم الله الرحمن الرحيم

# مع سورة المزمل

قال أهل التفسير: ومن أغراض السورة أن أعمال النهار لا يغني عنها قيام الليل. وأن في هذه السورة مواضع عويصة وأساليب غامضة فعليك تدبرها.

وأن القرآن الذي أنزل أولا أكثره إرشاد للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلى طرائق دعوة الرسالة، فلذلك كان غالب ما في السور الأول منه مقتصرا على سَن التكاليف الخاصة بالرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

## يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)

{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ} أي: المتزمل. من تزمل بثيابه إذا تلفف بها. فأدغم التاء في الزّاي؛ وهو مثل «المدثر» في مآل المعنى، وإن كان بينهما اختلاف في أصل الاشتقاق: فالتزمل مشتق من معنى التلفف لمريد النوم، والتدثر مشتق من معنى اتخاذ الدثار للتدفؤ.

خوطب -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بحكاية حاله وقت نزول الوحي، ملاطفة وتأنيساً وتنشيطاً للتشمر لقيام الليل.

والأصل في النداء أن يكون باسم المنادى العلم إذا كان معروفا عند المتكلم، فلا يعدل من الاسم العلم إلى غيره من وصف أو إضافة إلا لغرض يقصده البلغاء من تعظيم وتكريم نحو: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ} [الأنفال:٦٤]، أو تلطف وتقرب نحو: "يا بني و يا أبت"، أو قصد تهكم نحو: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [الحجر:٦]

فإذا نودي المنادي بوصف هيئته من لبسة أو جلسة أو ضجعة كان المقصود في الغالب التلطف به والتحبب إليه ولهيئته، ومنه قول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

لعلي بن أبي طالب –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– وقد وجده مضطجعا في المسجد وقد علق تراب المسجد بجنبه: (قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ) [البخاري] وقوله لحذيفة بن اليمان –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– يوم الخندق (قُمْ يَا نَوْمَانُ) [مسلم]، وقوله لعبد الرحمن بن صخر الدوسي وقد رآه حاملا هرة صغيرة في كمه، (يا أبا هريرة).

فنداء النبي بـ {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ} ناء تلطف وارتفاق، ومثله قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} [المدثر:١].

وهذا التزمل الذي أشارت إليه الآية، قال الزهري وجمهور المفسرين: إنه التزمل الذي جرى في قول النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (زملوني زملوني) حين نزل من غار حراء بعد أن نزل عليه: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} [العلق:١] الآيات كما في حديث عروة عن عائشة في كتاب بدء الوحي من صحيح البخاري، وإن لم يذكر في ذلك الحديث نزول هذه السورة حينئذ.

{قُمِ اللَّيْلَ} فيه للصلاة، ودع التزمُّل للهجوع.

وكذلك كان رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ممتثلا ما أمره الله تعالى به من قيام الليل، وقد كان واجبًا عليه وحده، كما قال تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء:٧٩]

فكان هذا حكما خاصا بالنبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وقد ذكره الفقهاء في باب خصائص النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ولم يكن واجبا على غيره، ولم تفرض على المسلمين صلاة قبل الصلوات الخمس. وإنما كان المسلمون يقتدون بفعل النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وهو يقرهم على ذلك، فكانوا يرونه لزاما عليهم، وقد أثنى الله عليهم بذلك في آيات كثيرة، كقوله تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ} [السجدة:١٦]

{إِلَّا قَلِيلًا} بحكم الضرورة للاستراحة، ومصالح البدن التي لا يمكن بقاؤه بدونها.. ثم بيّن تعالى قدر القيام مخيراً له بقوله:

{نِصْفَهُ} نصف الليل {أَوِ انْقُصْ مِنْهُ} من النصف {قَلِيلًا} إلى الثلث، وفائدة الإيماء إلى أن الأولى أن يكون القيام أكثر من مدة نصف الليل



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{أَوْ زِدْ عَلَيْهِ} النصف إلى الثلثين، والمقصود التخيير بين قيام النصف وما فوقه وما دونه.

وقوله {أَوْ زِدْ عَلَيْهِ} هو عود إلى الترغيب في أن تكون مدة القيام أكثر من نصف الليل ولذلك لم يقيد {أَوْ زِدْ عَلَيْهِ} بمثل ما قيد به {أَوِ انْقُصْ مِنْهُ} لتكون الزيادة على النصف متسعة، وقد ورد في الحديث أن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أخذ بالعزيمة فقام حتى تورمت قدماه.

{وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} والترتيل: جعل الشيء مرتلا، أي مفرقا، وأصله من قولهم: «ثغر مرتل»، وهو المفلج الأسنان، أي المفرق بين أسنانه تفريقا قليلا بحيث لا تكون النواجذ متلاصقة.. وأريد بترتيل القرآن ترتيل قراءته، أي التمهل في النطق بحروف القرآن حتى تخرج من الفم واضحة مع إشباع الحركات التي تستحق الإشباع.

قال الزمخشري: "ترتيل القرآن قراءته على ترسل وتؤده، بتبيين الحرف، وإشباع الحركات، حتى يجيء المتلوّ منه شبيهاً بالثغر المرتل، وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان، وأن لا يهذّه هذّاً، ولا يسرده سرداً".

وفائدة هذا أن يرسخ حفظه ويتلقاه السامعون فيعلق بحوافظهم، ويتدبر قارئه وسامعه معانيه كي لا يسبق لفظ اللسان عمل الفهم.

وقد ثبت في السُّنة أنه –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– (كان يقطع قراءته آية آية، وأنها كانت مفسرة حرفاً حرفاً، وأنه كان يقف على رؤوس الآي).

قالت عائشة: "كان يقرأ السورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها".

وعَنْ حَفْصَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: "مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– صَلَّى فِي سُبْحَتِهِ قَاعِدًا حَتَّى كَانَ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِعَامٍ فَكَانَ يُصَلِّي فِي سُبْحَتِهِ قَاعِدًا وَكَانَ يَقْرَأُ بِالسُّورَةِ فَيُرَتِّلُهَا حَتَّى تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ أَطْوَلَ مِنْهَا" [مسلم]

وفي صحيح البخاري، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: سُئِلَ أَنَسٌ كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–؟ فَقَالَ كَانَتْ مَدًّا ثُمَّ قَرَأَ {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} يَمُدُّ بِبِسْمِ اللَّهِ وَيَمُدُّ بِالرَّحْمَنِ وَيَمُدُّ بِالرَّحِيمِ.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّهَا سُئِلَتْ عَنْ قِرَاءَةِ رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–؟، فَقَالَتْ: "كَانَ يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ آيَةً آيَةً: {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [الفاتحة:١] {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة:٢] {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [الفاتحة:١] {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} " [أحمد]

وقال الإمام أحمد: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْقَ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا).

واستدل بالآية على أن الترتيل والتدبُّر، مع قلة القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها، لأن المقصود من القرآن فهمه وتدبُّره، والفقه فيه، والعمل به.

قال ابن مسعود: "لا تهذُّوا القرآن هذَّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هَمّ أحدكم آخر السورة".

وفي البخاري عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا وَائِلٍ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: قَرَأْتُ الْمُفَصَّلَ اللَّيْلَةَ فِي رَكْعَةٍ. فَقَالَ: هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ. لَقَدْ عَرَفْتُ النَّظَائِرَ الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقْرُنُ بَيْنَهُنَّ فَذَكَرَ عِشْرِينَ سُورَةً مِنْ الْمُفَصَّلِ سُورَتَيْنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ.

وقوله: "هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ" لأنهم كانوا إذا أنشدوا القصيدة أسرعوا ليظهر ميزان بحرها، وتتعاقب قوافيها على الأسماع. والهذ: إسراع القطع.

وفي هذه الآية الكريمة وما بعدها بيان لمجمل قوله تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ} [الإسراء:٧٩].

وفيها بيان لكيفية القيام وهو بترتيل القرآن وفيها رد على مسألتين اختلف فيهما الأولى منهما: عدد ركعات قيام الليل أهو ثماني ركعات أو أكثر؟

وقد خير –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بين هذه الأزمنة من الليل فترك ذلك لنشاطه واستعداده وارتياحه فلا يمكن التعبد بعدد لا يصح دونه ولا يجوز تعديه، واختلف في قيام رمضان خاصة، والأولى أن يؤخذ بما ارتضاه السلف، ولأكثر من ألف عام في مسجد النبي –عليه السلام– قد استقر العمل على عشرين ركعة في رمضان.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

والمسألة الثانية: ما يذكره الفقهاء في كيفية قيام الليل عامة: هل الأفضل كثرة الركعات لكثرة الركوع والسجود، وحيث إن أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد؟ أم طول القيام للقراءة حيث إن للقارئ بكل حرف عشر حسنات فهنا قوله تعالى: {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً}؟، نص على أن العبرة بترتيل القرآن ترتيلا وأكد بالمصدر تأكيدا لإرادة هذا المعنى. وتقدم قول أنس وأم سلمة وابن مسعود رضي لله عنهم أجمعين.

## إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧)

{إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ} تعليل للأمر بقيام الليل، وبيانيا لحكمة الأمر بقيام الليل بأنها تهيئة نفس النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ليحمل شدة الوحي، وفي هذا إيماء إلى أن الله يسر عليه ذلك كما قال تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} [القيامة:١٧]، فتلك مناسبة وقوع هذه الجملة عقب جملة: {قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً} فهذا إشعار بأن نزول هذه الآية كان في أول عهد النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بنزول القرآن، فلما قال له: {وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً} أعقب ببيان علة الأمر بترتيل القرآن.

{قَوْلًا} القرآن {ثَقِيلًا} الثقل الموصوف به القول ثقل مجازي لا محالة.

* قولا ثقيلا: أي قولا رصيناً، لرزانة لفظه، ومتانة معناه، ورجحانه فيهما على ما عداه. ولما كان الراجح من شأنه ذلك، تجوّز بالثقيل عنه.. أو ثقيلاً على المتأمّل فيه، لافتقاره إلى مزيد تصفيه للسر وتجريد للنظر.

فيستعار ثقل القول لاشتماله على معان وافرة يحتاج العلم بها لدقة النظر، وذلك بكمال هديه ووفرة معانيه.

قال الفراء: "ثقيلا ليس بالكلام السفساف". وحسبك أنه حوى من المعارف والعلوم ما لا يفي العقل بالإحاطة به، فكم غاصت فيه أفهام العلماء من فقهاء ومتكلمين وبلغاء ولغويين وحكماء، فشابه الشيء الثقيل في أنه لا يقوى الواحد على الاستقلال بمعانيه.

* أو قولا ثقيلا في وزن الثواب.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

* أو ثقيلا في التكاليف به.. قال ابن كثير: قال الحسن، وقتادة: أي العمل به.

فمن جانب تكاليفه فقد ثقلت على السماوات والأرض والجبال وأشفقن منها كما هو معلوم، ومن جانب ثوابه فقد جاء في حديث مسلم (الحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض). وحديث البطاقة.. وكل ذلك يشهد بعضه لبعض ولا ينافيه.

* أو ثقيلاً تلقّيه، فقيل: ثقيلٌ وقت نزوله؛ من عظمته.

كَمَا قَالَ زَيْدُ بْنُ ثابت –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: "أُنزل عَلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَفَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي، فَكَادَتْ تَرُضُّ فَخِذِي" [أي تتكسر]

وفي أول صحيح البخاري عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا– أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ) قَالَتْ عَائِشَةُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا.

وروى أحمد عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: "إِنْ كَانَ لَيُوحَى إِلَى رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَتَضْرِبُ بِجِرَانِهَا" [حسن].. الجران: باطن العنق.

وأخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» من طريق عبد الرحمن بن أبي الزِّناد، بلفظ: فتضرب على جِرانها من ثقل ما يُوحى إلى رسول الله –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وإن كان جبينه ليطف بالعرق في اليوم الشاتي إذا أوحى الله إليه.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن مَعْمَر، عن هشام بن عروة، عن أبيه؛ أن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته، وضعت جرانها، فما تستطيع أن تحرك حتى يُسَرّى عنه. وهذا مرسل.

وقد بين تعالى أن هذا الثقل قد يخففه الله على المؤمنين كما في الصلاة في قوله {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

[البقرة:٤٥-٤٦]، وكذلك القرآن ثقيل على الكفار خفيف على المؤمنين محبب إليهم.

وقد جاء في الآثار أن بعض السلف كان يقوم الليل كله بسورة من سور القرآن تلذذا وارتياحا، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ} [القمر:١٧]، فهو ثقيل في وزنه ثقيل في تكاليفه، ولكن يخففه الله وييسره لمن هداه ووفقه إليه.

{إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ} ما تنشأه من قيام الليل. أو ساعاته وأوقاته، وكل ساعة منه تسمى ناشئة.

تعليل لتخصيص زمن الليل بالقيام فيه فهي مرتبطة بجملة {قُمْ اللَّيْلَ}، أي قم الليل لأن ناشئته أشد وطئا وأقوم قيلا. والمعنى: أن في قيام الليل تزكية وتصفية لسرك وارتقاء بك إلى المراقي الملكية.

{هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا} أشد مواطأة للقلب وموافقة لما يراد منها من جمع الهم، وهدوء البال.

والمعنى: أن صلاة الليل أوفق بالمصلي بين اللسان والقلب، أي بين النطق بالألفاظ وتفهم معانيها للهدوء الذي يحصل في الليل وانقطاع الشواغل.

{وَأَقْوَمُ} الأفضل في التقوي الذي هو عدم الاعوجاج والالتواء واستعير {أقوم} للأفضل الأنفع.

{قِيلًا} في التلاوة والتدبر والتأمل وبالتالي بالتأثر.. ففيه إرشاد إلى ما يقابل هذا الثقل فيما سيلقى عليه من القول فهو بمثابة التوجيه إلى ما يتزود به لتحمل ثقل أعباء الدعوة والرسالة.

والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، وأجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس ولَغَط الأصوات وأوقات المعاش.

قال ابن قتيبة: لأن الليل تهدأ فيه الأصوات، وتنقطع فيه الحركات، ويخلص القول، ولا يكون دون تسمّعه وتفهمه حائل.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال أهل العلم: لا يثبت القرآن في الصدر ولا يسهل حفظه وييسر فهمه إلا القيام به من جوف الليل.

ونقل السيوطي عن الجاحظ قال: ناشئة الليل هي المعاني المستنبطة من القرآن بالليل، أشد وطأً أبين أثراً. وأقوم قيلاً، أصحُّ مما تخرجه الأفكار بالنهار، لخلوّ السمع والبصر عن الاشتغال.

{إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا} تقلباً في مهماتك، واشتغالاً بها، فلذا أمرت بقيام الليل.

والسبح: أصله العوم، أي السلوك بالجسم في ماء كثير، وهو مستعار هنا للتصرف السهل المتسع الذي يشبه حركة السابح في الماء فإنه لا يعترضه ما يعوق جولانه على وجه الماء ولا إعياء السير في الأرض.

## وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠)

{وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ} دم على ذكره ليلاً ونهاراً.. وانقطع إليه، وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك، وما تحتاج إليه من أمور دنياك، كما قال: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ} [الشرح:٧] أي: إذا فرغت من مهامك فانصب في طاعته وعبَادَته، لتكون فارغ البال.

قال الزمخشري: وذكر الله يتناول كل ما كان من ذكرٍ طيب: تسبيح وتهليل وتكبير وتمجيد وتوحيد وصلاة وتلاوة قرآن، ودراسة علم، وغير ذلك مما كان رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يستغرق به ساعات ليله ونهاره.

وقصد بإطلاق الأمر عن تعيين زمان إلى إفادة تعميمه، أي ذكر اسم ربك في الليل وفي النهار، كقوله: {وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} [الإنسان:٢٥].

وإقحام كلمة {اسم} لأن المأمور به ذكر اللسان وهو الجامع للتذكر بالعقل لأن الألفاظ تجري على حسب ما في النفس، ألا ترى إلى قوله تعالى: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ} [الأعراف:٢٠٥].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَتَبَتَّلْ} والتبتل: الانقطاع وهو هنا انقطاع مجازي، أي تفرغ البال والفكر إلى ما يرضي الله، فكأنه انقطع عن الناس وانحاز إلى جانب الله فعدي بـ "إلى" الدالة على الانتهاء.

قال ابن جرير: يقال للعابد: متبتل، ومنه الحديث المروي: "أنه نهى عن التَّبتُّل"، يعني: الانقطاع إلى العبادة وترك التزوج.

{إِلَيْهِ تَبْتِيلًا} أخلص إليه بتجريد النفس عن غيره، إخلاصاً عظيماً.. فالجمع بين {تبتل} و {تبتيلا} مشير إلى إراضة النفس على ذلك التبتل. وفيه مع ذلك وفاء برعي الفواصل التي قبله.

والمراد بالانقطاع المأمور به انقطاع خاص وهو الانقطاع عن الأعمال التي تمنعه من قيام الليل ومهام النهار في نشر الدعوة ومحاجة المشركين، ولذلك قيل {وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ} أي إلى الله، فكل عمل يقوم به النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– من أعمال الحياة فهو لدين الله فإن طعامه وشرابه ونومه وشؤونه للاستعانة على نشر دين الله. وكذلك منعشات الروح البريئة من الإثم مثل الطيب، وتزوج النساء، والأنس إلى أهله وأبنائه وذويه، وقد قال –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (إِنَّمَا حُبِّبَ إِلِيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ) [البيهقي في سننه، وصححه الألباني في صحيح الجامع].

وليس هو التبتل المفضي إلى الرهبانية وهو الإعراض عن النساء وعن تدبير أمور الحياة لأن ذلك لا يلاقي صفة الرسالة.

وفي حديث سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ يَقُولُ: رَدَّ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ التَّبَتُّلَ وَلَوْ أَذِنَ لَهُ لَاخْتَصَيْنَا [البخاري ومسلم] يعني رد عليه استشارته في الإعراض عن النساء.

ومن أكبر التبتل إلى الله الانقطاع عن الإشراك، وهو معنى الحنيفية، ولذلك عقب قوله: {وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً} بقوله: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}.

{رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} ووصف الله بأنه {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} لمناسبة الأمر بذكره في الليل وذكره في النهار، وهما وقتا ابتداء غياب الشمس وطلوعها، وذلك يشعر بامتداد كل زمان منهما إلى أن يأتي ضده؛ فيصح أن يكون المشرق



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

والمغرب جهتي الشروق والغروب فيكون لاستيعاب جهات الأرض، أي رب جميع العالم وذلك يشعر بوقتي الشروق والغروب.

ويصح أن يراد بهما وقتا الشروق والغروب أي مبدأ ذينك الوقتين ومنتهاهما، كما يقال: سبحوا الله كل مشرق شمس، وكما يقال: صلاة المغرب.

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} الإخبار عنه أو بوصفه بأنه {لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} لأن تفرده بالإلهية بمنزلة النتيجة لربوبية المشرق والمغرب، فلما كانت ربوبيته للعالم لا ينازع فيها المشركون أعقبت بما يقتضي إبطال دعوى المشركين تعدد الآلهة بقوله: {لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} تعريضا بهم في أثناء الكلام، وإن كان الكلام مسوقا إلى النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. ولذلك فرع عليه قوله:

{فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} فهو المالك المتصرف في المشارق والمغارب لا إله إلا هو، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل، وأن تكل إليه مهامك، فإنه سيكفيكها. كما قال في الآية الأخرى: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} [هود:١٢٣]

وإذا كان الأمر باتخاذ وكيلا مسببا عن كونه «لا إله إلا هو» كان ذلك في قوة النهي عن اتخاذ وكيل غيره، إذ ليس غيره بأهل لاتخاذه وكيلا.

والوكيل: الذي يوكل إليه الأمور، أي يفوض إلى تصرفه، ومن أهم التفويض أمر الانتصار لمن توكل عليه، وهذا تكفل بالنصر ولذلك عقب بقوله:

{وَاصْبِرْ} والمناسبة أن الصبر على الأذى يستعان عليه بالتوكل على الله.

{عَلَى مَا يَقُولُونَ} من الأذى والفَرْي.. عائد إلى المشركين.

وقد مضى في السور التي نزلت قبل سورة المزمل مقالات أذى من المشركين لرسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ففي سورة العلق: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى، عَبْدًا إِذَا صَلَّى} [٩-١٠]. قيل هو أبو جهل تهدد رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لئن صلى في المسجد الحرام ليفعلن ويفعلن.

وفيها: {إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى} [العلق: ٦-٧]. قيل هو الأخنس بن شريق تنكر لرسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بعد أن كان حليفه.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وفي سورة القلم: {مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ} إلى قوله: {فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ، بِأَيِّيكُمْ الْمَفْتُونُ}، وقوله: {وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ} إلى قوله: {قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} [القلم:٢-١٥] ردا لمقالاتهم.

وفي سورة المدثر [١١-٢٥] إن كانت نزلت قبل سورة المزمل: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا} إلى قوله: {إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ}، قيل: قائل ذلك الوليد بن المغيرة.

فلذلك أمر الله رسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالصبر على ما يقولون.

{وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} وهو الذي لا عتاب معه، والإعراض عن مكافأتهم بالمثل، كما قال تعالى: {وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} [الأحزاب:٤٨]

والهجر الجميل: هو «الحسن في نوعه»، فإن الأحوال والمعاني منها حسن ومنها قبيح في نوعه، وقد يقال: كريم، وذميم، وخالص، وكدر، ويعرض الوصف للنوع بما من شأنه أن يقترن به من عوارض تناسب حقيقة النوع فإذا جردت الحقيقة عن الأعراض التي قد تتعلق بها كان نوعه خالصا، وإذا ألصق بالحقيقة ما ليس من خصائصها كان النوع مكدرا قبيحا، وقد أشار إلى هذا قوله تعالى: {لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى} [البقرة:٢٦٤]. وقوله تعالى: {إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ}[النمل:٢٩]، ومن هذا المعنى قوله: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} [يوسف:١٨]، وقوله: {فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً} [المعارج:٥].

فالهجر الجميل هو الذي يقتصر صاحبه على حقيقة الهجر، وهو ترك المخالطة فلا يقرنها بجفاء آخر أو أذى، ولما كان الهجر ينشأ عن بغض المهجور، أو كراهية أعماله كان معرضا لأن يتعلق به أذى من سب أو ضرب أو نحو ذلك. فأمر الله رسوله بهجر المشركين هجرا جميلا، أي أن يهجرهم ولا يزيد على هجرهم سبا أو انتقاما.

وهذا الهجر: هو إمساك النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن مكافاتهم بمثل ما يقولونه مما أشار إليه قوله تعالى: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ}.

وليس منسحبا على الدعوة للدين فإنها مستمرة ولكنها تبليغ عن الله تعالى فلا ينسب إلى النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (١٤)

{وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ} دعني وإياهم، أي لا تهتم بتكذيبهم ولا تشتغل بتكرير الرد عليهم ولا تغضب ولا تسبهم، وكِل أمرهم إليّ، فإن بي غنيمة عنك في الانتقام منهم.

والمكذبون هم من عناهم بضمير {يقولون} و {اهجرهم}، وهم المكذبون للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من أهل مكة، فهو إظهار في مقام الإضمار لإفادة أن التكذيب هو سبب هذا التهديد.

{أُولِي النَّعْمَةِ} المتنعمين المترفين أصحابَ الأموال، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم، يريد صناديد قريش ومترفيهم.

وفي هذا الوصف تعريض بالتهكم، لأنهم كانوا يعدون سعة العيش ووفرة المال كمالا، وكانوا يعيرون الذين آمنوا بالخصاصة.

و {النَّعْمَةِ} اسم للترفه، وجمعها أَنعُم. وأما النِعْمة فاسم للحالة الملائمة لرغبة الإنسان من عافية وأمن ورزق، ونحو ذلك من الرغائب. وجمعها: نِعَم.

وجعلهم ذوي النَعمة للإشارة إلى قصارى حظهم في هذه الحياة هي النَعمة، أي الانطلاق في العيش بلا ضيق، والاستظلال بالبيوت والجنات، والإقبال على لذيذ الطعوم ولذائذ الانبساط إلى النساء والخمر والميسر، وهم معرضون عن كمالات النفس ولذة الاهتداء والمعرفة، قال تعالى: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً} [الفرقان: ٤٤] وتعريف {النَعمة} للعهد.

{وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا} تمهل عليهم زماناً، أو إمهالاً قليلاً. كما قال: {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} [لقمان: ٢٤]؛ ولهذا قال هاهنا:

{إِنَّ} نون العظمة {لَدَيْنَا أَنْكَالًا} قيوداً ثقالا {وَجَحِيمًا} نار شديدة الحرّ والاتّقاد.

{وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ} يغصُّ به آكله فلا يسيغه لبشاعته، وحقيقته: تردد الطعام والشراب في الحلق بحيث لا يسيغه الحلق من مرض أو حزن وعبرة.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال ابن عباس: "ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج".

{وَعَذَابًا أَلِيمًا} مقابل ما في النَعمة من ملاذ البشر، فإن الألم ضد اللذة. وقد عرف الحكماء اللذة بأنها الخلاص من الألم.

أي: ونوعاً آخر من أنواع العذاب مؤلماً لا يعرف كنهه. فلا ترى موكولاً إليه أمرهم ينتقم منهم بمثل ذلك الانتقام.

وهذا تعليل لجملة {وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ}، أي لأن لدينا ما هو أشد عليهم من ردك عليهم، وهذا التعليل أفاد تهديدهم بأن هذه النقم أعدت لهم لأنها لما كانت من خزائن نقمة الله تعالى كانت بحيث يضعها الله في المواضع المستأهلة لها، وهم الذين بدلوا نعمة الله كفرا، فأعد الله ما يكون عليهم في الحياة الأبدية ضدا لأصول النعمة التي خولوها، فبطروا بها وقابلوا المنعم بالكفران.

فالأنكال مقابل كفرانهم بنعمة الصحة والمقدرة لأن الأنكال القيود.

والجحيم: هو نار جهنم مقابل ما كانوا عليه من لذة الاستظلال والتبرد.

والطعام ذو الغصة: مقابل ما كانوا منهمكين فيه من أطعمتهم الهنيئة من الثمرات والمطبوخات والصيد.

{يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ} تضطرب وترتجّ بالزلزلة. والمراد: الرجف المتكرر المستمر، وهو الذي يكون به انفراط أجزاء الأرض وانحلالها.

{وَكَانَتِ} للإشارة إلى تحقيق وقوعه حتى كأنه وقع في الماضي.

ووجه مخالفته لأسلوب {تَرْجُفُ} أن صيرورة الجبال كثبا أمر عجيب غير معتاد، فلعله يستبعده السامعون، وأما رجف الأرض فهو معروف، إلا أن هذا الرجف الموعود به أعظم ما عرف جنسه.

{الْجِبَالُ كَثِيبًا} الرمل المجتمع كالربوة {مَهِيلًا} متفرقاً منثوراً.. تصير الجبال ككثبان الرمل بعد ما كانت حجارة صماء، ثم إنها تنسف نسفا فلا يبقى منها شيء إلا ذهب، حتى تصير الأرض قاعًا [منبسطا] صفصفا [مستوية ملساء لا نبات فيها]، لا ترى فيها عوجًا [واديا أو انخفاضا]، ولا أمتا [رابية أو ارتفاعا]، ومعناه: لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦)

{إِنَّا} أكد الخبر بـ "إن" لأن المخاطبين منكرون أن الله أرسل إليهم رسولا.

{أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا} نقل الكلام إلى مخاطبة المشركين بعد أن كان الخطاب موجها إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والمناسبة لذلك التخلص إلى وعيدهم بعد أن أمره بالصبر على ما يقولون وهجرهم هجرا جميلا.

والمقصود من هذا الخبر التعريض بالتهديد أن يصيبهم مثل ما أصاب أمثالهم ممن كذبوا الرسل فهو مثل مضروب للمشركين.

وهذا أول مثل ضربه الله للمشركين للتهديد بمصير أمثالهم على قول الجمهور في نزول هذه السورة.

واختير لهم ضرب المثل بفرعون مع موسى –عليه السلام–، لأن الجامع بين حال أهل مكة وحال أهل مصر في سبب الإعراض عن دعوة الرسول وهو مجموع ما هم عليه من عبادة غير الله، وما يملأ نفوسهم من التكبر والتعاظم على الرسول المبعوث إليهم بزعمهم أن مثلهم لا يطع مثله، كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: {فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ} [المؤمنون:٤٧] وقد قال أهل مكة: {لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [الزخرف:٣١] وقد حكى الله عنهم أنهم قالوا: {لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا} [الفرقان:٢١].

{شَاهِدًا عَلَيْكُمْ} بأعمالكم بإجابة من أجاب وإباء من أبى.

أو الشهادة بتبليغ ما أراده الله من الناس.

{كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا} يدعوه إلى الحق.

ونكر {رسولا} لأنهم يعلمون المعْنِيِّ به في هذا الكلام، ولأن مناط التهديد والتنظير ليس شخص الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بل هو صفة الإرسال.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ} في إظهار اسم فرعون دون أن يؤتى بضميره للنداء عليه بفظاعة عصيانه الرسول.

ولما جرى ذكر الرسول المرسل إلى فرعون أول مرة جيء به في ذكره ثاني مرة معرفا بلام العهد وهو العهد الذكري، أي الرسول المذكور آنفا فإن النكرة إذا أعيدت معرفة باللام كان مدلولها عين الأولى.

{فَأَخَذْنَاهُ} أزالهم من الحياة {أَخْذًا وَبِيلًا} ثقيلاً شديد السوء، وذلك بإهلاكه ومن معه، غرقاً في اليم.. من وبل المكان، إذا وخم هواؤه أو مرعى كلأه.

وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتم؛ لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران.

**فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩)**

{فَكَيْفَ} الاستفهام مستعمل في التعجيز والتوبيخ.

{تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ} كيف تقون أنفسكم إن بقيتم على كفركم، ولم تؤمنوا بالحق، يوم القيامة، وحاله في الهول ما ذكر.

ففعل الشرط من قوله: {إِنْ كَفَرْتُمْ} مستعمل في معنى: «الدوام على الكفر» وإلا فإن كفرهم حاصل من قبل نزول هذه الآية.

وقد انتقل بهم من التهديد بالأخذ في الدنيا المستفاد من تمثيل حالهم بحال فرعون مع موسى إلى الوعيد بعقاب أشد وهو عذاب يوم القيامة، وقد نشأ هذا الاستفهام عن اعتبارهم أهل اتعاظ وخوف من الوعيد بما حل بأمثالهم مما شأنه أن يثير فيهم تفكيرا من النجاة من الوقوع فيما هددوا به، وأنهم إن كانوا أهل جلادة على تحمل عذاب الدنيا فماذا يصنعون في اتقاء عذاب الآخرة، فدلت فاء التفريع واسم الاستفهام على هذا المعنى.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وهو متفرع بالفاء على ما تضمنه الخطاب السابق من التهديد على تكذيب الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وما أدمج فيه من التسجيل بأن الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– شاهد عليهم فليس بعد الشهادة إلا المؤاخذة بما شهد به.

{يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا} من شدة أهواله وزلازله وبلابله، وذلك حين يقول الله لآدم: ابعث بعث النار. فيقول مِن كم؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة.

فهو وصف له باعتبار ما يقع فيه من الأهوال والأحزان، لأنه شاع أن الهم مما يسرع به الشيب فلما أريد وصفهم هم ذلك اليوم بالشدة البالغة أقواها أسند إليه بشيب الولدان الذين شعرهم في أول سواده. وهذه مبالغة عجيبة وهي من مبتكرات القرآن. ولا يوجد هذا المعنى في كلام العرب.

{السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ} ارتقاء في وصف اليوم بحدوث الأهوال فيه فإن انفطار السماء أشد هولا ورعبا مما كني عنه بجملة {يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً}. أي السماء على عظمها وسمكها تنفطر لذلك اليوم فما ظنكم بأنفسكم وأمثالكم من الخلائق فيه.

والانفطار: التشقق الذي يحدث في السماء لنزول الملائكة وصعودهم بسببه من شدته وهوله.

قال الزمخشريّ: وصف لليوم بالشدة أيضاً. وأن السماء على عظمها وإحكامها تنفطر فيه، فما ظنك بغيرها من الخلائق؟!

وإنما لم تؤنث الصفة لأنها على النسب، أي: ذات انفطار، نحو: مرضع وحائض.

{كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا} واقعًا لا محالة، وكائنا لا محيد عنه. لأنه لا يخلف وعده، فاحذروا ذلك اليوم.

{إِنَّ} تأكيد الكلام بحرف التأكيد لأن المواجهين به ابتداء هم منكرون كون القرآن تذكرة وهدى، فإنهم كذبوا بأنه من عند الله ووسموه بالسحر وبالأساطير، وذلك من أقوالهم التي أرشد رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إلى الصبر عليها قال تعالى: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} [المزمل: ١٠].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{هَذِهِ} الآيات الناطقة بالوعيد الشديد {تَذْكِرَةٌ} موعظة لأنها تذكر الغافل عن سوء العواقب، وهذا تنويه بآيات القرآن وتجديد للتحريض على التدبر فيه والتفكر على طريقة التعريض.

والآية تذييل، أي: تذكرة لمن يتذكر، فإن كان من منكري البعث آمن به، وإن كان مؤمنا استفاق من بعض الغفلة التي تعرض للمؤمن فاستدرك ما فاته، وبهذا العموم الشامل لأحوال المتحدث عنهم وأحوال غيرهم كانت الجملة تذييلا.

وفرع على هذا التحريض التعريضي تحريض صريح بقوله:

{فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا} أي من كان يريد أن يتخذ إلى ربه سبيلا بالإيمان به، والعمل بطاعته فقد تهيأ له اتخاذ السبيل إلى الله بهذه التذكرة فلم تبق للمتغافل معذرة.

أي: ممن شاء الله هدايته، كما قيده في السورة الأخرى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الإنسان: ٣٠].

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)

{إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى} أقرب {مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ} تتهجد فيه هذه التارات المختلفة، وتتشمر للعبادة فيه هذا التشمر امتثالاً لأمره وتبتلاً إليه.

وفيه ما يشعر بالثناء عليه لوفائه بحق القيام الذي أمر به.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وتأكيد الخبر بـ {إن} للاهتمام به، وهو كناية عن أنه أرضى ربه بذلك، وتوطئة للتخفيف الذي سيذكر في قوله: {فَتَابَ عَلَيْكُمْ} ليعلم أنه تخفيف رحمة وكرامة، ولإفراغ بعض الوقت من النهار للعمل والجهاد.

وجاء قوله {يعلم} بالمضارع للدلالة على استمرار ذلك العلم وتجدده إيذان بأنه بمحمل الرضا منه.

{وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ} معية الانتساب والصحبة والموافقة.

{وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} يجعلهما على مقادير يجريان عليها، فتارة يعتدلان، وتارة يزيد أحدهما في الآخر، وبالعكس مما يشق لأجله المواظبة على قيامه بما علمه منكم.

{عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ} والإحصاء حقيقته: معرفة عدد شيء معدود، مشتق من اسم الحصى جمع حصاة لأنهم كانوا إذا عدوا شيئا كثيرا جعلوا لكل واحد حصاة.

وهو هنا مستعار للإطاقة. شبهت الأفعال الكثيرة من ركوع وسجود وقراءة في قيام الليل، بالأشياء المعدودة. ومنه قوله في الحديث (اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا) [ابن ماجة] أي ولن تطيقوا تمام الاستقامة، أي فخذوا منها بقدر الطاقة.

والضمير في {تحصوه} عائد إلى القيام الفرض الذي أوجبه عليكم من قيام الليل على النحو الذي دأبتم عليه، أو قيام الليل كله، للحرج والعسر.

{فَتَابَ عَلَيْكُمْ} عاد عليكم باليسر ورفع الحرج.

قيل كان فرضا عليه –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وقيام من قام من المسلمين معه بمكة إنما كان تأسيا به، وأقرهم النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ثم خفف هذا كله بقوله: {فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ} ولكنه –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كان إذا عمل عملا داوم عليه، فكان يقوم الليل شكرا لله، كما في حديث عائشة – رضي الله عنها– (أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا) [البخاري ومسلم]، وبقي سنة لغيره بقدر ما يتيسر لهم والله تعالى أعلم.

{فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ} فصلوا ما تيسر لكم في صلاة الليل بلا تقدير. وعبر عن الصلاة بالقراءة، كما قال في سورة سبحان: {وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ} أي:



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بقراءتك {وَلا تُخَافِتْ بِهَا} [الإسراء:١١٠] وكقوله تعالى: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ} [الإسراء:٧٨] أي صلاة الفجر، وفي الكناية عن الصلاة بالقرآن جمع بين الترغيب في القيام والترغيب في تلاوة القرآن فيه بطريقة الإيجاز.

أو المراد: لا تتجاوزوا ما قدره لكم، رحمة بأنفسكم.. وفيه رد من غلوهم في قيام الليل كله، أو الحرص عليه، شوقاً إلى العبادة، وسبقاً إلى الكمالات.

قال مقاتل: كان الرجل يصلي الليل كله، مخافة أن لا يصيب مما أُمر به من قيام ما فرض عليه.

قال ابن كثير: وقد استدل أصحاب الإمام أبي حنيفة –رحمه الله– بهذه الآية، وهي قوله: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ} على أنه لا يتعين قراءة الفاتحة في الصلاة، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن، ولو بآية، أجزأه؛ واعتضدوا بحديث المسيء صلاته الذي في الصحيحين: (إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنْ الْقُرْآنِ ثُمَّ ارْكَعْ).

وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– وهو في الصحيحين أيضا: أن رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ) وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أن رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قال: (كُلُّ صَلَاةٍ لَا يُقْرَأُ فِيهَا بِأُمِّ الْكِتَابِ فَهِيَ خِدَاجٌ، فهي خِدَاج، فهي خِدَاج، غير تمام). وفي صحيح ابن خزيمة عن أبي هريرة مرفوعًا: (لا تجزئ صلاة من لم يقرأ بأم القرآن).

وقد نسخت هذه الآية تحديد مدة قيام الليل بنصفه أو أزيد أو أقل ثلثه، وأصبح التحديد بالمقدار المتيسر من غير ضابط.

{عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ} ذوو أعذار في ترك قيام الليل، من {مَرْضَى} يضعفهم المرض عن قيام الليل.

{وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ} للتجارة وغيرها، فيقعدهم ذلك عن قيام الليل.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ} والابتغاء من فضل الله «طلب الرزق» كما قال تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ} [البقرة:١٩٨] أي التجارة في مدة الحج.

روي عن ابن مسعود أنه قال: "أيما رجل جلب شيئا إلى مدينة من مدائن المسلمين، محتسبا، فباعه بسعر يومه، كان له عند الله منزلة الشهداء، وقرأ {وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}".

وعن ابن عمر: "ما خلق الله موتا بعد الموت في سبيل الله أحب إلي من أن أموت بين شعبتي رحلي أبتغي من فضل الله ضاربا في الأرض".

{وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} لنصرة الدين، فلا يتفرّغون للقيام في الليل.. وهذه الآية –بل السورة كلها–مكية، ولم يكن القتال شُرع بعد، فهي من أكبر دلائل النبوة، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة.

وهذه حكمة نسخ تحديد الوقت في قيام الليل، وهي مراعاة أحوال طرأت على المسلمين من ضروب ما تدعو إليه حالة الجماعة الإسلامية. وذكر من ذلك ثلاثة أضرب هي أصول الأعذار:

الضرب الأول: أعذار اختلال الصحة، وقد شملها قوله: {أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى}.

الضرب الثاني: الأشغال التي تدعو إليها ضرورة العيش في تجارة وصناعة وحراثة وغير ذلك، وقد أشار إليها قوله: {وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ}. وفضل الله هو الرزق.

الضرب الثالث: أعمال لمصالح الأمة، وأشار إليه بقوله: {وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} ودخل في ذلك حراسة الثغور والرباط بها، وتدبير الجيوش، وما يرجع إلى نشر دعوة الإسلام من إيفاد الوفود وبعث السفراء.

وهذا كله من شؤون الأمة على الإجمال فيدخل في بعضها النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كما في القتال في سبيل الله، والمرض ففي الحديث اشتكى رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فلم يقيم ليلة أو ليلتين.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ} قوموا بما تيسر عليكم من القرآن، ولا تحرّجوا أنفسكم، لأنه تعالى يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر.

وروى أحمد –بسند صحيح– عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ، قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِينِي عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–؟ فَقَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ هَذِهِ السُّورَةَ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَتْ: "فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ، وَأَمْسَكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَاتِمَتَهَا فِي السَّمَاءِ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ التَّخْفِيفَ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَصَارَ قِيَامُ رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– تَطَوُّعًا مِنْ بَعْدِ فَرِيضَتِهِ".

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن أبي رجاء محمد، قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد، ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه، ولا يقوم به، إنما يصلي المكتوبة؟ قال: يتوسَّدُ القرآن، لعن الله ذاك، قال الله تعالى للعبد الصالح: {وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ} [يوسف:٦٨] {وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ} [الأنعام:٩١]

قلت: يا أبا سعيد، قال الله: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ}؟ قال: نعم، ولو خمس آيات.

وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصري: أنه كان يرى حقًا واجبًا على حَمَلة القرآن أن يقوموا ولو بشيء منه في الليل.

وفي السنن: (إِنَّ اللَّهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ أَوْتِرُوا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ) [ابن ماجة]

وقال الترمذي في سسنه: "وَاحْتَجَّ بِمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (أَوْتِرُوا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ)، قَالَ: إِنَّمَا عَنَى بِهِ قِيَامَ اللَّيْلِ، يَقُولُ: إِنَّمَا قِيَامُ اللَّيْلِ عَلَى أَصْحَابِ الْقُرْآنِ".

وفي الحديث الآخر: (مَنْ لَمْ يُوتِرْ فَلَيْسَ مِنَّا) [حسن لغيره، رواه أحمد]



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} وفي هذا التعقيب بعطف الأمر بإقامة الصلاة إيماء إلى أن في الصلوات الخمس ما يرفع التبعة عن المؤمنين، وأن قيام الليل نافلة لهم، وفيه خير كثير، وقد تضافرت الآثار على هذا مما هو في كتب السنة.

{وَآتُوا الزَّكَاةَ} زكاة أموالكم المفروضة.. تتميم لأن الغالب أنه لم يحل ذكر الصلاة من ذكر الزكاة معها حتى استنبط أبو بكر –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– من ذلك أن مانع الزكاة يقاتل عليها، فقال لعمر –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: "لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ".

قال ابن كثير: وهذا يدل لمن قال بأن فرض الزكاة نزل بمكة، لكن مقادير النصب والمخرج لم تبين إلا بالمدينة.

{وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} يعني به بذل المال في سبيل الخيرات على أحسن وجه، ويكون من أطيب المال، وإعطاءه للمستحق من غير تأخير، واتقاء المنّ والأذى.

{وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ} في الدنيا من صدقة أو نفقة في وجوه الخير، أو عمل بطاعة الله، أو غير ذلك من أعمال البر.

{تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا} اسم تفضيل، أي خيرا مما تقدمونه إذ ليس المراد أنكم تجدونه من جنس الخير، بل المراد مضاعفة الجزاء، لما دل عليه قوله تعالى: {إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ} [التغابن:١٧] وغير ذلك من كثير من الآيات.

{وَأَعْظَمَ أَجْرًا} تأكيد، أي: وأعظم ثواباً مما عندكم من متاع الدنيا.

وفي البخاري « باب ما قدم من ماله فهو له» عن عَنْ الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ [أي ابن مسعود] قَالَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– (أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟) قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ قَالَ: (فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ)

أي إن الذي يخلفه الإنسان من المال، وان كان هو في الحال منسوبا إليه، فإنه باعتبار انتقاله إلى وارثه يكون منسوبا للوارث، فنسبته للمالك في حياته حقيقية، ونسبته للوارث في حياة المورث مجازية ومن بعد موته حقيقية.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قوله: (فان ماله ما قدم) أي هو الذي يضاف إليه في الحياة وبعد الموت بخلاف المال الذي يخلفه.

{وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ} سلوه غفران ذنوبكم وأكثروا من استغفاره.

{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} ذو مغفرة لذنوب من تاب إليه وأناب، ورحمة أن يعاقبكم عليها بعد توبتهم منها.

يجوز أن تكون الواو للعطف فيكون معطوفا على جملة {وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ} الخ، فيكون لها «حكم التذييل» إرشاد لتدارك ما عسى أن يعرض من التفريط في بعض ما أمره الله بتقديمه من خير فإن ذلك يشمل الفرائض التي يقتضي التفريط في بعضها توبة منه.

ويجوز أن تكون الواو للاستئناف وتكون الجملة «استئنافا بيانيا» ناشئا عن الترخيص في ترك بعض القيام إرشادا من الله لما يسد مسد قيام الليل الذي يعرض تركه بأن يستغفر المسلم ربه إذا انتبه من أجزاء الليل، وهو مشمول لقوله تعالى: {وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الذاريات:١٨]



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بسم الله الرحمن الرحيم

# مع سورة المدثر

تسمى في كتب التفسير «سورة المدثر» وأريد بالمدثر النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– موصوفا بالحالة التي نُودِيَ بها، كما سميت بعض السور بأسماء الأنبياء الذين ذكروا فيها.

وَإِمَّا تَسْمِيَةٌ بِاللَّفْظِ الذي وقع فيها، ونظيره في تسمية «سورة المزمل»، ومثله في «سورة الْمُجَادَلَةِ» من احتمال فتح الدال أو كسرها.

قيل إنها ثانية السور نزولا وإنها لم ينزل قبلها إلا سورة {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} [العلق:١] وهو الذي جاء في حديث عائشة في الصحيحين في صفة بدأ الوحي "أن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} إلى {مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق:١–٥] ثم قالت: وفتر الوحي". فلم تذكر نزول وحي بعد آيات {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ}.

وقيل أن فترة الوحي دامت أربعين يوما على الأصح.

وروى البخاري: عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} قُلْتُ يَقُولُونَ {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}.

فَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– عَنْ ذَلِكَ وَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ الَّذِي قُلْتَ فَقَالَ جَابِرٌ: لَا أُحَدِّثُكَ إِلَّا مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي هَبَطْتُ، فَنُودِيتُ، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ عَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ أَمَامِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ خَلْفِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ شَيْئًا، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ دَثِّرُونِي وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا [قال النووي: صب الماء لتسكين الفزع] قَالَ فَدَثَّرُونِي وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، قَالَ فَنَزَلَتْ {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ}.

ورواه مسلم فقال: قَالَ ابْنُ شِهَابٍ أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كَانَ يُحَدِّثُ



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ قَالَ فِي حَدِيثِهِ: (فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– (فَجُئِثْتُ مِنْهُ فَرَقًا فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي) فَدَثَّرُونِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} وَهِيَ الْأَوْثَانُ قَالَ ثُمَّ تَتَابَعَ الْوَحْيُ.

وفي مسلم من طريق آخر عن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ: (ثُمَّ فَتَرَ الْوَحْيُ عَنِّي فَتْرَةً فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي) ثُمَّ ذَكَرَ مِثْلَ حَدِيثِ يُونُسَ غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ: (فَجُئِثْتُ [جئث الرجل فهو مجئوث إذا فزع] مِنْهُ فَرَقًا حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ) قَالَ: وقَالَ أَبُو سَلَمَةَ وَالرُّجْزُ الْأَوْثَانُ قَالَ ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ بَعْدُ وَتَتَابَعَ.

قال ابن كثير: هذا لفظ البخاري وهذا السياق هو المحفوظ، وهو يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا، لقوله: (فإذا الملك الذي جاءني بحراء)، وهو جبريل حين أتاه بقوله: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} ثم إنه حصل بعد هذا فترة، ثم نزل الملك بعد هذا. ووجه الجمع أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة، كما قال الإمام أحمد:

حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ، حَدَّثَنَا لَيْثٌ، حَدَّثَنَا عُقَيْلٌ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، يَقُولُ: أَخْبَرَنِي جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ: (ثُمَّ فَتَرَ الْوَحْيُ عَنِّي فَتْرَةً، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجُئِثْتُ مِنْهُ فَرَقًا حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ، فَجِئْتُ أَهْلِي، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي ، زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي، فَزَمَّلُونِي، فَأَنْزَلَ اللهُ: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} [المدثر:٢]– قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: "الرُّجْزُ: الْأَوْثَانُ – ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ بَعْدُ، وَتَتَابَعَ " [صحيح على شرط الشيخين]



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وروى الطبراني في المعجم الكبير: عن ابن أبي مُلَيْكة يقول: سمعت ابن عباس يقول: إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاما، فلما أكلوا. قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم: ساحر. وقال بعضهم ليس بساحر. وقال بعضهم: كاهن. وقال بعضهم: ليس بكاهن. وقال بعضهم: شاعر. وقال بعضهم ليس بشاعر. وقال بعضهم: بل سحر يُؤثر. فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر. فبلغ ذلك النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فحزنَ وقَنعَ رأسه، وتدَثَّر، فأنزل الله {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} [قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: "وفيه إبراهيم بن يزيد الخوري وهو ضعيف".]

وقد وقع في حديث جابر بن عبد الله في صحيح البخاري وجامع الترمذي من طريق ابن شهاب إن نزول هذه السورة كان قبل أن تفرض الصلاة.

فيظهر أن سورة المدثر نزلت في السنة الأولى من البعثة، وأن الصلاة فرضت عقب ذلك كما يشعر به ترتيب ابن إسحاق في سوق حوادث سيرته.

ولا شك أن سورة المدثر نزلت قبل المزمل وأن عناد المشركين كان قد تزايد بعد نزول سورة المدثر فكان التعرض لهم في سورة المزمل أوسع.

## يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)

{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} نودي النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِوَصْفِهِ فِي حَالَةٍ خَاصَّةٍ تَلَبَّسَ بِهَا حِينَ نُزُولِ السُّورَةِ، وهي أنه لما رأى الملك بين السماء والأرض فرق من رؤيته فرجع إلى خديجة فقال: "دثروني دثروني، أو قال زملوني، فدثرته فنزلت: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}.

وفي هذا النداء تكرمة وتلطف بالنبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– .

والمدثر: المتلفِّف بثيابه لنوم أو استدفاء، من الدثار، وهو كل ما كان من الثياب فوق الشعار. والشعار الثوب الذي يلي الجسد. وفي الحديث: (الْأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ، الْأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ) [البخاري ومسلم].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وأصله: المتدثر، فأدغمت التاء في الدال لتقاربهما في النطق.

وقيل هو مجاز على معنى: المدثر بدثار النبوة والرسالة، من قولهم: ألبسه الله لباس التقوى، وزينه برداء العلم. ويقال: تلبس فلان بأمر كذا. فجعل النبوة كالدثار واللباس مجازاً.

قال الشهاب: إما أن يراد المتحلي بها والمتزين، كما أن اللباس الذي فوق الشعار يكون حلية لصاحبه وزينة. وكذا يسمى حلّة. والتشبيه بالدثار في ظهورها، أو في الإحاطة. والأول أتم.

{قُمْ} وقيام المأمور به ليس مستعملا في حقيقته لأن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لم يكن حين أوحي إليه بهذا نائما ولا مضطجعا ولا هو مأمور بأن ينهض على قدميه، وإنما هو مستعمل في الأمر بالمبادرة والإقبال والتهمم بالإنذار مجازا أو كناية.

{فَأَنْذِرْ} تعقيب إِفَادَةِ التَّحَفُّزِ والشروع في الأمر بإيقاع الإنذار.

أي: شمر عن ساق العزم، وأنذر الناس. وبهذا حصل الإرسال، كما حصل بالأول النبوة.

قال الشهاب: لم يقل {وَبَشِّرِ} لأنه كان في ابتداء النبوة، والإنذار هو الغالب، لأن البشارة لمن آمن، ولم يكن إذ ذاك. أو هو اكتفاء لأن الإنذار يلزمه التبشير.

والإنذار: إعلام بتخويف فهو أخص من مطلق الإعلام، وهو متعد لمفعولين المنذَر باسم المفعول والمنذِر به ولم يذكر هنا واحد منهما.

أما المنذر فقد بينت آيات أخر أنه قد يكون للكافرين كما في قوله تعالى {وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً} [مريم:٩٧] تخويفا لهم.

وقد يكون للمؤمنين لأنهم المنتفعون به كما في قوله: {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ} [يس:١١].

وقد يكون للجميع أي لعامة الناس كما في قوله تعالى: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا} [يونس:٢].

وأما المنذِر به فهو ما يكون يوم القيامة.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقد قدر الأمرين هنا ابن جرير بقوله فأنذر عذاب الله قومك الذين أشركوا بالله وعبدوا غيره.

{وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ} فعظِّم بعبادته، والرغبة إليه في حاجاتك، دون غيره من الآلهة والأنداد.. والمعنى: أن لا يفتر عن الإعلان بتعظيم الله وتوحيده في كل زمان وكل حال وهذا من الإيجاز.

وانتصب {ربك} على المفعولية لفعل {كبر} قدم على عامله إفادة الاختصاص، أي لا تكبر غيره، وهو قصر إفراد، أي دون الأصنام.

وقال القاشاني: أي: إن كنت تكبر شيئاً وتعظِّم قدره، فخصص ربك بالتعظيم والتكبير، لا يعظم في عينك غيره، ويصغر في قلبك كل ما سواه، بمشاهدة كبريائه.

قال في «التحرير والتنوير»: كبره في اعتقادك: وكبره بقولك تسبيحا وتعليما. ويشمل هذا المعنى أن يقول «الله أكبر» لأنه إذا قال هذه الكلمة أفاد وصف الله بأنه أكبر من كل كبير، أي: أجل وأنزه من كل جليل، ولذلك جعلت هذه الكلمة افتتاحا للصلاة.

وأحسب أن في ذكر التكبير إيماء إلى شرع الصلاة التي أولها التكبير وخاصة اقترانه بقوله: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} [المدثر:٤] فإنه إيماء إلى شرع الطهارة، فلعل ذلك إعداد لشرع الصلاة، ووقع في رواية معمر عن الزهري عند مسلم أن قال: وذلك قبل أن تفرض الصلاة. فالظاهر أن الله فرض عليه الصلاة عقب هذه السورة وهي غير الصلوات الخمس فقد ثبت أنه صلى في المسجد الحرام.

{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} بالماء من الأنجاس. قال ابن زيد، كان المشركون لا يتطهرون، فأمره أن يتطهر ويطهِّر ثيابه.. وتقديم {ثيابك} على فعل «طهر» للاهتمام به في الأمر بالتطهير.

وللتطهير إطلاق حقيقي وهو التنظيف وإزالة النجاسات،، وإطلاق مجازي وهو التزكية قال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب:٣٣]. والمعنيان صالحان في الآية فتحمل عليهما معا، وليس في القرآن ذكر طهارة الثوب إلا في هذه الآية في أحد محاملها وهو مأمور بتزكية نفسه.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} الرِجز كالرجس والسين والزاي يتبادلان، لأنهما من حروف الصفير. والرجس: اسم للقبيح المستقذر، كنِّي به عن عبادة الأوثان خاصة، لقوله: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ} [الحج:٣٠]، أو عن كل ما يستكره من الأفعال والأخلاق، والجملة من جوامع الكلم في مكارم الأخلاق، كأنه قيل: اهجر الجفا والسَّفه وكل قبيح، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين المستعملين للرجز.

وأمره –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بذلك، وهو بريء منه، إما أمر لغيره تعريضاً، أو المراد الدوام على هجره.

قال ابن كثير: وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك، كقوله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} [الأحزاب:١]

وقوله: {وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [الأعراف:١٤٢].

{وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ} المن: تذكير المنعِم المنعَم عليه بإنعامه. والاستكثار: عد الشيء كثيرا، أي لا تستعظم ما تعطيه.

** وقيل: لا تعط عطية تلتمس بها أكثر أو أفضل منها، كما قال: {هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ} [ص:٣٩]، أي: فأعط أو أمسك. وأصله أن من أعطى فقد منَّ، فسميت العطية بالمنّ على سبيل الاستعارة.

وجوّز القَفَّالُ أن يكون الاستكثار عبارة عن طلب العِوض كيف كان زائداً على العطاء. فسمي طلب الثواب استكثاراً حملاً للشيء على أغلب أحواله.

وسر النهي أن يكون العطاء خالياً عن انتظار العوض، والتفات النفس إليه تعففاً وكمالاً وعلوّ همة.

** وقيل: معنى الآية لا تعط عطاءً مستكثراً له، فإن مكارم الأخلاق استقلال العطاء، وإن كان كثيراً.

والمن في العطية كان من خلق أهل الشرك، فلما أمره الله بهجر الرجز نهاه عن أخلاق أهل الرجز، نهيا يقتضي الأمر بالصدقة والإكثار منها بطريق الكناية، فكأنه قال:



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وتصدق وأكثر من الصدقة ولا تمنن، أي لا تعد ما عطيته كثيرا فتمسك عن الازدياد فيه، أو تتطرق إليك ندامة على ما أعطيت.

وهذا من بديع التأكيد لحصول المأمور به، وقد كانت الصدقة من خلقه –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إذ كان أجود الناس، وقد عرف بذلك من قبل رسالته لأن الله هيأه لمكارم الأخلاق، فقد قالت له خديجة في حديث بدء الوحي: "إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ".

** وقال خصيف، عن مجاهد في قوله: {وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ} قال: لا تضعف أن تستكثر من الخير، قال تمنن في كلام العرب: تضعف.

** وقال الحسن البصري: لا تمنن بعملك على ربك تستكثره. وكذا قال الربيع بن أنس، واختاره ابن جرير.

{وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} على أذى المشركين.. أي: اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عز وجل.

فهو تثبيت للنبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– على ما تحمل ما يلقاه من أذى المشركين وعلى مشاق الدعوة.

وتقديم {لربك} على "اصبر" للاهتمام بالأمور التي يصبر لأجلها مع الرعاية على الفاصلة

فهذه ست وصايا أوصى الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم في مبدأ رسالته، وهي من جوامع كلامه، أراد الله بها تزكية رسوله وجعلها قدوة لأمته.

## فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠)

{فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ} نفخ في الصور. وهو كهيئة القرن.

والناقور من النَّقر، بمعنى التصويت. وأصله القرع الذي هو سبب الصوت. ومنه منقار الطائر لأنه يقرع به، أي: لما كان الصوت يحدث بالقرع تجوز به عنه، وأريد به النفخ لأنه من الصوت.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

روى الإمام أحمد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: {فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ} [المدثر:٨] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ يَسَّمَّعُ مَتَى يُؤْمَرُ، فَيَنْفُخُ؟) فَقَالَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ: كَيْفَ نَقُولُ؟ قَالَ: (قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا). [حسن لغيره]

{فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ} شديد.

{عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} غير هيّن، لما يحيق بهم من صنوف الردى.

وفي قوله: {غَيْرُ يَسِيرٍ} تأكيد يمنع أن يكون عسيراً عليهم من وجه دون وجه، ويشعر بيسره على المؤمنين. ففيه جمع بين وعيد الكافرين وبشارة المؤمنين.

وقال الزمخشري إن غير يسير كان يكفي عنها يوم عسير إلا أنه ليبين لهم أن عسره لا يرجى تيسيره كعسر الدنيا، وأن فيه زيادة وعيد للكافرين، ونوع بشارة للمؤمنين لسهولته عليهم.

كما قال تعالى: {يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} [القمر:٨]. فبين تعالى أن اليوم عسير غير يسير على الكافرين، بينما يكون على المؤمنين يسيرا مع أنه عسير في ذاته لشدة هوله إلا أن الله ييسره على المؤمنين كما بين تعالى هذه الصورة بجانبها في قوله تعالى: {وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} – إلى قوله –: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النمل:٨٧–٩٠].

وقد روي عن زُرَارة بن أوفى –قاضي البصرة–: أنه صلى بهم الصبح، فقرأ هذه السورة، فلما وصل إلى قوله: {فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} شَهِقَ شهقة، ثم خر ميتا، رحمه الله تعالى.

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧)



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا} لا مال له ولا ولد ثم رزقه الله.

كان الوليد بن المغيرة يلقب في قريش بالوحيد لتوحده وتفرده باجتماع مزايا له لم تجتمع لغيره من طبقته، وهي: كثرة الولد وسعة المال، ومجده ومجد أبيه من قبله، وكان مرجع قريش في أمورهم لأنه كان أسن من أبي جهل وأبي سفيان، فلما اشتهر بلقب الوحيد كان هذا الكلام إيماء إلى الوليد بن المغيرة المشتهر به.

وجاء هذا الوصف بعد فعل {خَلَقْتُ} ليصرف هذا الوصف عما كان مرادا به فينصرف إلى ما يصلح لأن يقارن فعل {خَلَقْتُ} أي أوجدته وحيدا عن المال والبنين والبسطة، فيغير عن غرض المدح والثناء الذي كانوا يخصونه به، إلى غرض الافتقار إلى الله الذي هو حال كل مخلوق فتكون من قبيل قوله: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا} [النحل:٧٨].

{وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا} مبسوطاً كثيراً، أو ممدوداً بالنماء.

وكان الوليد من أوسع قريش ثراء. وعن ابن عباس: كان مال الوليد بين مكة والطائف من الإبل والغنم والعبيد والجواري والجنان وكانت غلة ماله ألف دينار في السنة.

{وَبَنِينَ شُهُودًا} رجالاً يشهدون معه المحافل والمجامع، أو حضوراً معه يأنس بهم، لا يحوجه سفرهم وركوبهم الأخطار، لاستغنائهم عن التكسب والمدح.

وقال مجاهد: "لا يغيبون"، أي: حضورا عنده لا يسافرون في التجارات، بل مَواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم، يتمتع بهم ويتَمَلَّى بهم.

وكانوا فيما ذُكر ثلاثة عشر. وقيل: كانوا عشرة. وهذا أبلغ في النعمة وهو إقامتهم عنده.

{وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا} بسطت له في العيش والجاه والرياسة.

وأصل المهد: تسوية الأرض وإزالة ما يقض جنب المضطجع عليها، والتمهيد هنا مستعار لتيسير أموره ونفاذ كلمته في قومه بحيث لا يعسر عليه مطلب ولا يستعصي عليه أمر.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{ثُمَّ} للتراخي الرتبي {يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ} أي وأعظم من ذلك أنه يطمع في الزيادة من المال والولد والجاه. أو من النعيم الأخرويّ. وهذا أظهر لما يأتي بعده

والطمع: طلب الشيء العظيم، وجعل متعلق طمعه زيادة مما جعل الله له لأنهم لم يكونوا يسندون الرزق إلى الأصنام، أو لأنه طمع في زيادة النعمة غير متذكر أنها من عند الله، فيكون إسناد الزيادة إلى ضمير الجلالة إدماجا بتذكيره بأن ما طمع فيه هو من عند الذي كفر هو بنعمته فأشرك به غيره في العبادة. ولهذه النكتة عدل عن أن يقال: "يطمع في الزيادة"، أو "يطمع أن يُزاد".

{كَلَّا} أي: لا يكون ما يأمل ويرجو، لأن الجدير بالزيادة من نعيم الآخرة هم المتقون، لا هو.

والمقصود إبلاغ هذا إليه مع تطمين النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بأن الوليد سيقطع عنه مدد الرزق لئلا تكون نعمته فتنة لغيره من المعاندين فيغريهم حاله بأن عنادهم لا يضرهم لأنهم لا يحسبون حياة بعد هذه، كما حكى الله من قول موسى عليه السلام: {رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [يونس:٨٨].

وفي هذا الإبطال والردع إيذان بأن كفران النعمة سبب لقطعها قال تعالى: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم:٧].

ولهذا قال الشيخ ابن عطاء الله: "من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها".

{إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا} أي: معانداً للحجج المنزلة والمرسلة.

{سَأُرْهِقُهُ} الإرهاق: الإتعاب وتحميل ما لا يطاق، قال تعالى: {وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا} [الكهف:٧٣].

{صَعُودًا} أي: سأغشيه عَقبة شاقة المصعد. وهو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعب الذي لا يطاق، قاله الزمخشري.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال الشهاب: ومعنى كونه مثلاً، أنه شبه ما يسوقه الله له من المصائب، بتكليف الصعود في الجبال الوعرة الشاهقة، وأطلق لفظه عليه. فهو استعارة تمثيلية.

وجملة {سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً} معترضة بين {إِنَّهُ كَانَ لِآياتنَا عَنِيداً} وبين {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ}، قصد بهذا الاعتراض: تعجيل الوعيد له مساءة له، وتعجيل المسرة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأيضا قوله: {سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً} تمثيل لضد الحالة المجملة في قوله: {وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً}، أي سينقلب حاله من حال راحة وتنعم إلى حالة سوأى في الدنيا ثم إلى العذاب الأليم في الآخرة، وكل ذلك إرهاق له.

قيل: إنه طال به النزع فكانت تتصاعد نفسه ثم لا يموت، وقد جعل له من عذاب النار ما أسفر عنه عذاب الدنيا.

ثم علل إرهاقه ذلك بقوله التالي، وقد وصف حاله في تردده وتأمله بأبلغ وصف:

**إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥)**

{إِنَّهُ فَكَّرَ} أعمل فكره وكرر نظر رأيه ليبتكر عذرا يموهه ويروجه على الدهماء في وصف القرآن بوصف كلام الناس ليزيل منهم اعتقاد أنه وحي أوحي به إلى النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

{وَقَدَّرَ} في نفسه ما يقوله وهيأه.

ومثال ذلك أن يقول في نفسه، نقول: محمد مجنون، ثم يقول: المجنون يخنق ويتخالج ويوسوس وليس محمد كذلك، ثم يقول في نفسه: هو شاعر، فيقول في نفسه: لقد عرفت الشعر وسمعت كلام الشعراء، ثم يقول في نفسه: كاهن، فيقول في نفسه: ما كلامه بزمزمة [صوت خفي لا يفهم] كاهن ولا بسجعه، ثم يقول في نفسه:



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

نقول هو ساحر فإن السحر يفرق بين المرء وذويه ومحمد يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، فقال للناس: نقول إنه ساحر.

{فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} دعاء عليه بأن يقتله قاتل.. أي: لعن كيف قدر ذلك الافتراء الباطل، واختلق ما يكذبه وجدانه فيه.

فهو دعاء عليه بتعجيل موته لأن حياته حياة سيئة. وهذا الدعاء مستعمل في التعجيب مِنْ مَالِهِ وَالرِّثَاءِ لَهُ كقوله: {قَاتَلَهُمُ اللَّهُ} [التوبة ٣٠] وقولهم: عَدِمْتُكَ، وَثَكِلَتْهُ أُمُّه، وقد يستعمل مثله في التعجيب من حسن الحال يقال: قاتله الله ما أشجعه.

والمقام هنا متعين للكناية عن سوء حاله لأن ما قدره ليس مما يغتبط ذوو الألباب على إصابته إذ هو قد ناقض قوله ابتداء إذ قال: ما هو بعقد السحرة ولا نفثهم، وبعد أن فكر قال: {إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ} فناقض نفسه.

{ثُمَّ} للدلالة على الثانية أبلغ في التعجب من الأولى للعطف لأن العطف بـ {ثم} يفيد أن جملتها أرقى رتبة من التي قبلها في الغرض المسوق له الكلام.. فكأنه قيل: قتل بنوع ما من القتل، لا بل قتل بأشده وأشده؛ لذا ساغ العطف فيه، مع أنه تأكيد يزيد الكلام قوة، وهذا كقوله: {كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ} [النبأ: ٤-٥].

{قُتِلَ كَيْفَ} استفهام مستعمل في التعجيب المشوب بالإنكار {قَدَّرَ} تكرير للمبالغة في التعجب منه، وقد اعتيد فيمن عجب غاية التعجب أنه يكثر من التعجب ويكرره.

وقيل: تهكماً بهم وبإعجابهم بتقديره، واستعظامهم لقوله.

{ثُمَّ نَظَرَ} في ذلك المقدّر، أي: تروّى فيه. قال الرازيّ: وهذه المرتبة الثالثة من أحوال قلبه. فالنظر الأول للاستخراج، واللاحق للتقدير، وهذا هو الاحتياط.

{ثُمَّ عَبَسَ} قطّب وجهه كبراً وتهيؤاً لقذف تلك الكبيرة.

{وَبَسَرَ} كلح وجهه. شأن اللئيم في مراوغته ومخاتلته، والحسود في آثار حقده على صفحات وجهه.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ومنه قول توبة بن الحُمَير الشاعر:

وَقَد رَابَني منها صُدُودٌ رَأيتُه ... وَإعرَاضُها عَن حاجَتي وبُسُورُها

{ثُمَّ أَدْبَرَ} عن الحق، كقوله: {ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى} حكاية عن فرعون [النازعات: ٢٢].

{وَاسْتَكْبَرَ} عن الإيمان به.. أي: صُرف عن الحق، ورجع القهقرى، مستكبرا عن الانقياد للقرآن.

وقوله: {ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ} عطف على {وقَدَّرَ} وهي ارتقاء متوال فيما اقتضى التعجيب من حاله والإنكار عليه. فالتراخي تراخي رتبة لا تراخي زمن لأن نظره وعبوسه وبسره وإدباره واستكباره مقارنة لتفكيره وتقديره.

{فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ} ما هذا القرآن إلا سحر يروى ويُتعلم.. أي: يأثره عن غيره، ومروي عن الأقدمين ويحكيه عنهم.

يقول هذا ليدفع به اعتراضا يرد عليه أن أقوال السحرة وأعمالهم ليست مماثلة للقرآن، ولا لأحوال الرسول فزعم أنه أقوال سحرية غير مألوفة.

{إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} فالسحر يكون أقوالا وأفعالا فهذا من السحر القولي. وهذه الجملة بمنزلة النتيجة لما تقدم، لأن مقصوده من ذلك كله أن القرآن ليس وحيا من الله.

واتفق المفسرون أن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي، أحد رؤساء قريش، لعنه الله. وكان من خبره ما رواه ابن إسحاق أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم: يا معشر قريش! إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا رأياً واحداً ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضاً، ويردّ قولكم بعضه بعضاً. قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس! فقل، وأقم لنا رأياً نقل به. قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول كاهن!. قال: لا، واللهِ ما هو بكاهن. لقد رأينا الكهّان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول: مجنون! قال: ما هو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنَقه ولا تخالجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول شاعر! قال: ما



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

هو بشاعر. لقد عرفنا الشعر كله: رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول ساحر! قال: ما هو بساحر. لقد رأينا السُّحَّار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله ! إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعِذق [الغصن من النخلة]، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه، لأن تقولوا: هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرّق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته فتفرقّوا عنه بذلك. فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم. لا يمرّ بهم أحد إلا حذَّروه إياه، وذكروا لهم أمره. فأنزل الله تعالى في الوليد ابن المغيرة، وفي ذلك، من قوله: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً} الآيات.

وروى العوفي، عن ابن عباس قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن، فلما أخبره خرج على قريش فقال: يا عجبا لما يقول ابن أبي كبشة. فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذْي من الجنون، وإن قوله لمن كلام الله. فلما سمع بذلك النفرُ من قريش ائتمروا فقالوا: والله لئن صبا الوليد لتصْبُوَنَّ قريش. فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه. فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال للوليد: ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: ألستُ أكثرهم مالا وولدا. فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه. فقال الوليد: أقد تحدث به عشيرتي؟! فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة، ولا عمر، ولا ابن أبي كبشة [كنيه النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–]، وما قوله إلا سحر يؤثر. فأنزل الله على رسوله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا} إلى قوله: {لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ}.

[وابن أبي كبشة هو جد النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– من قبل أمه قيلة ابنة أبي قيلة واسم أبي قيلة «وجز بن غالب » من خزاعة وهو أول من عبد الشعرى العبور وكان: يقول إن الشعرى تقطع السماء عرضا ولا أرى في السماء شمسا ولا قمرا ولا نجما يقطع السماء عرضا غيرها



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وكانت العرب تظن أن أحدا لا يعلم شيئا إلا بعرق ينزعه شبهه، فلما خالف رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– دين قريش قالت قريش نزعه أبو كبشة لأن أبا كبشة خالف الناس في عبادة الشعرى فكانوا ينسبونه إليه لذلك، وكان «وجز» سيدا في خزاعة لم ينسبوه –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– تعييرا له ولكن أرادوا أن يشبهوه به في الخلاف لما كان الناس عليه]

وقال ابن جرير: عن عكرمة: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له. فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام، فأتاه فقال: أي عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا. قال: لم؟ قال: يعطونكه، فإنك أتيت محمدًا تَتَعَرض لما قبله. قال: قد علمت قريش أني أكثرها مالا. قال: فقل فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال، وأنك كاره له. قال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئًا من ذلك. والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى. وقال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر فيه. فلما فكر قال: إن هذا سحر يأثره عن غيره. فنزلت: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا}.

وعن قتادة: قال الوليد: لقد نظرت فيما قال هذا الرجل، فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة [نضارة]، وإنه ليعلوا وما يُعلى، وما أشك أنه سحر. فأنزل الله الآيات، رواه ابن جرير.

وقد روى مجاهد أن الوليد كان بنوه عشرة. وحكى الثعلبي عن مقاتل أنه أسلم منهم ثلاثة: خالد وعمار وهشام.

قال ابن حجر في «الإصابة»: والصواب: خالد وهشام والوليد. فأما عمارة، فإنه مات كافراً، لأن قريشاً بعثوه للنجاشيّ، فجرت له معه قصة، فأصيب بعقله. وقد ثبت أنه ممن دعا النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عليهم من قريش لمَّا وضع عقبة بن أبي معيط سلى الجزور على ظهره، وهو يصلي.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)

{سَأُصْلِيهِ} والإصلاء: جعل الشيء صاليا، أي مباشرا حر النار.

ويطلق على الاحتراق بالنار كما قال تعالى: {سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ} [المسد:٣] وقال: {فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى} [الليل:١٤-١٥]، وقال: {وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [النساء:١٠] والأكثر إذا ذكر لفعل هذه المادة مفعول ثان من أسماء النار أن يكون الفعل بمعنى الإحراق كقوله تعالى: {فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا} [النساء:٣٠]. ومنه قوله هنا: {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ}.

{سَقَرَ} جهنم.. أو علم لطبقة من جهنم، عن ابن عباس: أنه الطابق السادس من جهنم. قال ابن عطية: سقر هو الدرك السادس من جهنم على ما روي. واقتصر عليه ابن عطية. وجرى كلام جمهور المفسرين بما يقتضي أنهم يفسرون سقر بما يرادف جهنم.

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ} استفهام لتهويل أمرها. ثم فسر ذلك بقوله:

{لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ} قال الزمخشريّ: أي: لا تبقي شيئاً يلقى فيها إلا أهلكته، وإذا هلك لم تذره هالكاً حتى يعاد. أو لا تبقي على شيء ولا تدعه من الهلاك، بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة.

{لَوَّاحَةٌ} محرقة للجلود، من لوحته الشمس، إذا سوّدت ظاهره وأطرافه.

{لِلْبَشَرِ} جمع بشرة، وهي ظاهر الجلد. أو اسم جنس بمعنى الناس.

وجوّز أن يكون المعنى: لائحة للناس، من لا ح بمعنى ظهر، والبَشَر بمعنى الناس.

{عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} من مقدمي الخزنة المتولين أمرها، والتسلط على أهلها، فهم نقباء الملائكة الموكلين بجهنم.

وفيه إشارة إلى أن زبانية العذاب الأخرويّ، تفوق زبانية الجبابرة في الدنيا أضعافاً مضاعفة، تنبيهاً على هول العذاب، وكبر مكانه.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١)

{وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ} خزنتها {إِلَّا مَلَائِكَةً} وهم أقوى الخلق بأساً، وأشدهم غضباً لله، ليباينوا جنس المعذبين، فلا يستروحون لهم.

أي: زبانية غلاظا شديدي الخَلْق لا يقاومون ولا يغالبون. وذلك ردا على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة، فقال أبو جهل: يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم؟

روى الطبري عن ابن عباس وجابر بن زيد إن أبا جهل لما سمع قوله تعالى: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} [المدثر:٣٠] قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم إن ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم [الجماعة الكثيرة، ويقال: الدهماء] أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فقال الله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً}، أي ما جعلناهم رجالا فيأخذ كل رجل رجلا، فمن ذا يغلب الملائكة.

وقيل: إن أبا الأشدين –واسمه: كَلَدَة بن أسيد بن خلف–قال: "يا معشر قريش، اكفوني منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر"، إعجابا منه بنفسه، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينتزعوه من تحت قدميه، فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه.

قال السهيلي: وهو الذي دعا رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إلى مصارعته وقال: إن صرعتني آمنت بك، فصرعه النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مرارا، فلم يؤمن. قال: وقد نَسَب ابنُ إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب. [الروض الأنُف للسهيلي]



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعةَ عشرَ اختبارًا منَّا للناس، فمن شأنها أن يفتتن بها الكافرون، فيجعلوها موضع البحث والهزء. إذ لم يحصل لهم من ذكرها إلا فساد التأويل، وتلك العدة مجعولة لفوائد أخرى لغير الذين كفروا الذين يفوضون معرفة ذلك إلى علم الله وإلى تدبر مفيد.

قال الجبائي: المراد من الفتنة تشديد التعبد ليستدلوا ويعرفوا أنه تعالى قادر على أن يقوّي هؤلاء التسعة عشر على مالا يقوى عليه مائة ألف ملك أقوياء.

وقال الكعبيّ: المراد من الفتنة الامتحان حتى يفوّض المؤمنون حكمة التخصيص بالعدد المعيّن إلى علم الخالق سبحانه.. قال: وهذا من المتشابه الذي أمروا بالإيمان به.

{لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} الاستيقان: قوة اليقين، فالسين والتاء فيه للمبالغة. والمعنى: ليستيقنوا صدق القرآن حيث يجدون هذا العدد مصداقا لما في كتبهم.

والاستيقان من شانه أن يعقبه الإيمان إذا صادف عقلا بريئا من عوارض الكفر، كما وقع لعبد الله بن سلام، وقد لا يعقبه الإيمان لمكابرة أو حسد أو إشفاق من فوات جاه أو مال كما كان شأن كثير من اليهود الذين قال الله فيهم: {يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة:١٤٦] ولذلك اقتصرت الآية على حصول الاستيقان لهم.

{وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} تصديقاً إلى تصديقهم بالله ورسوله.

{وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ} أي لينتفي عنهم الريب فلا تعتريهم شبهة من بعد علمه لأنه إيقان عن دليل. وإن كان الفريقان في العمل بعلمهم متفاوتين، فالمؤمنون علموا وعملوا، والذين أوتوا الكتاب علموا وعاندوا فكان علمهم حجة عليهم وحسرة في نفوسهم.

والمقصود من ذكره التمهيد لذكر مكابرة الذين في قلوبهم مرض والكافرين في سوء فهمهم لهذه العدة تمهيدا بالتعريض قبل التصريح، لأنه إذا قيل {وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ} شعر الذين في قلوبهم مرض والكافرون بأنهم لما ارتابوا في



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ذلك فقد كانوا دون مرتبة الذين أوتوا الكتاب لأنهم لا ينازعون في أن الذين أوتوا الكتاب أرجح منهم عقولا وأسد قولا.

{وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} والمرض في القلوب: هو النفاق أو الأرجح سوء النية في القرآن والرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وهؤلاء هم الذين لم يزالوا في تردد بين أن يسلموا وأن يبقوا على الشرك مثل الأخنس بن شريق والوليد بن المغيرة، وليس المراد بالذين في قلوبهم مرض المنافقون لأن المنافقين ما ظهروا إلا في المدينة بعد الهجرة والآية مكية.

{وَالْكَافِرُونَ} حتى يخوّفنا بهؤلاء التسعة عشر.

قال الزمخشريّ: فإن قلت: كيف ذكر الذين في قلوبهم مرض، وهم المنافقون، والسورة مكية، ولم يكن بمكة نفاق، وإنما نجم بالمدينة؟

قلت: معناه وليقول المنافقون الذين ينجمون في مستقبل الزمان بالمدينة بعد الهجرة، والكافرون بمكة: "ماذا أراد الله بهذا مثلاً". وليس في ذلك إلا إخبار بما سيكون، كسائر الإخبارات بالغيوب. وذلك لا يخالف كون السورة مكية. ويجوز أن يراد بالمرض الشك والارتياب، لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكّين، وبعضهم قاطعين بالكذب. انتهى.

{مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا} استفهام استنكاري، وقد كني بنفي إرادة الله العدد عن إنكار أن يكون الله قال ذلك، لأنهم ينفون فائدته، وإنما أرادوا تكذيب أن يكون هذا وحيا من عند الله.

وقال الرازيّ: إن قيل: لم سموه مثلاً؟ فالجواب: أنه لما كان هذا عدداً عجيباً، ظن القوم أنه ربما لم يكن مراداً لله منه ما أشعر به ظاهره، بل جعله مثلاً لشيء آخر، وتنبيهاً على مقصود آخر، لا جرم سموه مثلاً.

{كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ} إضلاله لصرفه اختياره إلى جانب الضلال عند مشاهدته آيات الله الناطقة بالحق.

{وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} هدايته لصرف اختياره عند مشاهدته لتلك الآيات إلى جانب الهدى.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أي: من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام، ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

{وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} كلمة جامعة لإبطال التخرصات التي يتخرصها الضالون ومرضى القلوب عند سماع الأخبار عن عالم الغيب وأمور الآخرة من نحو: ما هذا به أبو جهل في أمر خزنة جهنم يشمل ذلك وغيره، فلذلك كان لهذه الجملة حكم التذييل.

أي: ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى، لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط، كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة ومن الفلاسفة اليونانيين. ومن تابعهم من الملتين الذين سمعوا هذه الآية.

قال الزمخشريّ: أي: وما يعلم ما عليه كل جند من العدد الخاص، من كون بعضها على عقد كامل، وبعضها على عدد ناقص، وما في اختصاص كل جند بعدده، من الحكمة إلا هو. ولا سبيل لأحد إلى معرفة ذلك، كما لا يعرف الحكمة في أعداد السماوات والأرضين وأمثالها. أو وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو، فلا يعزّ عليه الزيادة على عدد الخزنة المذكور، ولكن له في هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها. انتهى.

وقد ثبت في حديث الإسراء المروي في الصحيحين وغيرهما. عن رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أنه سأل جبريل عن البيت المعمور الذي في السماء السابعة فقال: (هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ).

وروى أحمد عَنْ أَبِي ذَرٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: (إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ. لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ، وَلَخَرَجْتُمْ عَلَى، أَوْ إِلَى، الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ) قَالَ: فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: "وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُعْضَدُ " [حسن لغيره]



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال محمد بن نصر المروزي في «كتاب الصلاة»: أخبرنا عباد بن منصور قال: سمعت عدي بن أرطاة وهو يخطبنا على منبر المدائن قال: سمعت رجلا من أصحاب النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، عن رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قال: (إن لله تعالى ملائكة تُرعَد فرائصهم من خيفته، ما منهم ملك تقطر منه دمعة من عينه إلا وقعت على ملك يصلي، وإن منهم ملائكة سجودًا منذ خلق الله السماوات والأرض لم يرفعوا رءوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، وإن منهم ملائكة ركوعًا لم يرفعوا رءوسهم منذ خلق الله السماوات والأرض ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، فإذا رفعوا رءوسهم نظروا إلى وجه الله عز وجل، قالوا: سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك). قال ابن كثير: وهذا إسناد لا بأس به.

وإضافة رب إلى ضمير النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إضافة تشريف، وتعريض بأن من شأن تلك الجنود أن بعضها يكون به نصر النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

ونفي العلم هنا نفي للعلم التفصيلي بأعدادها وصفاتها وخصائصها بقرينة المقام، فإن العلم بعدد خزنة جهنم قد حصل للناس بإعلام من الله لكنهم لا يعلمون ما وراء ذلك.

{وَمَا هِيَ} عدتهم المذكورة {إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ} عظة يرهبون منها عذاب النار، وهول أصحابها.

أي أن النافع لكم أن تعلموا أن الخبر عن خزنة النار بأنهم تسعة عشر فائدته أن يكون ذكرى للبشر ليتذكروا دار العقاب بتوصيف بعض صفاتها لأن في ذكر الصفة عونا على زيادة استحضار الموصوف، فغرض القرآن الذكرى، وقد اتخذه الضالون ومرضى القلوب لهوا وسخرية ومراء بالسؤال عن جعلهم تسعة عشر ولم لم يكونوا عشرين أو مئات أو آلافا.

** قال في أضواء البيان: وفي هذه الآية الكريمة عدة مسائل هامة.

– المسألة الأولى: جعل المثل المذكور أي جعل العدد المعين فتنة لتوجه السؤال أو مقابلته بالإذعان، فقد تساءل المستبعدون، واستسلم وأذعن المؤمنون، كما ذكر تعالى في صريح قوله: {إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً} [البقرة:٢٦].

ثم بين تعالى الغرض من ذلك طبق ما جاء في الآية هنا: {يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ}، فهذه الآية من سورة البقرة مبينة تماما لآية "المدثر".

– المسألة الثانية: قوله تعالى: {لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} أن هذا مطابق لما عندهم في التوراة، وهذا مما يشهد لقومهم على صدق ما يأتي به النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وما ادعاه لإيمانهم وتصديقهم.

– المسألة الثالثة: أن المؤمن كلما جاءه أمر عن الله وصدقه ولو لم يعلم حقيقته اكتفاء بأنه من الله ازداد بهذا التصديق إيمانا وهي مسألة ازدياد الإيمان بالطاعة والتصديق.

– المسألة الرابعة: بيان أن الواجب على المؤمن المبادرة بالتصديق والانقياد ولو لم يعلم الحكمة أو السر أو الغرض بناء على أن الخبر من الله تعالى وهو أعلم بما رواه.

وفي هذه المسألة مثار نقاش «حكمة التشريع» وهذا أمر واسع ولكن المهم عندنا هنا ونحن في عصر الماديات وتقدم المخترعات وظهور كثير من علامات الاستفهام عند كثير من آيات الأحكام فإنا نود أن نقول:

إن كل ما صح عن الشارع الحكيم من كتاب أو سنة وجب التسليم والانقياد إليه، علمنا الحكمة أو لم نعلم لأن علمنا قاصر وفهمنا محدود، والعليم الحكيم الرؤوف الرحيم سبحانه لا يكلف عباده إلا بما فيه الحكمة.

ومجمل القول إن الأحكام بالنسبة لحكمتها قد تكون محصورة في أقسام ثلاثة:

القسم الأول: حكم تظهر حكمته بنص كما في وجوب الصلاة جاء: {إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت:٤٥]، عن الفحشاء والمنكر وهذه حكمة جليلة، والزكاة جاء عنها أنها: {تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} [التوبة:١٠٣]. وفي الصوم جاء



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فيه {لعلكم تتقون} [البقرة:١٨٣]. وفي الحج جاء فيه: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ} [الحج:٢٨]. فمع أنها عبادات لله فقد ظهرت حكمتها جلية.

وفي الممنوعات كما قالوا في الضروريات الست، حفظ الدين، والعقل، والدم، والعرض والنسب، والمال. لقيام الحياة ووفرة الأمن وصيانة المجتمع وجعلت فيها حدود لحفظها وغير ذلك.

وقسم لم تظهر حكمته بهذا الظهور ولكنه لم يخل من حكمة كالطواف والسعي والركوع والسجود والوضوء والتيمم والغسل ونحو ذلك.

وقسم ابتلاء وامتحان أولا ولحكمة ثانيا، كتحويل القبلة كما قال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ} [البقرة:١٤٣].

وفي التحول عنها حكمة كما في قوله تعالى: {لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ} [البقرة:١٥٠].

والمسلم في كلتا الحالتين ظهرت له الحكمة أو لم تظهر وجب عليه الامتثال والانقياد، كما قال عمر عند استلامه للحجر: "إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يقبلك ما قبلتك" فقبله امتثالا واقتداء.. بصرف النظر عن ما جاء من أن عليا –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قال له بلى يا أمير المؤمنين إنه يضر وينفع، فيأتي يوم القيامة وله لسان وعينان يشهد لمن قبله، لأن عمر أقبل عليه ليقبله قبل أن يخبره علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد تنكشف الأمور عن حكمة لا نعلمها كما في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام إذ خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار وكلها أعمال لم يعلم لها موسى – عليه السلام– حكمة فلما أبداها له الخضر علم مدى حكمتها.

وهكذا نحن اليوم وفي كل يوم، وقد بين تعالى هذا الموقف بقوله: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} [آل عمران:٧].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقد جاء في نهاية الآية الكريمة ما يلزم البشر بالعجز ويدفعهم إلى التسليم في قوله: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} فكذلك بقية الأمور من الله تعالى هو أعلم بها والعلم عند الله تعالى.

كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧)

{كَلَّا} ردع لمن أنكر العدة أو سقر أو الآيات. أو إنكار لأن تكون لهم ذكرى لأنهم لا يتذكرون.

قال في «التحرير والتنوير»: {كلا} حرف ردع وإبطال. والغالب أن يقع بعد كلام من متكلم واحد أو من متكلم وسامع، مثل قوله تعالى: {قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ، قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِي} [الشعراء:٦١-٦٢] فيفيد الردع عما تضمنه الكلام المحكي قبله. ومنه قوله تعالى: {كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ} [مريم:٧٩]، ويجوز تقديمه على الكلام إذا أريد التعجيل بالردع والتشويق إلى سماع ما بعده، وهو هنا محتمل لأن يكون إبطالا لما قبله من قولهم: "ماذا أراد الله بهذا مثلا".

{وَالْقَمَرِ} واو القسم {وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ} ولّى ذاهباً بطلوع الفجر {وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ} أضاء وأشرق.

وهذه ثلاثة أيمان لزيادة التأكيد فإن التأكيد اللفظي إذا أكد بالتكرار يكرر ثلاث مرات غالبا، أقسم بمخلوق عظيم، وبحالين عظيمين من آثار قدرة الله تعالى.

ومناسبة القسم بـ {وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ} أن هذه الثلاثة تظهر بها أنوار في خلال الظلام، فناسبت حالي الهدي والضلال من قوله: {كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} ومن قوله: {وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ} ففي هذا القسم تلويح إلى تمثيل حال الفريقين من الناس عند نزول القرآن بحال اختراق النور في الظلمة.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{إِنَّهَا} النار {لَإِحْدَى الْكُبَرِ} الأمور العظام، ومعنى {إحدى} أنها المتوحدة المتميزة من بين الكبر في العظم لا نظير لها، كما يقال: هو أحد الرجال لا يراد: أنه واحد منهم، بل يراد: أنه متوحد فيهم بارز ظاهر.

{نَذِيرًا لِلْبَشَرِ} إنذاراً لهم، وكفى بها نذيرا، كأنه قيل: أعظم الكُبر إنذاراً.

{لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ} التفات من الغيبة إلى الخطاب لأن مقتضى الظاهر أن يقال: لمن شاء منهم، أي من البشر.

{أَنْ يَتَقَدَّمَ} يسبق إلى الإيمان والطاعة لينتذر بها {أَوْ يَتَأَخَّرَ} يتأخر عنها ويولي ويردها، فَلَا يَرْعَوِي بِنِذَارَتِهَا.

كقوله تعالى: {فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ} [الكهف:٢٩]

ويجوز أن يقدر: لمن شاء أن يتقدم إليها، أي إلى سقر بالإقدام على الأعمال التي تقدمه إليها، أو يتأخر عنها بتجنب ما من شأنه أن يقربه منها.

**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨)**

{كُلُّ نَفْسٍ} استئناف بياني للسامع عقبى الاختيار.

{بِمَا كَسَبَتْ} والباء للمصاحبة لا للسببية.

{رَهِينَةٌ} أي كل إنسان رهن بما كسب من التقدم أو التأخر أو غير ذلك، فهو على نفسه بصيرة ليكسب ما يفضي به إلى النعيم أو إلى الجحيم.

فهي مرهونة ومتعلقة ومحبوسة بعملها عند الله تعالى يوم القيامة.

والرهن: الوثاق والحبس، ومنه الرهن في الدين، وقد يطلق على الملازمة والمقارنة، ومنه: فرسا رهان، وإنما يكون الرهن لتحقيق المطالبة بحق يخشى أن يتفلت



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

من المحقوق به، فالرهن مشعر بالأخذ بالشدة، ومنه رهائن الحرب الذين يأخذهم الغالب من القوم المغلوبين ضمانا لئلا يبخس القوم بشروط الصلح وحتى يعطوا ديات القتلى فيكون الانتقام من الرهائن.

{إِلَّا} استثناء منقطع {أَصْحَابَ الْيَمِينِ} فإنهم فكوا رقابهم بما أطابوه من كسبهم، كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق.

وأصحاب اليمين هم أهل الخير جعلت علاماتهم في الحشر بجهات اليمين في مناولة الصحف وفي موقف الحساب وغير ذلك. فاليمين هو جهة أهل الكرامة في الاعتبار كجهة يمين العرش أو يمين مكان القدس يوم الحشر لا يحيط بها وَصْفُنَا، وجعلت علامة أهل الشر الشمال في تناول صحف أعمالهم وفي مواقفهم وغير ذلك.

{فِي جَنَّاتٍ} هم في جنات لا يدرك وصفها.

{يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ} قال القاشاني: أي: يسأل بعضهم بعضاً عن حال المجرمين، لاطلاعهم عليها وهم في الغرفات وأولئك في الدركات.

{مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ} وأصل معنى سلكه أدخله بين أجزاء شيء حقيقة، ومنه جاء سلك العقد، واستعير هنا للزج بهم، والمعنى: ما زج بكم في سقر؟.

إما سؤال على حقيقته فكل من أصحاب اليمين يشرف على المجرمين من أعالي الجنة فيسألهم عن سبب ولوجهم النار فيحصل جوابهم، وذلك إلهام من الله ليحمده أهل الجنة على ما أخذوه به من أسباب نجاتهم مما أصاب المجرمين ويفرحوا بذلك.

وأيضا كان الاستفهام مستعملا في التنديم، أو التوبيخ.

وإما أن يكون سؤالا موجها من بعض أصحاب اليمين إلى ناس كانوا يظنونهم من أهل الجنة فرأوهم في النار من المنافقين أو المرتدين بعد موت أصحابهم، فيكون المراد بأصحاب اليمين بعضهم وبالمجرمين بعضهم، وهذا مثل ما في قوله تعالى: {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ، قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ الْيَمِينِ} [الصافات: ٢٧-٢٨]

وأجاب المجرمون بذكر أسباب الزج بهم في النار لأنهم ما ظنوا إلا ظاهر الاستفهام، فذكروا أربعة أسباب هي أصول الخطايا:



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ} لم يكونوا من أهل الصلاة فحرموا أنفسهم من التقرب إلى الله.

{وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ} لم يكونوا من المطعمين المساكين وذلك اعتداء على ضعفاء الناس بمنعهم حقهم في المال.

{وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ} كانوا يخوضون خوض المعهود الذي لا يعدو عن تأييد الشرك وأذى الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– والمؤمنين.

أو نتكلم فيما لا نعلم. وقال قتادة: "كلما غوي غاو غوينا معه".

{وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ} كذبوا بالجزاء فلم يتطلبوا ما ينجيهم.

وهذا كناية عن عدم إيمانهم، سلكوا بها طريق الإطناب المناسب لمقام التحسر والتلهف على ما فات، فكأنهم قالوا لأنا لم نكن من المؤمنين لأن أهل الإيمان اشتهروا بأنهم أهل الصلاة، وبأنهم في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم، وبأنهم يؤمنون بالآخرة وبيوم الدين ويصدقون الرسل.

وقد جمعها قوله تعالى في سورة البقرة: {هُدىً لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [البقرة: ٢–٤].

** وفي الأفعال المضارعة في قوله {لم نك، ونخوض، ونكذب} إيذان بأن ذلك ديدنهم ومتجدد منهم طول حياتهم.

** وفي الآية إشارة إلى أن المسلم الذي أضاع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مستحق حظا من سقر على مقدار إضاعته وعلى ما أراد الله من معادلة حسناته وسيئاته، وظواهره وسرائره، وقبل الشفاعة وبعدها.

وقد حرم الله هؤلاء المجرمين الكافرين أن تنفعهم الشفاعة فعسى أن تنفع الشفاعة المؤمنين على أقدارهم.

** وجمعوا بين الكفر بتكذيبهم بيوم الدين وبين الفروع وهي ترك الصلاة والزكاة المعبر عنها بإطعام المسكين إلى آخره فهذه الآية من الأدلة على أن الكافر مطالب بفروع الشرع مع أصوله.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

كما في قوله تعالى: {وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} [فصلت:٧]

{حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ} الموت، فرأينا به ما كنا ننكره عياناً.

كقوله تعالى: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر:٩٩]

وقال رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ وَاللهِ مَا أَدْرِي، وَأَنَا رَسُولُ اللهِ مَا يُفْعَلُ بِي) [أحمد بسند صحيح]

{فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} من نبيّ أو ملك، لو قدر على سبيل فرض المحال، لأنهم غير قابلين لها. لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلا فأما من وافى الله كافرا يوم القيامة فإنه له النار لا محالة، خالدا فيها.

قال ابن جرير: أي: فما يشفع لهم الذين شفعهم الله في أهل الذنوب من أهل التوحيد، فتنفعهم شفاعتهم. وفي هذه الآية دلالة واضحة على أن الله تعالى ذِكره، مشفِّع بعض خلقه في بعض.

قال في أضواء البيان: فيه أن الكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين كما أن فيها إثبات الشفاعة للشافعين، ومفهوم كونها لا تنفع الكفار أنها تنفع غيرهم.

وقد جاءت نصوص في الشفاعة لمن ارتضاهم الله، وقد دلت نصوص على كلا الأمرين:

– فمن عدم الشفاعة للكفار قوله تعالى: {مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ} [غافر:١٨].

وقوله: {وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ} [الشعراء:٩٩–١٠٠] ونحو ذلك من الآيات.

– وفي القسم الثاني قوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} [الأنبياء:٢٨].

وكذلك الشفيع لا يشفع إلا من أذن له ولا يشفعون إلا فيمن أذنوا فيه، كما قال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [البقرة:٢٥٥]. وقوله: {يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ} [طه:١٠٩].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وخلاصة القول فيها أنها لا تكون إلا بإذن من الله الماذون له فيها، وقد ثبت للنبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– الشفاعة العظمى، وهي «المقام المحمود» وعدة شفاعات بعدها، منها ما اختص به –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كالشفاعة العظمى ودخول الجنة والشفاعة في غير مسلم وهو عمه أبو طالب للتخفيف عنه، ومنها ما يشاركه فيها غيره من الأنبياء والصلحاء والله تعالى أعلم.

**فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦)**

{فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ} فما لهؤلاء المشركين عن تذكرة الله إياهم بهذا القرآن معرضين، لا يستمعون لها، فيتعظوا ويعتبروا.

وجيء باسم التذكرة الظاهر دون أن يؤتى بضميره نحو: أن يقال: "عنها معرضين"، لئلا يختص الإنكار والتعجيب بإعراضهم عن تذكرة الإنذار بسقر، بل المقصود التعميم لإعراضهم عن كل تذكرة وأعظمها تذكرة القرآن كما هو المناسب للإعراض قال تعالى: {إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} [التكوير:٢٧].

{كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ} كأنهم في الإعراض عن الذكرى، وبلادة قلوبهم، حمر شديدة النفار.

والسين والتاء في {مُسْتَنْفِرَة} للمبالغة في الوصف مثل: استكمل واستجاب واستعجب واستنبط، أي نافرة نفارا قويا فهي تعدو بأقصى سرعة العدو.

{فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ} أسد، أو عصبة قنص من الرماة.

عن يوسف بن مهران عن ابن عباس: الأسد، بالعربية، ويقال له بالحبشية: قسورة، وبالفارسية: شير، وبالنبطية: أويا.

{بَلْ} إضراب انتقالي لذكر حالة أخرى من أحوال عنادهم.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً} ينزل عليه كتاب كما أنزل على النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، ونحوه آية:

{وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ} [الأنعام:١٢٤]

{وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ} [الإسراء:٩٣]

{وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ} [الأنعام:٧] الآية.

والمنشرة: المفتوحة المقروءة، أي لا نكتفي بصحيفة مطوية لا نعلم ما كتب فيها و {منشرة} مبالغة في منشورة. والمبالغة واردة على ما يقتضيه فعل "نشر" المجرد من كون الكتاب مفتوحا واضحا من الصحف المتعارفة. وفي حديث الرجم: "فنشروا التوراة".

{كَلَّا} إبطال لظاهر كلامهم ومرادهم منه وردع عن ذلك، أي: لا يكون مرادهم، ولا يتبع الحق أهوائهم. أو ليس إرادتهم تلك للرغبة في الإيمان، فقد جاءهم ما يكفيهم عن اقتراح غيره، وإنما هم مردة الداء، ولذا قال:

{بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ} لا يؤمنون بالبعث والجزاء، ولا يخشون العقاب، لإيثارهم العاجلة. فذلك الذي دعاهم إلى الإعراض عن تذكرة الله، والإباء عن الإيمان بتنزيله.

{كَلَّا} ردع ثان مؤكد للردع الذي قبله عن إعراضهم {إِنَّهُ} القرآن {تَذْكِرَةٌ} التنكير للتعظيم.

{فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ} اتعظ وعمل بما فيه من أمر الله ونهيه. ونظيره قوله تعالى: {إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً} [المزمل:١٩].

وهذا تعريض بالترغيب في التذكر، أي التذكر طوع مشيئتكم فإن شئتم فتذكروا.

{وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} ذكرهم واتعاظهم، لأنه لا حول لهم ولا قوة إلا به سبحانه. وهذا كقوله: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ} [الإنسان:٣٠].

وأفاد أن للناس مشيئة هي مناط التكاليف الشرعية والجزاء في الدنيا والآخرة، وأن لله تعالى المشيئة العظمى التي لا يمانعها مانع ولا يقسرها قاسر، فإذا لم يتوجه تعلقها إلى إرادة أحد عباده لم يحصل له مراد.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وهذا حاصل ما يتمخض من الجمع بين أدلة الشريعة المقتضية أن الأمر لله، والأدلة التي اقتضت المؤاخذة على الضلال، وتأويلها الأكبر في قوله تعالى: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً، مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} [النساء: ٧٨-٧٩]

وفيه ترويح لقلبه صلوات الله وسلامه عليه، مما كان يخامره من إعراضهم، ويحرص عليه من إيمانهم.

{هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى} حَقيقٌ بأن يتقى عقابه، ويؤمن به ويطاع.

جملة واقعة في موقع التعليل لمضمون جملة {فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ} تقوية للتعريض بالترغيب في التذكر، والتذكر يفضي إلى التقوى.

فالمعنى: فعليكم بالتذكر واتقوا الله تعالى لأن الله هو أهل التقوى.

{وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} حقيق بأن يغفر لمن آمن به وأطاعه.. لأن المغفرة من خصائصه وأنه حقيق بأن يغفر لفرط رحمته وسعة كرمه وإحسانه.

وهذا تعريض بالتحريض للمشركين أن يقلعوا عن كفرهم بأن الله يغفر لهم ما أسلفوه قال تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ} [لأنفال: ٣٨]

وبالتحريض للعصاة أن يقلعوا عن الذنوب قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر:٥٣].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بسم الله الرحمن الرحيم

# مع سورة القيامة

عنونت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة بـ «سورة القيامة» لوقوع القسم بيوم القيامة في أولها، ولم يقسم به فيما نزل قبلها من السور.

وقال الآلوسي: يقال لها «سورة لا أقسم»، ولم يذكرها صاحب الإتقان في عداد السور ذات أكثر من اسم.. وهي مكية بالاتفاق.

**لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦)**

{لَا أُقْسِمُ} «لا» إما مزيدة للتأكيد. وتقوية الكلام، كقول: "لا والله"، وقد عهدت زيادتها في كلامهم.

وإما {لا أقسم} بتمامها صيغة من صيغ القسم، على ما ارتضاه بعض المحققين.

ويقال أن كل يمين قبلها رد كلام فلا بد من تقديم {لا} قبلها ليفرق بذلك بين اليمين التي تكون جحدا واليمين التي تستأنف، ألا ترى أنك تقول مبتدئا: "والله إن الرسول لحق" وإذا قلت: "لا والله إن الرسول لحق" فكأنك أكذبت قوما أنكروه.

قال ابن كثير: المقسم عليه إذا كان منتفيًا، جاز الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفي. والمقسوم عليه هاهنا هو إثبات الميعاد، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بَعث الأجساد.

ولعل أرجح هذه الأوجه كلها أنها لتوكيد القسم كما ذكر ابن جرير عن نحويي الكوفة والله تعالى أعلم.

{بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} افتتاح السورة بالقسم مؤذن بأن ما سيذكر بعده أمر مهم لتستشرف له نفس السامع، كما تقدم في عدة مواضع من أقسام القرآن.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وَكَوْنُ القسم بيوم القيامة «براعة استهلال» لأن غرض السورة بيوم القيامة.

{وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} المراد نفوس المؤمنين. ووصف «اللوامة» مبالغة لأنها تكثر لوم صاحبها على التقصير في التقوى والطاعة.. فهذه نفوس خيرة حقيقة أن تشرف بالقسم بها. ومناسبة القسم بها مع يوم القيامة إنها النفوس ذات الفوز في ذلك اليوم.

قال الحسن البصري: إن المؤمن –والله– ما نراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ وإن الفاجر يمضي قُدُما ما يعاتب نفسه.

وعن سعيد بن جُبَير: تلوم على الخير والشر.

وعن مجاهد: تندم على ما فات وتلوم عليه.

وقال جُوَيْبر: بلغنا عن الحسن أنه قال في قوله: {وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} قال: ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا يلوم نفسه يوم القيامة.

قال القاشانيّ: جمع بين القيامة والنفس اللوامة، في القسم بهما، تعظيماً لشأنهما، وتناسباً بينهما؛ إذ النفس اللوامة هي المصدقة بها، المقرة بوقوعها المهيئة لأسبابها، لأنها تلوم نفسها أبداً في التقصير، والتقاعد عن الخيرات، وإن أحسنت، لحرصها على الزيادة في الخير، وأعمال البر، تيقناً بالجزاء، فكيف بها إن أخطأت وفرطت وبدرت منها بادرة غفلة ونسياناً.

{أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ} الكافر {أَلَّنْ} «لن» حرف دال على تأكيد النفي لحكاية اعتقاد المشركين استحالة جمع العظام بعد رمامها وتشتتها.

{نَجْمَعَ عِظَامَهُ} الجملة جواب القسم.. أي: أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة يوم القيامة؟!

والعظام: كناية عن الجسد كله، وإنما خصت بالذكر لحكاية أقوالهم: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} [يس:٧٨] {أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ} [الاسراء:٤٩] {أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً} [النازعات:١١] فهم احتجوا باستحالة قبول العظام للإعادة بَعْدَ الْبِلَى، على أن استحالة إعادة اللحم



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

والعصب والفؤاد بالأولى. فإثبات إعادة العظام اقتضى أن إعادة بقية الجسم مساو لإعادة العظم، وفي ذلك كفاية من الاستدلال مع الإيجاز.

وجاءه الجواب: {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [يس:٧٩].

{بَلَى} حرف إبطال للنفي {قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ} والتسوية: تقويم الشيء وإتقان الخلق، قال تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا} [الشمس:٧] وقال في هذه السورة {فَخَلَقَ فَسَوَّى} [القيامة: ٣٨]. وأريد بالتسوية إعادة خلق البنان مقومة متقنة.

{بَنَانَهُ} بلى! نجمع عظامه، وقادرين تسوية بنانه التي هي أطراف خلقته وتمامها، على صغرها ولطافتها، وضم بعضها إلى بعض، فكيف بكبار العظام؟.. وهذا أبلغ في القدرة وأبلغ في الإلزام بيوم القيامة.

{بَلْ} إضراب انتقالي إلى ذكر حال آخر من أحوال فجورهم.

{يُرِيدُ الْإِنْسَانُ} إخبارا عما في نفوس أهل الشرك من محبة الاسترسال فيما هم عليه من الفسق والفجور والتكذيب.

{لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ} الفجور: فعل السوء الشديد ويطلق على الكذب، ومنه وصفت اليمين الكاذبة بالفاجرة، وروي عن ابن عباس: الكافر يكذب بما أمامه من يوم الحساب.

والمعنى الأغلب: يريد أن يبقى على الفجور فيما يستقبل من أيام عمره، قال ابن جبير: "يقدم الذنب ويؤخر التوبة. يقول سوف أتوب، سوف أتوب، حتى يأتيه الموت على شر أحواله وأسوأ أعماله".

وفي فتح القدير للشوكاني: "والمعنى: بل يريد الإنسان أن يقدم فجوره فيما بين يديه من الأوقات، وما يستقبله من الزمان، فيقدم الذنب ويؤخر التوبة، قال ابن الأنباري: يريد أن يفجر ما امتد عمره، وليس في نيته أن يرجع عن ذنب يرتكبه، قال مجاهد، والحسن، وعكرمة، والسدي، وسعيد بن جبير: يقول: سوف أتوب ولا يتوب حتى يأتيه الموت، وهو على أشر أحواله، قال الضحاك: هو الأمل، يقول: سوف



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أعيش وأصيب من الدنيا، ولا يذكر الموت، والفجور: أصله الميل عن الحق، فيصدق على كل من مال عن الحق بقول أو فعل".اهـ.

وقال القاشانيّ: أي: ليدوم على الفجور بالميل إلى اللذات البدنية، والشهوات البهيمية، غارزاً رأسه فيها، فيما بين يديه من الزمان الحاضر والمستقبل، فيغفل عن القيامة لقصور نظره عنها، وكونه مقصوراً على اللذات العاجلة، وفرط تهالكه عليها، واحتجابه بها عن الآجلة، سائلاً عنها، متعنتاً مستبعداً إياها، كما قال سبحانه:

{يَسْأَلُ أَيَّانَ} اسم استفهام عن الزمان البعيد، بمعنى: «متى».

{يَوْمُ الْقِيَامَةِ} متى يكون؟ استبعاداً وهزؤاً، وتكذيبا لوجوده، كما قال تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ} [سبأ:٢٩-٣٠].

**فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (١٥)**

عدل عن أن يجابوا بتعيين وقت ليوم القيامة إلى أن يهددوا بأهواله، لأنهم لم يكونوا جادين في سؤالهم فكان من مقتضى حالهم أن ينذروا بما يقع من الأهوال عند حلول هذا اليوم مع تضمين تحقيق وقوعه، فإن كلام القرآن إرشاد وهدى ما يترك فرصة للهدي والإرشاد إلا انتهزها.

وفيه تعريض بالتوبيخ على أن فرطوا في التوقي من ذلك اليوم واشتغلوا بالسؤال عن وقته. وقريب منه ما روي أن رجلا من المسلمين سأل رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: متى الساعة؟ فقال له: (ماذا أعددت لها).

فإن هذه الأحوال المذكورة في الآية مما يقع عند حلول الساعة وقيام القيامة، فكان ذلك شيئا من تعيين وقته بتعيين أشراطه.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ} بكسر الراء وفتحها:

فبالكسر: فزع ودهش وتحير، أصله من برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره.. قال ابن كثير: ينظرون من الفزع هكذا وهكذا، لا يستقر لهم بصر من شدة الرعب.

وبالفتح: شق بصره، وهو من البريق بمعنى اللمعان. أي: لمع بصره من شدة شخوصه.

والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الأهوال، ومن عظم ما تشاهده من الأمور العظام.

كما قال تعالى: {وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [الأنبياء:٩٧]. أي: دنا يوم القيامة وبدَتْ أهواله فإذا أبصار الكفار مِن شدة الفزع مفتوحة لا تكاد تَطْرِف.

والتعريف في {البصر} للجنس المراد به الاستغراق، أي أبصار الناس كلهم من الشدة الحاصلة في ذلك الوقت، على أنهم متفاوتون في الرعب الحاصل لهم على تفاوتهم فيما يعرضون عليه من طرائق منازلهم.

{وَخَسَفَ الْقَمَرُ} أريد به انطماس نوره انطماسا مستمرا بسبب تزلزله من مداره حول الأرض الدائرة حول الشمس بحيث لا ينعكس عليه نورها ولا يلوح للناس نَيِّرًا، وهو ما دل عليه قوله: {وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ}، فهذا الخسوف ليس هو خسوفه المعتاد عندما تحول الأرض بين القمر وبين مواجهته الشمس.

{وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} يجتمعان ثم يكوران، كما قال جل ثناؤه: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} [التكوير:١]، قال ابن زيد: جمعا فرمي بهما في الأرض.

قال ابن عاشور –رحمه الله–: التصاق القمر بالشمس فتلتهمه الشمس لأن القمر منفصل من الأرض التي هي من الأجرام الدائرة حول الشمس كالكواكب ويكون ذلك بسبب اختلال الجاذبية التي وضع الله عليها النظام الشمسي.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{يَقُولُ الْإِنْسَانُ} وأعيد لفظ {الْإِنْسَانُ} إظهارا في مقام الإضمار لأن المقام لتقريعه والتعجيب في ضلاله. وكرر لفظ {الْإِنْسَانُ} في هذه السورة خمس مرات لذلك.

{يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ} الفرار. أي: يطلب مهرباً ومحيصاً لدهشته، فالاستفهام مستعمل في التمني، أي ليت لي فرارا في مكان نجاة، ولكنه لا يستطيعه.

أو يقول قول الآيس لعلمه بأنه لا فرار حينئذ.

وذكر {يومئذ} مع أن قوله: {إِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ} الخ مغن عنه، للاهتمام بذكر ذلك اليوم الذي كانوا ينكرون وقوعه ويستهزئون فيسألون عن وقته، وللتصريح بأن حصول هذه الأحوال الثلاثة في وقت واحد.

وطوي التصريح بأن ذلك حلول يوم القيامة اكتفاء بذكر ما يدل عليه وهو قولهم {أَيْنَ الْمَفَرُّ} فكأنه قيل: حل يوم القيامة، وحضرت أهواله، ويقول الإنسان يومئذ ثم تأكد بقوله إلى: {إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ}.

{كَلَّا} ردع له وإبطال للطمع في أن يجد للفرار سبيلا {لَا وَزَرَ} لا ملجأ. وأصله المكان الذي يلجأ إليه للتوقي من إصابة مكروه مثل الجبال والحصون.

وهذه كقوله: {مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ} [الشورى:٤٧] أي: ليس لكم مكان تتنكرون فيه، وكذا قال هاهنا {لا وَزَرَ} أي: ليس لكم مكان تعتصمون فيه.

{إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ} المرجع والمصير، أي: مستقر العباد، من نار أو جنة.. مفوض إليه لا إلى غيره مستقرهم، أو استقرار أمرهم، والحكم فيهم.

وهذا كلام من جانب الله تعالى خاطب به النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الدنيا بقرينة قوله: {يَوْمَئِذٍ}، فهو اعتراض وإدماج للتذكير بملك ذلك اليوم.

وفي إضافة «رب» إلى ضمير النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إيماء إلى أنه ناصره يومئذ بالانتقام من الذين لم يقبلوا دعوته.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وتقديم المجرور لإفادة الحصر، أي إلى ربك لا إلى ملجأ آخر. والمعنى: لا ملجأ يومئذ للإنسان إلا منتهيا إلى ربك، وهذا كقوله تعالى: {وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} [آل عمران:٢٨].

{يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ} من عمله الذي يوجب نجاته وثوابه، من الخيرات والصالحات، كقوله تعالى: {يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} [الفجر:٢٤]

{وَأَخَّرَ} ما تركه مما أمر بفعله أو نهي عن فعله في الحالين فخالف ما كلف به، وفي الحديث الشريف: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ) [البخاري]

أو كقوله تعالى: {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} [الزمر:٤٨]

قال ابن كثير: يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها، كما قال تعالى: {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف:٤٩]

أو ما قدمه: ما عمله، وما أخره: عمل من اقتدى به بعده عملاً له، كأنه وقع منه.

وتنبئة الإنسان بما قدم وأخر كناية عن مجازاته على ما فعله: إن خيرا فخير وإن سوءا فسوء، كما قال تعالى: {قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ} [التغابن:٧] ويحصل في ذلك الإنباء تقريع وفضح لحاله.

{بَلِ} إضراب انتقالي للترقي إلى الإخبار بأن الكافر يعلم ما فعله.

{الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ} هو شهيد على نفسه، عالم بما فعله.. والهاء للمبالغة مثل هاء: علامة ونسابة، أي الإنسان عليم بصير، قوي العلم بنفسه يومئذ.

وعدي بحرف {على} لتضمينه معنى المراقبة وهو معنى قوله في الآية الأخرى: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء:١٤]

قال القاشانيّ: أي: حجة بينة، يشهد بعلمه، لبقاء هيئات أعماله المكتوبة عليه في نفسه، ورسوخها في ذاته، وصيرورة صفاته صور أعضائه، فلا حاجة إلى أن ينبأ من خارج.

وقد جرت هذه الآية مجرى المثل لإيجازها ووفرة معانيها.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} هو بصير على نفسه حتى لو ألقى أعذاره مجادلاً عن نفسه بكل معذرة.

كما قال تعالى: {يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [غافر:٥٢]

وقد بين تعالى بعض معاذيرهم تلك في مثل قوله تعالى:

{ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام:٢٣]

{يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [المجادلة:١٨]

{قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ} [القصص:٦٣].. أي: قال الذين حقَّ عليهم العذاب، وهم دعاة الكفر: ربنا هؤلاء الذين أضللنا، أضللناهم كما ضللنا، تبرأنا إليك مِن ولايتهم ونصرتهم، ما كانوا إيانا يعبدون، وإنما كانوا يعبدون الشياطين.

وقوله {فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ} [الصافات:٣٢].. أي: أضللناكم عن سبيل الله والإيمان به، إنا كنا ضالين من قبلكم، فهلكنا؛ بسبب كفرنا، وأهلكناكم معنا.

وقوله {قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ} [المؤمنون:١٠٦-١٠٨].

{وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ} [تبارك:١٠-١١].

وفيه إشارة إلى أن ما عليه المشركون من الشرك وعبادة الأوثان، وإنكار البعث، منكر باطل، تنكره قلوبهم، وأنهم في دفاعهم يجادلون بالباطل. ولا غرو أن ينكر القلب ما تدفعه الفطرة السليمة، والدين دين الفطرة.

قال الشهاب: شبه المجيء بالعذر بإلقاء الدلو في البئر للاستقاء به، فيكون فيه تشبيه لذلك بالماء المرويّ للعطش.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)

{لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي، لتأخذه على عجلة، مخافة أن يتفلت منك.

{إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ} في صدرك، وإثبات حفظه في قلبك، بحيث لا يذهب عليك منه شيء.

{وَقُرْآنَهُ} أن تقرأه بعدُ فلا تنسى.

{فَإِذَا قَرَأْنَاهُ} أتممنا قراءته عليك، وتلاه عليك جبريل عن الله عز وجل، فأسندت القراءة إلى ضمير الجلالة على طريقة المجاز، والقرينة واضحة.

{فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} فاستمع له وأنصت، ثم اقرأه كما أقرأك.

{ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا} في الموضعين للتكفل والتعهد {بَيَانَهُ} نُبَيِّنَهُ على لسانك، أو بيان ما فيه، إذا أشكل عليك شيء من معانيه.

روى البخاري عن عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يُعَالِجُ مِنْ التَّنْزِيلِ شِدَّةً وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَنَا أُحَرِّكُهُمَا لَكُمْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يُحَرِّكُهُمَا، وَقَالَ سَعِيدٌ أَنَا أُحَرِّكُهُمَا كَمَا رَأَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يُحَرِّكُهُمَا، فَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} قَالَ جَمْعُهُ لَكَ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأَهُ {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} قَالَ فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كَمَا قَرَأَهُ.

قال ابن زيد: أي: لا تكلم بالذي أوحينا إليك حتى يقضى إليك وحيُه، فإذا قضينا إليك وحيه، فتكلم به. يعني: أن هذه الآية نظير قوله تعالى: {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً} [طه:١١٤].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال ابن كثير: وهكذا قال الشعبي والحسن البصري وقتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد، أن هذه الآية نزلت في ذلك، وأنها تعليم من الله –عز وجل– لرسوله كيفية تلقيه الوحي.

وذكروا في مناسبة وقوع الآية معترضة في أحوال القيامة –على تأويلهم المتقدم– وجوهاً:

** منها: تأكيد التوبيخ على ما جبل عليه الْإِنْسَانْ – والمرء مفتون بحب العاجل – حتى جعل مخلوقاً من عَجَل، ومن محبة العاجل، وإيثاره على الآجل، تقديم الدنيا الحاضرة على الآخرة، الذي هو منشأ الكفر والعناد، المؤدي إلى إنكار الحشر والمعاد؛ فالنهي عن العجلة في هذا يقتضي النهي فيما عداه، على آكد وجه. وهذه مناسبة تامة بين ما اعترض فيه وبينه، قاله الشهاب.

** ومنها: أن عادة القرآن، إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد، حيث يعرض يوم القيامة، أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها المحاسبة عملاً وتركاً.

كما قال في الكهف: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ} [الكهف:٤٩]، إلى أن قال: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ} [الكهف:٥٤].

وقال في طه: {يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً} [طه:١٠٢]، إلى أن قال: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً} [طه:١١٤].

** ومنها: أن أول السورة لما نزل إلى قوله: {وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} صادف أنه – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في تلك الحالة بادر إلى تحفظ الذي نزل، وحرَّك به لسانه من عجلته خشية من تفلته، فنزلت: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ} إلى قوله: {ثم إنا علينا بيانه} ثم عاد الكلام إلى تكملة ما ابتدأ به.

قال الفخر الرازي: ونحوه ما لو ألقى المدرِّس على الطالب مثلاً مسألة، فتشاغل الطالب بشيء عرض له فقال له: ألق إليّ بالك، وتفهم ما أقول، ثم كمَّل المسالة،



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فمن لا يعرف السبب يقول: ليس هذا الكلام مناسب للمسالة، بخلاف من عرف ذلك. قاله الحافظ ابن حجر في «فتح الباري».

** وقال في التحرير والتنوير: والذي يلوح لي في موقع هذه الآية هنا دون أن تقع فيما سبق نزوله من السور قبل هذه السورة: إن سور القرآن حين كانت قليلة كان النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لا يخشى تفلت بعض الآيات عنه فلما كثرت السور فبلغت زهاء ثلاثين حسب ما عده سعيد بن جبير في ترتيب نزول السور، صار النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يخشى أن ينسى بعض آياتها، فلعله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أخذ يحرك لسانه بألفاظ القرآن عند نزوله احتياطا لحفظه وذلك من حرصه على تبليغ ما أنزل إليه بنصه. فلما تكفل الله بحفظه أمره أن لا يكلف نفسه تحريك لسانه، فالنهي عن تحريك لسانه نهي رحمة وشفقة لما كان يلاقيه في ذلك من الشدة.

## كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)

ثم الرجوع إلى مهيع أو واسع الكلام الذي بنيت عليه السورة كما يرجع المتكلم إلى وصل كلامه بعد أن قطعه عارض أو سائل.

{كَلَّا} ردع وإبطال. يجوز أن يكون إبطالا لما سبق في قوله: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ} إلى قوله: {وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} فأعيد {كَلَّا} تأكيدا لنظيره ووصلا للكلام بإعادة آخر كلمة منه.

{بَلْ} إضراب إبطالي يفصل ما أجمله الرد بـ {كَلَّا} من إبطال ما قبلها وتكذيبه.

{تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ} الدنيا العاجلة، بإيثار شهواتها {وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ} أي لا معاذير لهم في نفس الأمر، ولكنهم أحبوا العاجلة، أي شهوات الدنيا وتركوا الآخرة، بالإعراض عن الأعمال التي تورث منازلها، ونسيان وعيدها، وهول حسابها وجزائها.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

والكلام مشعر بالتوبيخ، ومناط التوبيخ هو حب العاجلة مع نبذ الآخرة، فأما لو أحب أحد العاجلة وراعى الآخرة، أي جرى على الأمر والنهي الشرعيين لم يكن مذموما.

قال تعالى فيما حكاه عن الذين أوتوا العلم من قوم قارون: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} [القصص: ٧٧].

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ} يوم القيامة {نَاضِرَةٌ} من النضارة، أي حسنة بَهِيَّة مشرقة مسرورة جميلة من أثر النعيم والفرح.

قال تعالى في أهل السعادة: {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ} [المطففين: ٢٤] لأن ما يحصل في النفس من الانفعالات يظهر أثره.

{إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} مشاهدة إياه تراه عيانا، وترى جمال ذاته العلية، ونور وجهه الكريم.. إعلانا بتشريف تلك الوجوه أنها تنظر إلى الله تعالى نظرا خاصا لا يشاركها فيه من يكون دون رتبتهم.

تقديم المجرور على عامله للاهتمام بهذا العطاء العجيب، وليس للاختصاص لأنهم يرون بهجات كثيرة في الجنة.

وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله –عز وجل– في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح، من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعها ولا منعها.

ففي صحيح البخاري بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}.

عَنْ جَرِيرٍ قَالَ كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ قَالَ: (إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَافْعَلُوا).

عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا).



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

عن جَرِيرٌ قَالَ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ: (إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّاسَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟) قَالُوا لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: (فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟) قَالُوا لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: (فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: (هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ إِذَا كَانَتْ صَحْوًا؟) قُلْنَا لَا. قَالَ: (فَإِنَّكُمْ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَتِهِمَا).

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ وَلَا حِجَابٌ يَحْجُبُهُ). [انتهى من صحيح البخاري]

وروى مسلم عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ)

وفي مسلم عَنْ صُهَيْبٍ عَنْ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ. قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ).

حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ وَزَادَ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}.

وفي حديث جابر: (.. فَتُدْعَى الْأُمَمُ بِأَوْثَانِهَا وَمَا كَانَتْ تَعْبُدُ الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ ثُمَّ يَأْتِينَا رَبُّنَا بَعْدَ ذَلِكَ فَيَقُولُ: مَنْ تَنْظُرُونَ؟ فَيَقُولُونَ نَنْظُرُ رَبَّنَا. فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فَيَقُولُونَ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَيْكَ فَيَتَجَلَّى لَهُمْ يَضْحَكُ [يعني في عرصات القيامة] قَالَ فَيَنْطَلِقُ بِهِمْ وَيَتَّبِعُونَهُ) [انتهى من صحيح مسلم]

ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم عز وجل في العرصات، وفي روضات الجنات.

قال ابن كثير: ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن، ولكن ذكرنا ذلك مفرقا في مَواضِعَ من هذا التفسير، وبالله التوفيق.

وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام. وهُدَاة الأنام.

ومن تأول ذلك بأن المراد بـ {إِلَى} مفرد الآلاء، وهي النعم، كما قال الثوري، عن منصور، عن مجاهد: {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} فقال تنتظر الثواب من ربها. رواه ابن جرير من غير وجه عن مجاهد. وكذا قال أبو صالح أيضا –فقد أبعد هذا القائل النُّجْعَة [النجعة، بوزن الرقعة: طلب الكلأ في موضعه]، وأبطل فيما ذهب إليه. وأين هو من قوله تعالى: {كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين:١٥]

قال الشافعي –رحمه الله–: "ما حَجَب الفجار إلا وقد عَلم أن الأبرار يرونه عز وجل".

ثم قد تواترت الأخبار عن رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بما دل عليه سياق الآية الكريمة، وهي قوله: {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}

قال ابن جرير: حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا آدم، حدثنا المبارك عن الحسن: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ} قال: حسنة، {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} قال: "تنظر إلى الخالق، وحُقّ لها أن تَنضُر وهي تنظر إلى الخالق". [تفسير ابن كثير]

قال ابن عاشور: ولعلماء الإسلام في ذلك أفهام مختلفة، فأما صدر الأمة وسلفها فإنهم جروا على طريقتهم التي تخلقوا بها في سيرة النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– من الإيمان بما ورد من هذا القبيل على إجماله، وصرف أنظارهم عن التعمق في حقيقته، وإدراجه تحت أقسام الحكم العقلي، وقد سمعوا هذا ونظائره كلها أو



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بعضها أو قليلا منها، فما شغلوا أنفسهم به ولا طلبوا تفصيله، ولكنهم انصرفوا إلى ما هم أحق بالعناية وهو التهمم بإقامة الشريعة وبثها وتقرير سلطانها، مع الجزم بتنزيه الله تعالى على اللوازم العارضة لتلك الصفات، جاعلين أمامهم المرجوع إليه في كل هذا قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى:١١]

{وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ} كالحة، لجهامة هيئاتها، وهول ما تراه هناك من الأهوال، وأنواع العذاب والخسران.

{تَظُنُّ} تستيقن {أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ} داهية تقصِم فقارَ الظهر، لشدتها وسوء حالها ووبالها. وشتان ما بين المرتبتين! وهذا المقام كقوله:

{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [آل عمران:١٠٦]

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ} [عبس:٣٨-٤٢]

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً} إلى قوله: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} [الغاشية:٢-١٠] في أشباه ذلك من الآيات والسياقات.

**كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٥)**

{كَلَّا} ردع ثان على قول الإنسان: {أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ} [القيامة:٦]، مؤكد للردع الذي قبله في قوله: {كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ} [القيامة:٢٠]. ومعناه زجر عن إحالة البعث فإنه واقع غير بعيد فكل أحد يشاهده حين الاحتضار للموت.

وعن المغيرة بن شعبة: "يقولون: القيامة القيامة، وإنما قيامة أحدهم موته".

وعن علقمة أنه حضر جنازة فلما دفن قال: "أما هذا فقد قامت قيامته"



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أو بمعنى «حقا»، أي: حقا إذا بلغت التراقي، أي: انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك.

{إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ} جمع ترقوة، وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق، ولكل إنسان ترقوتان عن يمينه وعن شماله، فالجمع هنا مستعمل في غير التثنية لقصد تخفيف اللفظ، وقد أمن اللبس، لأن في تثنية ترقوة شيئا من الثقل لا يناسب أفصح كلام، وهذا مثل ما جاء في قوله تعالى: {فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} [التحريم:٤].

فيكنى ببلوغ النفس التراقي، عن القرب من الموت، فالروح إذا بلغت الحنجرة حيث تخرج الأنفاس الأخيرة فلا يسمع صوتها إلا في جهة الترقوة وهي آخر حالات الاحتضار، ونظيره قوله تعالى: {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ} [الواقعة:٨٣]

وإضمارها النفس أو الروح –وإن لم يجر لها ذكر– لدلالة السياق عليها، كقول حاتم:

لعُمرك مَا يُغْني الثَّراءُ عَنِ الفَتَى ** إذا حَشرَجَتْ يَوْمَاً وَضاقَ بِها الصدَّرُ

فقد يترك التصريح للعلم كما في قوله تعالى: {إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} [ص:٣٢]، أي الشمس، وهكذا هنا فلمعرفتها بالقرائن ترك التصريح بالروح أو النفس.

وقد صرح تعالى بذلك في قوله: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ} [الأنعام:٩٣].. (باسطوا أيديهم) إليهم بالضرب والتعذيب يقولون لهم تعنيفا (أخرجوا أنفسكم) إلينا لنقبضها.

{وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ} وقال أهله: من ذا يَرقيه ليشفيه مما قد نزل به، وطلبوا له الأطباء والمداويين، فلم يغنوا عنه من أمر الله الذي قد نزل به شيئاً. فالاستفهام بمعنى الطلب لراقٍ أو طبيب.

والرقية: كلام خاص معتقد نفعه، يقوله قائل عند المريض، واضعا يده في وقت القراءة على موضع الوجع من المريض أو على رأس المريض.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وأصل الرقية: ما ورثه العرب من طلب البركة بأهل الصلاح والدعاء إلى الله، فأصلها وارد من الأديان السماوية، ثم طرأ عليها سوء الوضع عند أهل الضلالة فألحقوها بالسحر أو بالطب، ولذلك يخلطونها من أقوال ربما كانت غير مفهومة، ومن أشياء كأحجار أو أجزاء من عظم الحيوان أو شعره، فاختلط أمرها بالأمم الجاهلة، وقد جاء في الإسلام الاستشفاء بالقرآن والدعوات المأثورة المتقبلة من أربابها وذلك من قبيل الدعاء.

{وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ} وأيقن الذي قد نزل ذلك به أنه فراق الدنيا والأهل والمال بالموت.

{وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ} الْتوَت ساقه بساقه، فلا يقدر على تحريكها.

وقيل: هما ساقاه، إذا التفتا في الكفن.. فالمعنى التفاف ساقي المحتضر بعد موته إذ تلف الأكفان على ساقيه ويقرن بينهما في ثوب الكفن فكل ساق منها ملتفة صحبة الساق الأخرى، فالتعريف عوض عن المضاف إليه، وهذا نهاية وصف الحالة التي تهيأ بها لمصيره إلى القبر الذي هو أول مراحل الآخرة.

قال الحسن البصري: ماتت رجلاه فلم تحملاه، وقد كان عليها جوالا.

{إِلَى رَبِّكَ} التفات عن طريق خطاب الجماعة في قوله: {كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ} [القيامة: ٢٠] لأنه لما كان خطابا لغير معين حسن التفنن فيه.

{يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ} المرجع والمآب، وذلك أن الروح ترفع إلى السماوات (فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى". قَالَ: "فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ). كما ورد في حديث البراء الطويل.

وقد قال الله تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} [الأنعام: ٦١-٦٢].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{فَلَا} الفاء للتفريع {صَدَّقَ} بالدِّين والكتاب. مشتق من التصديق، وهو المناسب لقوله بعده: {وَلَكِنْ كَذَّبَ}

{وَلَا صَلَّى} والصلاة رأس العبادات.. قال أهل العربية: «لا» هاهنا في موضع «لم»، أي: لم يصدق ولم يصلّ.

{وَلَكِنْ كَذَّبَ} بدل التصديق {وَتَوَلَّى} بدل الصلاة التي بها كمال التوجه إلى الله تعالى.

وقيل: الإعراض عن دعوته إلى النظر والتدبر في القرآن. ففيها تأكيد وزيادة معنى.

دلت الآية على أن الكافر يستحق الذم والعقاب بترك الصلاة، كما يستحقهما بترك الإيمان.

{ثُمَّ} مع هذه التقصيرات في جنب الله تعالى.

{ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى} يتبختر في مشيته ويختال. وأصله يتمطط، أي: يتمدد، لأن المتبختر يمد خطاه، وهي مشية المعجب بنفسه.. أي: وذهب إلى أهله مزدهيا بنفسه غير مفكر في مصيره.

كما قال تعالى: {وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ} [المطففين: ٣٤].

وقال: {إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ [أي: يرجع] بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا} [الانشقاق: ١٣ -١٥].

قال الرازي: إنه تعالى شرح كيفية عمله فيما يتعلق بأصول الدين وفروعه، وفيما يتعلق بدنياه. أما ما يتعلق بأصول الدين فهو أنه ما صدق بالدين، ولكن كذب به. وأما ما يتعلق بفروع الدين فهو أنه ما صلى، ولكنه تولى وأعرض. وأما ما يتعلق بدنياه، فهو أنه ذهب إلى أهله يتمطى ويختال في مشيته.

{أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى} كلمة تهديد وتخويف يخاطب به من أشرف على هلاك فيحث به على التحرز، أو يخاطب به من نجا ذليلا منه فينهى عن مثله ثانيا.

وأكثر ما يستعمل مكررا، وكأنه حث على تأمل ما يئول إليه أمره ليتنبه للتحرز منه.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقيل: ويل لك، وأصله: أولاك الله ما تكره، واللام مزيدة. أو: أولى الهلاك لك فأولى، وقيل: هو مقلوب من الويل، وقيل: أولى بالعذاب وأحق به، وقيل: من الوَلى، وهو القرب أي: قاربه ما يهلكه.. قال الأصمعي معناه: قاربك ما تكره.

والتكرير للتأكيد، كأنه قيل: ويل لك فويل لك ثم ويل لك فويل لك.

{ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى} أيْ يتكررُ عليهِ ذلكَ مرةً بعدَ أُخْرَى.

وجيء بحرف {ثم} لعطف الجملة دلالة على أن هذا التأكيد ارتقاء في الوعيد، وتهديد بأشد مما أفاده التهديد وتأكيده، كقوله تعالى: {كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ} [التكاثر: ٣-٤].

**أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠)**

{أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ} استفهام استنكاري {أَنْ يُتْرَكَ سُدًى} هَمَلاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يجازى، مع أنه الْإِنْسَانْ الذي أُودع العقل وعُلِّم البيان، وغُرز في طبعه أن يعيش مجتمعاً، وخُص من المواهب ما فضل على غيره. فمن تمام الإحسان إليه إنقاذه من حيرته، وإعلامه بسبيل هدايته، وأن لا يترك خابطاً في متاهة جهالته، وقد كان ذلك بفضل الله ونعمته.

ومعنى هذا مثل قوله تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ} [المؤمنون:١١٥].

والمقصود هنا إثبات المعاد، والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد، ولهذا قال مستدلا على الإعادة بالبداءة فقال:

{أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى} يصبّ ويراق في الرحم {ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً} القطعة الصغيرة من الدم المنعقد.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

و {ثم} للدلالة على التراخي الرتبي، فإن كونه علقة أعجب من كونه نطفة لأنه صار علقة بعد أن كان ماء فاختلط بما تفرزه رحم الأنثى من البويضات فكان من مجموعهما علقة.

{فَخَلَقَ} قدّر أعضاءه {فَسَوَّى} سوى تلك الأعضاء لأعمالها وعدّلها.

{فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ} الصنفين {الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى} لبقاء نوعه، يعمر الدنيا إلى الأجل الذي كتبه وقدره.

{أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} فيوجدهم بعد مماتهم لعمارة الآخرة.. والجملة واقعة موقع النتيجة من الدليل. والاستفهام إنكار تقرير بالإثبات.

روى أبو داود عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عَائِشَةَ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يُصَلِّي فَوْقَ بَيْتِهِ، وَكَانَ إِذَا قَرَأَ: {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} [القيامة: ٤٠]، قَالَ: «سُبْحَانَكَ فَبَلى»، فَسَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-»، قَالَ أَبُو دَاوُدَ: "قَالَ أَحْمَدُ: يُعْجِبُنِي فِي الْفَرِيضَةِ أَنْ يَدْعُوَ بِمَا فِي الْقُرْآنِ".

وقد جاء في هذا الختام بمحسن رد العجز على الصدر، فإن السورة افتتحت بإنكار أن يحسب المشركون استحالة البعث، ويسلسل الكلام في ذلك بأفانين من الإثبات والتهديد والتشريط والاستدلاال، إلى أن أفضى إلى استنتاج أن الله قادر على أن يحيي الموتى.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بسم الله الرحمن الرحيم

# مع سورة الإنسان

تسمى أيضا «سورة الدهر» في كثير من المصاحف.

وقال الخفاجي تسمى «سورة الأمشاج»، لوقوع لفظ الأمشاج فيها ولم يقع في غيرها من القرآن.

وذكر الطبرسي: أنها تسمى «سورة الأبرار»، لأن فيها ذكر نعيم الأبرار وذكرهم بهذا اللفظ.

قال ابن عاشور: "والأصح أنها مكية فإن أسلوبها ومعانيها جارية على سنن السور المكية، ولا أحسب الباعث على عدها في المدني إلا ما روي من أن آية {يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ} [الإنسان:٨] نزلت في إطعام علي بن أبي طالب بالمدينة مسكينا ليلة، ويتيما أخرى، وأسيرا أخرى، ولم يكن للمسلمين أسرى بمكة حملا للفظ أسير على معنى أسير الحرب، أو ما روي أنه نزل في أبي الدحداح وهو أنصاري، وكثيرا ما حملوا نزول الآية على مثل تنطبق عليها معانيها فعبروا عنها بأسباب نزول".

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّ النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كَانَ يَقْرَأُ فِي الصُّبْحِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِ الم تَنْزِيلُ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى وَفِي الثَّانِيَةِ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنْ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: "إن قراءتهما معا في ذلك اليوم لمناسبة خلق آدم في يوم الجمعة ليتذكر الإنسان في هذا اليوم –وهو يوم الجمعة– مبدأ خلق أبيه آدم ومبدأ خلق عموم الإنسان ويتذكر مصيره ومنتهاه ليرى ما هو عليه من دعوة الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وهل هو شاكر أو كفور" ا هـ ملخصا.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ومضمون ذلك كله أنه –رحمه الله– يرى أن الحكمة في قراءة السورتين في فجر الجمعة أن يوم الجمعة هو يوم آدم عليه السلام فيه خلق وفيه نفخ فيه الروح وفيه أسكن الجنة وفيه أهبط إلى الأرض وفيه تيب عليه وفيه تقوم الساعة.

كما قيل يوم الجمعة يوم آدم ويوم الاثنين يوم محمد –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أي فيه ولد وفيه أنزل عليه وفيه وصل بالمدينة في الهجرة وفيه توفي.

ولما كان يوم الجمعة يوم إيجاد الإنسان الأول ويوم أحداثه كلها إيجادا من العدم وإنعاما عليه بسكنى الجنة وتواجده على الأرض وتلقى التوبة عليه من الله أي يوم الإنعام عليه حسا ومعنى فناسب أن يذكر الإمام بقراءته سورة السجدة في فجر يوم الجمعة لما فيها من قصة خلق آدم في قوله: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ} [السجدة:٧–٩].

وفيها قوله تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [السجدة:١٣]، مما يبث الخوف في قلوب العباد إذ لا يعلم من أي الفريقين هو فيجعله أشد حرصا على فعل الخير وأشد خوفا من الشر.

ثم حذر من نسيان يوم القيامة {فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} [السجدة:١٤].

وهكذا في الركعة الأولى يرجع المسلم إلى أصل وجوده ويستحضر قصة الإنسان الأول.

وكذلك يأتي في الركعة الثاني بقصته هو منذ بدأ خلقه {مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ} ويذكره بالهدى الذي أنزل عليه ويرغبه في شكرانه عليه ويحذره من جحودها وكفرانها.

وقد بين له منتهاه على كلا الأمرين: {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلا وَأَغْلالاً وَسَعِيراً إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً} [الإنسان:٤–٥].

فإذا قرع سمعه ذلك في يوم خلقه ويوم مبعثه حيث فيه تقوم الساعة فكأنه ينظر ويشاهد أول وجوده وآخر ماله فلا يكذب بالبعث.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقد علم مبدأ خلقه ولا يقصر في واجب وقد علم منتهاه وهذا في غاية الحكمة كما ترى.

ومما يشهد لما ذهب إليه رحمه الله اعتبار المناسبات كما في كثير من الأمور كما في قوله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [البقرة:١٨٥]، فجميع الشهور من حيث الزمن سواء ولكن بمناسبة بدء نزول القرآن في هذا الشهر جعله الله محلا للصوم وأكرم فيه الأمة كلها بل العالم كله فتتزين فيه الجنة وتصفد فيه مردة الشياطين وتتضاعف فيه الأعمال.

وكذلك الليلة منه التي كان فيها البدء اختصها تعالى عن بقية ليالي الشهر وهي «ليلة القدر» جعلها الله تعالى خيرا من ألف شهر وما ذاك إلا لأنها كما قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [القدر:١] السورة بتمامها.

**هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)**

{هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ} الزمان الطويل {لَمْ يَكُنْ شَيْئًا} شيئا موجود معبر عنه باسمه المعين له {مَذْكُورًا} أي: في ذلك الحين، بل كان شيئاً منسيّاً، نطفته في الأصلاب.

والاستفهام للتقرير، واتفق المفسرون على أن {هَلْ} هنا بمعنى «قد» أي أن الاستفهام تقريري يستوجب الإجابة عليه بنعم.

وتقديم هذا الاستفهام لما فيه من تشويق إلى معرفة ما يأتي بعده من الكلام.

والمعنى: هل يقر كل إنسان موجود أنه كان معدوما زمانا طويلا، فلم يكن شيئا يذكر، أي لم يكن يسمى ولا يتحدث عنه بذاته، وإن كان قد يذكر بوجه العموم في نحو قول الناس: "المعدوم متوقف وجوده على فاعل". وقول الواقف: "حبست على



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ذريتي"، ونحوه فإن ذلك ليس ذكرا لمعين ولكنه حكم على الأمر المقدر وجوده. وهم لا يسعهم إلا الإقرار بذلك، أكتفي بتوجيه هذا التقرير إلى كل سامع.

قال الشهاب: أي: الحمل على الإقرار بما دخلت عليه، والمقرر به من ينكر البعث. وقد علم أنهم يقولون: نعم، قد مضى دهر طويل لا إنسان فيه، فيقال لهم: فالذي أوجدهم بعد أن لم يكونوا، كيف يمتنع عليه إحيائهم بعد موتهم؟

وأما المراد بالإنسان هو نوع الإنسان من بني آدم أتى عليه حين من الدهر هو أربعون يوما نطفة ثم أربعون يوما علقة ثم أربعون يوما مضغة وكل ذلك شيء ولكنه لم يكن مذكورا أي ضعيفا.

{إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ} استئناف بياني مترتب على التقرير السابق.

{مِنْ نُطْفَةٍ} وأدمج في ذلك كيفية خلق الإنسان من نطفة التناسل لما في تلك الكيفية من دقائق العلم الإلهي والقدرة والحكمة.

{أَمْشَاجٍ} ذات أخلاط، وهي موادها المؤلفة منها. يعني: ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور، وحال إلى حال، ولون إلى لون.

وفيه بيان مبدأ خلق الإنسان وله أطوار في وجوده بعد النطفة علقة ثم مضغة ثم خلقا آخر وكل ذلك من لا شيء قبله، كما قال تعالى: {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً} [مريم:٩].

{نَبْتَلِيهِ} نختبره بأمر عظيم. أي: خلقناه مريدين ابتلاءهُ في المستقبل، أي بعد بلوغه طور العقل والتكليف، لا خلقا عبثاً ولا سدى.. كقوله: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا} [الملك:٢]

وقدم قبل الجملة التالية للاهتمام بهذا الابتلاء الذي هو سبب السعادة والشقاوة

{فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} جعلنا له سمعا وبصرًا يتمكن بهما من الطاعة والمعصية.

أو لننظر هل صرف سمعه وبصره إلى استماع آيات الله والنظر فيها.

وفرع على خلقه {من نطفة} أنه جعله {سميعا بصيرا}، وذلك إشارة إلى ما خلقه الله له من الحواس التي كانت أصل تفكيره وتدبيره، ولذلك جاء وصفه بالسميع البصير بصيغة المبالغة ولم يقل فجعلناه: سامعا مبصرا، لأن سمع الإنسان وبصره أكثر



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

تحصيلا وتمييزا في المسموعات والمبصرات من سمع وبصر الحيوان، فبالسمع يتلقى الشرائع ودعوة الرسل، وبالبصر ينظر في أدلة وجود الله وبديع صنعه.

{إِنَّا هَدَيْنَاهُ} الهداية هنا بمعنى «البيان»، كما في قوله تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} [فصلت:١٧].

كما أن الهداية الحقيقية بخلق التوفيق فضلا من الله على من شاء، كما في قوله تعالى: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص:٥٦]

{السَّبِيلَ} الطريق السوي من سبيل الخير والشر، والنجاة والهلاك، أي: عرّفناه وبيَّنا له ذلك، بأدلة العقل والسمع. كقوله تعالى: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد:١٠]

{إِمَّا شَاكِرًا} بالاهتداء والأخذ فيه {وَإِمَّا كَفُورًا} بالإعراض عنه.

كما في الحديث: (كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا) [مسلم]

وفي مسند أحمد، قال –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ، النَّاسُ غَادِيَانِ: فَمُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، وَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُهَا) [إسناده قوي]

وروى أحمد بسند حسن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (مَا مِنْ خَارِجٍ يَخْرُجُ –يَعْنِي مِنْ بَيْتِهِ– إِلَّا بِبَابِهِ رَايَتَانِ: رَايَةٌ بِيَدِ مَلَكٍ، وَرَايَةٌ بِيَدِ شَيْطَانٍ، فَإِنْ خَرَجَ لِمَا يُحِبُّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، اتَّبَعَهُ الْمَلَكُ بِرَايَتِهِ، فَلَمْ يَزَلْ تَحْتَ رَايَةِ الْمَلَكِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ، وَإِنْ خَرَجَ لِمَا يُسْخِطُ اللهَ، اتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ بِرَايَتِهِ، فَلَمْ يَزَلْ تَحْتَ رَايَةِ الشَّيْطَانِ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ).

قال الرازي: قال القفال: ومجاز هذه الكلمة على هذا التأويل قول القائل: قد نصحت لك، إن شئت فاقبل، وإن شئت فاترك، أي: فإن شئت فتحذف الفاء. فكذا المعنى {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ} فإما شاكراً وإما كفوراً، فتحذف الفاء.

وقد يحتمل أن يكون ذلك على جهة الوعيد. أي: إنا هديناه السبيل فإن شاء فليكفر، وإن شاء فليشكر؛ فإنا أعتدنا للكافرين كذا وللشاكرين كذا. كقوله: {وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ} [الكهف:٢٩]. انتهى.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال في «النهر»: لما كان الشكر قلّ من يتصف به قال: {شَاكِراً} ولما كان الكفر كثيراً من يتصف به ويكثر وقوعه من الْإِنْسَانْ بخلاف الشكر قال: {كَفُوراً} بصيغة المبالغة. انتهى. وهذا ألطف من القول بمراعاة رؤوس الآي.

والآيات تشير إلى إنعام الله تعالى على العبد، وقد ذكر تعالى نعمتين عظيمتين:

الأولى: إيجاد الإنسان من العدم بعد أن لم يكن شيئا مذكورا، وهذه نعمة عظمى لا كسب للعبد فيها.

والثانية: الهداية بالبيان والإرشاد إلى سبيل الحق والسعادة، وهذه نعمة إرسال الرسل وإنزال الكتب ولا كسب للعبد فيها أيضا.

وقد قال العلماء هناك ثلاث نعم لا كسب للعبد فيها:

الأولى: نعمة وجوده بعد العدم.

الثانية: نعمة الإيمان.

الثالثة: نعمة دخول الجنة.

وقالوا: الإيجاد من العدم تفضل من الله تعالى كما قال: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} [الشورى:٤٩-٥٠]، ومن جعله الله عقيما فلن ينجب قط.

والثانية الإنعام بالإيمان كما في قوله تعالى: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [القصص:٥٦].

وقد جاء في الحديث: (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ) [البخاري]. وكون المولود يولد بين أبوين مسلمين لا كسب له في ذلك.

والثالثة الإنعام بدخول الجنة، كما في الحديث: (لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ) قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (لَا وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ) [البخاري]



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ونعمة دخول الجنة تأتي ضمنا في ذكر النتيجة: {إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً} لأن الأبرار هم الشاكرون.

إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١)

{إِنَّا أَعْتَدْنَا} أي أعددنا، بدالين، أي: هيئنا للكافرين، يقال: اعتد كما يقال: أعد، قال تعالى: {وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً} [يوسف: ٣١].

غير أن الاستعمال خص الفعل ذا التاء بعدة الحرب، فقالوا: عتاد الحرب ولم يقولوا عداد.

{لِلْكَافِرِينَ} ابتدأ بجزاء الكافر لأن ذكره أقرب، وأكد الخبر عن الوعيد بحرف التأكيد لإدخال الروع عليهم لأن المتوعد إذا أكد كلامه بمؤكد فقد أذن بأنه لا هوادة له في وعيده.

{سَلَاسِلَ} ليقادوا بها ويستوثق بها منهم شداً في الجحيم، وبين تعالى نوع هذه السلاسل بذراعها في قوله تعالى: {فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً} [الحاقة: ٣٢].

{وَأَغْلَالًا} الغل: حلقة كبيرة من حديد توضع في رقبة المقيد، وتناط بها السلسلة، فالأغلال والسلاسل توضع لهم عند سوقهم إلى جهنم.

{وَسَعِيرًا} النار المسعرة، أي التي سعرها الموقدون بزيادة الوقود ليشتد التهابها.

كما قال تعالى: {إِذِ الأغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ} [غافر: ٧١-٧٢].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{إِنَّ الْأَبْرَارَ} جمع بَر، وجمع بار أيضا، و البَر أو البار المكثر من البِر وهو فعل الخير، ولذلك كان البَر من أوصاف الله تعالى قال تعالى: {إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ} [الطور:٢٨].

ووصف بَر أقوى من بار في الاتصاف بالبِر، ولذلك يقال: الله بَر، ولم يقال: الله بار.

وأخر تفصيله عن تفصيل جزاء الكفور مع أن {شَاكِراً} مذكور قبل {كَفُوراً}، على طريقة اللف والنشر المعكوس ليتسع المجال لإطناب الكلام على صفة جزاء الشاكرين وما فيه من الخير والكرامة، تقريبا للموصوف من المشاهدة المحسوسة.

وتأكيد الخبر عن جزاء الشاكرين لدفع إنكار المشركين أن يكون المؤمنين خيرا منهم في عالم الخلود، و وَلِإِفَادَةِ الاهتمام بهذه البشارة بالنسبة إلى المؤمنين.

{يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ} خمر، أطلقت عليها للمجاورة.

وابتدأ في وصف نعيمهم بنعيم لذة الشرب من خمر الجنة لما للذة الخمر من الاشتهار بين الناس، وكانوا يتنافسون في تحصيلها.

والكأس: الإناء المجعول للخمر، فلا يسمى كأسا إلا كان فيه خمر، وقد تسمى الخمر كأسا بهذا الاعتبار كما سيجيء قريبا قوله تعالى: {وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً} [الإنسان:١٧]

{كَانَ مِزَاجُهَا} ما تمزج به {كَافُورًا} في طيب رائحتها كالكافور.

ولما كان الكافور من أطيابهم كان كناية عما يطيب به مما له عرف ذكي.. وقد علم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة في الجنة.

ولعل ذلك كان من شأن أهل الترف لأن الكافور ثمين وهو معدود في العطور.

وإقحام فعل {كان} في جملة الصفة بقوله: {كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً} لإفادة أن ذلك مزاجها لا يفارقها إذ كان معتاد الناس في الدنيا ندرة ذلك المزاج لغلاء ثمنه وقلة وجدانه.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وشرب أهل الجنة على سبيل الترفه والتلذذ فهم لا يشربون عن ظمأ كما في قوله تعالى لآدم: {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى} [طه:١١٨-١١٩]

{عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا} بمعنى: «منها» {عِبَادُ اللَّهِ} الأبرار. وهو إظهار في مقام الإضمار للتنويه بهم بإضافة عبوديتهم إلى الله تعالى إضافة تشريف.

{يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} يثيرونها من منابعها في روض الجنة، إثارة مبهجة، تفنناً في النعيم.

والتفجير: هو الإنباع، وفتح الأرض عن الماء.. أي: استنباط الماء الغزير، وأطلق هنا على الاستقاء منها بلا حد ولا نضوب، فكان كل واحد يفجر لنفسه ينبوعا.

وقيل: يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم.

{يُوفُونَ} الوفاء: أداء ما وجب على المؤدي وافيا دون نقص ولا تقصير فيه.

وجيء بصيغة المضارع للدلالة على تجدد وفائهم بما عقدوا عليه ضمائرهم من الإيمان والعمل الصالح، وذلك مشعر بأنهم يكثرون نذر الطاعات وفعل القربات ولولا ذلك لما كان الوفاء بالنذر موجبا الثناء عليهم.

{بِالنَّذْرِ} استئناف مسوق لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر من النعيم، مشتمل على نوع تفصيل لما ينبئ عنه اسم الأبرار إجمالاً، كأنه قيل: ماذا يفعلون حتى ينالوا تلك الرتبة العالية؟ فقيل: يوفون بما أوجبوه على أنفسهم من النذر، فكيف بما أوجبه الله تعالى عليهم؟

{وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ} للدلالة على تمكن الخبر من المخبر عنه وإلا فإن شر ذلك اليوم ليس واقعا في الماضي وإنما يقع بعد مستقبل بعيد، ويجوز أن يجعل ذلك من التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيها على تحقق وقوعه.

{شَرُّهُ} عذابه {مُسْتَطِيرًا} منتشراً ظاهراً للغاية عام على الناس إلا من رَحِمَ الله.

السين والتاء في استطار للمبالغة وأصله طار مثل استكبر. والطيران مجازي مستعار لانتشار الشيء وامتداده تشبيها له بانتشار الطير في الجو، ومنه قولهم:



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

«الفجر المستطير» وهو الفجر الصادق الذي ينتشر ضوءه في الأفق، ويقال: «استطار الحريق» إذ انتشر وتلاحق.

** والجملة عطف على {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ} لأنهم لما وصفوا بالعمل بما ينذرونه أتبع ذلك بذكر حسن نيتهم وتحقق إخلاصهم في أعمالهم لأن الأعمال بالنيات فجمع لهم بهذا: «صحة الاعتقاد، وحسن الأعمال».

** والمراد بالخوف خوف في الدنيا من ذنوب تجر إليهم العقاب في ذلك اليوم. وليس المراد أنهم يخافون في ذلك اليوم فإنهم في ذلك اليوم آمنون.

** ووصف اليوم بأن له شرا مستطيرا وصفا مشعرا بعلة خوفهم إياه. فالمعنى: إنهم يخافون شر ذلك اليوم فيتجنبون ما يفضي بهم إلى شره من الأعمال المتوعد عليها بالعقاب.

{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى} بمعنى: مع {حُبِّهِ} مع حب الطعام واشتهاؤه، كما قال تعالى: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [آل عمران:٩٢]

أو على حب الله تعالى، لما سيأتي من قوله: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ} [الإنسان:٩]

وخصص الإطعام بالذكر لما في إطعام المحتاج من إيثاره على النفس كما أفاد قوله: {عَلَى حُبِّهِ}.

** والتصريح بلفظ الطعام مع أنه معلوم من فعل {يُطْعِمُون} توطئة ليبنى عليه الحال وهو {عَلَى حُبِّهِ} فإنه لو قيل: "ويطعمون مسكينا ويتيما وأسيرا" لفات في قوله {عَلَى حُبِّهِ} من معنى إيثار المحاويج على النفس، على أن ذكر الطعام بعد {يُطْعِمُون} يفيد تأكيدا مع استحضار هيئة الإطعام حتى كأن السامع يشاهد الهيئة.

{مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} مأسوراً من حرب أو مصلحة. وإنما اقتصر على الثلاثة لأنهم من أهم من تجدر الصدقة عليهم؛ فإن المسكين عاجز عن الاكتساب لما يكفيه. واليتيم مات من يعوله ويكتسب له، مع نهاية عجزه بصغره. والأسير لا يملك لنفسه نصراً ولا حيلةً.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

** وجمع أصناف ثلاثة: الأول والثاني من المسلمين غالبا، أما الثالث وهو الأسير فلم يكن لدى المسلمين أسرى إلا من الكفار، وإن كانت السورة مكية إلا أن العبرة بعموم اللفظ كما هو معلوم.

وهذا من محاسن الإسلام وسمو تعاليمه وإن العالم كله اليوم لفي حاجة إلى معرفة هذه التعاليم السماوية السامية حتى مع أعدائه.

كما قال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة:٨]

{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ} قائلين ذلك بلسان الحال أو المقال، وإزاحة لتوهم المنّ المبطل للصدقة، وتوقع المكافأة، أي: لا نقصد بإطعامكم إلا ثوابه تعالى والقربة إليه والزلفى عنده. وإطلاق الوجه على الذات مجاز مشهور.

{لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً} مكافأة أو عوض عن العطية من خدمة وإعانة {وَلَا شُكُورًا} ثناءً ومديحاً.. والجملة مبينة لمضمون جملة: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ}.

{إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا} عذاب يوم {عَبُوسًا} شديداً مظلماً. أو تعبس فيه الوجوه من شدة مكارهه وطول بلائه، والعبس: كلوح الوجه وعدم انطلاقه.

{قَمْطَرِيرًا} شديد الهول والكرب، والقمطرير: الشديد الصعب من كل شيء.

وفيه تأكيد الخوف بتكرير متعلقة ومرجع التكرير إلى كونه خوف الله لأن اليوم يوم عدل الله وحكمه.

وخوفهم من اليوم كناية عن عمل ما يؤمنهم فزعه وهوله من الصالحات.

وجملة {إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا} إلى آخرها واقعة موقع التعليل لمضمون جملة {لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً}.

والمعنى: إنهم يقولون ذلك لهم تأنيسا لهم ودفعا لانكسار النفس الحاصل عند الإطعام، أي ما نطعمكم إلا استجابة لما أمر الله، فالمطعم لهم هو الله.

{فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ} بسبب ما ذكر من خوفهم منه {وَلَقَّاهُمْ} جعلهم يلقون، أي جعل لهم {نَضْرَةً} حسن البشرة، وذلك يحصل من فرح النفس ورفاهية



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

العيش، قال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ} [القيامة:٢٢] فمثل إلقاء النضرة على وجوههم بزج أحد إلى لقاء أحد على طريقة التمثيل.

{وَسُرُورًا} في القلوب.

وفاء {فَوَقَاهُمُ} للتفريع، وفي هذا التفريع تلوين للحديث عن جزاء الأبرار وأهل الشكور، وهذا برزخ للتخلص إلى عود الكلام على حسن جزاءهم أن الله وقاهم شر ذلك اليوم وهو الشر لمستطير المذكور آنفا، وقاهم إياه جزاء على خوفهم إياه وأنه لقاهم نظرة وسرورا جزاء على ما فعلوا من خير.

وهذه كقوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ} [عبس:٣٨-٣٩].

وذلك أن القلب إذا سُرَّ استنار الوجه، قال كعب بن مالك في حديثه الطويل: "فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنْ السُّرُورِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ" [البخاري]

وعَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قَالَتْ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- دَخَلَ عَلَيَّ مَسْرُورًا تَبْرُقُ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ.

**وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (٢٢)**



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا} على طاعة الله واجتناب محارمه والدعوة لسبيله واحتمال الأذى.

والجملة دمج الجامع لأحوال التقوى والعمل الصالح كله لأن جميعه لا يخلوا عن تحمل النفس لترك محبوب أو فعل ما فيه كلفة، ومن ذلك إطعام الطعام على حبه.

{جَنَّةً وَحَرِيرًا} منزلا رحبا، وعيشا رَغَدًا، ولباسًا حَسَنًا يلبسونه ويتزينون به.

وكان الجزاء برفاهية العيش إذ جعلهم في أحسن المساكن وهو الجنة، وكساهم أحسن الملابس وهو الحرير الذي لا يلبسه إلا أهل فرط اليسار، فجمع لهم حسن الظرف الخارج وحسن الظرف المباشر وهو اللباس.

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة هشام بن سليمان الدّارَاني قال: قرئ على أبي سليمان الداراني سورة: {هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ} فلما بلغ القارئ إلى قوله: {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} قال بما صبروا على ترك الشهوات في الدنيا، ثم أنشد:

كَم قَتيل بشَهوةٍ وأسير ... أفّ مِنْ مُشتَهِي خِلاف الجَميلِ

شَهوَاتُ الإنْسان تورثه الذُّل ... وَتُلْقيه في البَلاء الطَّويلِ

{مُتَّكِئِينَ فِيهَا} الاتكاء: جلسة بين الجلوس والاضطجاع يستند فيها الجالس على مرفقه وجنبه ويمد رجليه وهي جلسة ارتياح، وكانت من شعار الملوك وأهل البذخ، ولهذا قال النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (أَمَّا أَنَا فَلَا آكُلُ مُتَّكِئًا) [الترمذي وصححه الألباني]، قال تعالى: {وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً} [يوسف: ٣١]

{عَلَى الْأَرَائِكِ} جمع أريكة: وهي سرير عليه وسادة معها سِتْرٌ وَهُوَ حَجَلَتُهُ، وَالْحَجَلَةُ: كِلَّة تنصب فوق السرير لتقي الحر والشمس، ولا يسمى السرير أريكة إلا إذا كان معه حَجَلَة.

وقيل: كل ما يتوسد ويفترش مما له حشو يسمى أريكة، وإن لم تكن له حَجَلَة.

وقيل أن الأريكة السرير بالحبشية فهي من المعرب في القرآن.

{لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا} حر أشعتها، فنفي رؤية الشمس كناية عن نفي وجود الشمس الذي يلزمه انتفاء حر شعاعها.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَلَا زَمْهَرِيرًا} شديد البرد.. أي: لا حراً ولا برداً، من باب ذكر الملزوم وإرادة اللازم.

والمعنى: أن هواء الجنة معتدل لا ألم فيه بحال. وفي كلام الرابعة من نساء حديث أم زرع: (زَوْجِي كَلَيْلِ تِهَامَةَ لَا حَرَّ وَلَا قَرَّ وَلَا مَخَافَةَ وَلَا سَآمَةَ).

(كَلَيْلِ تِهَامَةَ): أي مكة وما والاها، وليلها مما يضرب به المثل في الحسن فليل تهامة طلق لا يؤذي بحر ولا برد، فشبهته به في خلوه من الأذى والمكروه.. (لا حَرٌّ): مفرط، (ولا قَرٌّ): برد، [لأن الحر والبرد كلاهما فيه أذى إذا اشتد] (ولا سآمة): ملل: أي لا يسأمني، فيمل صحبتي.. وصفته بطيب العشرة وحسنها واعتدال حاله وسلامة باطنه، وعدم شره، فلا تخاف أذاه ولا تسأم منه.

{وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا} دنو الظلال: قربها منهم، وإذ لم يعهد وصف الظل بالقرب يظهر أن دنو الظلال كناية عن تدلي الأدواح [الشجرة العظيمة المتشعبة ذات الفروع الممتدة] التي من شأنها أن تظلل الجنات في معتاد الدنيا ولكن الجنة لا شمس فيها فيستظل من حرها، فتعين أن تركيب {دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا} مثل يطلق على تدلي أفنان الجنة لأن الظل المظلل للشخص لا يتفاوت بدنو ولا بعد.

والمعنى: أن أدواح الجنة قريبة من مجالسهم وذلك مما يزيدها بهجة وحسنا، وهو في معنى قوله تعالى: {قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ} [الحاقة:٢٣]. ولذلك عطف عليه جملة {وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً}

{وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا} جمع قِطْف، وهو العنقود من التمر أو العنب، سمي قطفا، لأنه يقصد قطفه، فإطلاق القطف عليه مجاز باعتبار المآل شاع في الكلام.

{تَذْلِيلًا} مصدر مؤكد لذلك، أي تذليلا شديدا منتهيا.

أي: سهّلت ثمارها لمتناوليها. فلا يردّ أيديهم عنها بُعْدٌ ولا شوك. متى تعاطاه دنا القطْفُ إليه وتدلى من أعلى غصنه، كأنه سامع طائع، كما قال تعالى: {وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ} [الرحمن:٥٤] وقال تعالى: {قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ} [الحاقة:٢٣]

قال مجاهد: إن قام ارتفعت بقَدْره، وإن قعد تَدَلَّتْ له حتى ينالها، وإن اضطجع تَدَلَّت له حتى ينالها، فذلك قوله: {تَذْلِيلا}.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ} أواني الطعام {مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ} جمع كوب، وهي الكيزان التي لا عرى لها ولا خراطيم.

{كَانَتْ قَوَارِيرَا} والقوارير جمع قارورة والعرب تطلق القارورة على إناء الزجاج خاصة، ولكن الآية صريحة في أنها قوارير من فضة مما يدل على صحة إطلاق القارورة على غير آنية الزجاج كالفضة مثلا.

{قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ} قال صاحب اللسان: والقارورة: ما قر فيه الشراب وغيره، وقيل لا يكون إلا من الزجاج خاصة. وقوله تعالى {قَوَارِيرَا قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ}، قال بعض أهل العلم معناه أواني زجاج في بياض الفضة وصفاء القوارير قال ابن سيده وهذا أحسن ا هـ.

قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن البصري، وغير واحد: بياض الفضة في صفاء الزجاج، والقوارير لا تكون إلا من زجاج. فهذه الأكواب هي من فضة، وهي مع هذا شفافة يرى ما في باطنها من ظاهرها، وهذا مما لا نظير له في الدنيا.

قال ابن المبارك، عن إسماعيل، عن رجل، عن ابن عباس: "ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة". رواه ابن أبي حاتم.

** ولفظ {قوارير} الثاني، يجوز أن يكون تأكيدا لفظيا لنظيره لزيادة تحقيق أن لها رقة الزجاج فيكون الوقف على {قوارير} الأول.

ويجوز أن يكون تكريرا لإفادة التصنيف فإن حسن التنسيق في آنية الشراب من مكملات رونق مجلسه، فيكون التكرير مثل ما في قوله تعالى: {وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً} [الفجر: ٢٢] وقول الناس: "قرأت الكتاب بابا بابا" فيكون الوقف على {قوارير} الثاني.

** ووصفت هنا بأنها من فضة، أي تأتيهم آنيتهم من فضة في بعض الأوقات ومن ذهب في أوقات أخرى كما دل عليه قوله {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ} [الزخرف:٧١] لأن للذهب حسنا وللفضة حسنا فجعلت آنيتهم من المعدنين النفيسين لئلا يفوتهم ما في كل من الحسن والجمال، أو يطاف عليهم بآنية من فضة وآنية من ذهب متنوعة متزاوجة لأن ذلك أبهج منظرا مثل ما قاله مرة {وَحُلُّوا



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ} [الإنسان:٢١]، ومرة: {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ} [الكهف:٣١] وذلك لإدخال المسرة على أنفسهم بحسن المناظر فإنهم كانوا يتمنونها في الدنيا لعزة وجودها أو وجود الكثير منها، وأوثر ذكر آنية الفضة هنا لمناسبة تشبيهها بالقوارير في البياض.

{قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا} مفعول مطلق مؤكد لعامله للدلالة على وفاء التقدير وعدم تجاوزه المطلوب ولا تقصيره عنه.

أي: قدرها لهم السقاة على قدر ريّهم لا يزيد ولا ينقص. وهو ألذّ للشارب، لكونه على مقدار حاجته، لا يفضل عنها ولا يعجز، وهذا أبلغ في الاعتناء والشرف والكرامة. وكان مما يعد في العادة من حذق الساقي أن يعطي كل أحد من الشرب ما يناسب رغبته.

وفي تفسير هاتين الآيتين الكريمتين، نورد ما قاله علماء التفسير:

«آنية»: جمع مفرده إناء، ككساء وأكسية، وهو وعاء الماء قدح لا عروة له. وقوله: {من فضة} أي مصنوعة من فضة.

وراح العلماء في تأويلهم مذاهب شتى كلها تستهدف تقريب الصورة إلى الأذهان، فمن قائل: «إنها مع صفاء قواريرها تكون آمنة من الكسر» ومن قائل: «إن الكلام على التشبيه البليغ، وأن المراد أنها تكون جامعة بين صفاء القارورة وشفيفها ولين الفضة وبياضها». ويقول البغوي: هي في صفاء الزجاج يرى ما في داخلها من خارجها.

ويسوق بعضهم تفسيرا لابن عباس –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما– مفاده أن أرض الجنة من فضة وأواني كل أرض تتخذ من تربة الأرض فالآنية إذا مخلوقة من فضة حقيقة وليس تشبيها، وهذا ما يفيده سياق النص الكريم، وكذلك القوارير مصنوعة من الفضة أيضا.

{قدروها تقديرا} قال بعضهم: قدروها في أنفسهم، وأرادوا أن تكون على مقادير وأشكال معينة موافقة لشهواتهم، فجاءت حسبما قدروها تقديرا.

أو قدروها بأعمالهم الحسنة فجاءت على حسبها. وهكذا يكون الضمير في «قدروها» عائدا على أهل الجنة.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال آخرون: بل الضمير عائد على السقاة الذين يطوفون على أهل الجنة، فقدروا شرابها على قدر استوائهم وريهم من غير زيادة ولا نقصان، وهو ألذ للشارب لكونه على مقدار حاجته، فإن طرفي الاعتدال مذمومان، كما قال مجاهد: «لا غيض فيها ولا فيض» أي لا كثر ولا قلة.

وفي العربية –لغة القرآن التي نزل– نحن نعلم أن «القدر» له معان عدة:

قدر الرزق: قسمه، والتقدير بمعنى التعظيم وتدبير الأمر وقياس الشيء بالشيء. والقدر الوسط من الرحال والسروج. وقدرت الثوب فانقدر جاء على المقدار، وكانوا يقولون «غرس علي القدَرَة» حين يغرس أحدهم على حد معلوم بين كل نخلتين، وقدره تقديرا: جعله قدريا أي على قياس وتدبير وتقدير معلوم ثابت، لا زيادة فيه ولا نقصان.

والخلاصة أن الطائفين من أهل الجنة يسقونهم بآنية من فضة فيها ماء يرويهم، وهذا الماء مقدر على قدر حاجتهم تماما. لا يغيض ولا يفيض. فالسقاة قدروا ريهم وكفايتهم، فقدروها لهم ثم سقوهم منها، أو أن أهل الجنة بحسب منازلهم وأعمالهم الحسنة يسقون منها من غير زيادة ولا نقصان.

والإعجاز العلمي في هذه الآية الكريمة يتجلى في نقطتين اثنتين:

الأولى: كون الآنية من فضة.

الثانية: وصف هذه الآنية بقوله تعالى: {قدروها تقديرا} بلا زيادة ولا نقصان .. فهي ذات حجم ومقدار ثابت تماما، وحتى تتضح الصورة الإعجازية العلمية في هذه الآية الكريمة، سأحدثكم عن العلاقة بين جزئيات المادة من وجهة نظر الفيزياء.

من المعلوم أن هناك قوى تجاذب بين جزيئات المواد الفيزيائية، فقوى التجاذب بين جزيئات المادة نفسها «المادة الواحدة» نسميها «قوى التماسك» بينما نسمي قوى التجاذب بين جزيئات مادة ومادة أخرى مختلفة عنها «قوى الالتصاق» كالذي يظهر بين جزيئات السائل وبين جزيئات الإناء الحاوي له، وإننا نلاحظ بالعين المجردة أن السائل ليس له شكل ثابت بسبب ضعف قوى التماسك بين جزيئاته. فهو يأخذ شكل الإناء الذي يوضع فيه، وينتج من وضع السائل في الإناء بعض الظواهر الفيزيائية



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

المرئية بالعين المجردة حسبنا تكون قوى الالتصاق أكبر أو أصغر من قوى التماسك أو مساوية لها.

فلو وضعنا ماء في وعاء زجاجي نلاحظ أن سطح الماء يكون مقعرا، أما لو وضعنا في الوعاء سائلا آخر كالزئبق مثلا نلاحظ أن سطحه سيكون محدبا، فالسائل في وعاء الزجاج «القوارير» يكون ذا سطح مقعر أو محدب لسبب بسيط هو أن قوى الالتصاق بين جزيئات الماء وجزيئات الزجاج أكبر من قوى التماسك بين جزيئات الماء نفسها فيتقعر سطح الماء، في حين تكون قوى الالتصاق بين جزيئات الزئبق وجزيئات الزجاج أصغر من قوى التماسك بين جزيئات الزئبق نفسها فيتحدب السطح.

ويمكن توضيح ذلك بيانيا برسم مستقيم مماس لسطح السائل عند تلامسه مع جدار الإناء الحاوي له، فإن هذا المماس سيحصر في بطن السائل زاوية واقعة بينه وبين جدار الإناء وسنسمي هذه الزاوية «زاوية التلامس» ونرمز لها بالرمز «هـ»، والملاحظ أن الزاوية «هـ» تأخذ حالة من إحدى ثلاث حالات:

١- «هـ» < ٩٠ درجة ومثال هذه الحالة إناء زجاجي مملوء بالماء، والتفسير الفيزيائي لذلك أن قوى الالتصاق أكبر من قوى التماسك.

٢- «هـ» > ٩٠ درجة، ومثال هذه الحالة إناء زجاجي مملوء بالزئبق، والتفسير الفيزيائي لذلك أن قوى الالتصاق أقل من قوى التماسك. ولا ننسى هنا أن الزئبق معدن سائل.

وهنا يبرز سؤال علمي: وماذا لو تساوت قوى الالتصاق مع قوى التماسك؟

الجواب: بالطبع هذا وارد، وهو موطن الإعجاز في الآية الكريمة موضوع البحث {قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا}.

فقد لاحظ علماء الفيزياء أنه لو وضعنا ماء في كوب مصنوع من الفضة فإن الماء سيكون مستوي السطح تماما «ليس معقرا ولا محدبا» وبالتالي سنكون أمام الحالة الثالثة وهي:

٣- «هـ» = ٩٠ درجة «زاوية قائمة» بسبب تساوي قوى الالتصاق مع قوى التماسك.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وتبرز روعة الإعجاز فيما لو حاول أحدنا تقدير حجم السائل في وعاء ما، فمتى سيكون التقدير دقيقا تماما؟

إذا كان سطح السائل مقعرا؟ أم إذا كان سطح السائل محدبا؟ مع ملاحظة أن التقعر والتحدب أمران متفاوتان حسب نوع السائل، ونوع المادة التي صنع منها الإناء.

الواقع أن التقدير لن يكون دقيقا في أي حال من الحالين السابقين، وإنما يكون ثابتا ومحكما إذا كان السطح مستويا تماما، أي إذا كانت زاوية التماس بين سطح هذا السائل وجدار وعائه قائمة (٩٠ درجة).

وهذا لا يكون إلا في حال كان السائل ماء نقيا صالحا للشرب وكان وعاؤه من فضة. وهذا ما ذكره القرآن الكريم: {قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا} وكما قال الخازن –يرحمه الله–: قدروا الكؤوس على قدر ريهم وكفايتهم لا تزيد ولا تنقص.

هل عرف سيدنا محمد –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أو من عاصره هذه الحسابات الفيزيائية أم أنه تنزيل رب العالمين؟

[مقال: {قوارير من فضة} وإعجاز فيزيائي جديد، مجلة الوعي الإسلامي الكويتية، العدد ٤٧٢، ذو الحجة ١٤٢٥هـ، يناير ٢٠٠٥م، بقلم د. محمد فتحي راشد الحريري]

ثم أتبع وصف الآنية ومحاسنها بوصف الشراب الذي يحويه وطيبه، فقال:

{وَيُسْقَوْنَ فِيهَا} الجنة {كَأْسًا} خمرا، ولا تسمى آنية الخمر كأسا إلا إذا كان فيها خمر.

{كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا} وكانت العرب يستلذون الشراب الممزوج به.

وهذه سقية أخرى، أي مرة يشربون من كأس مزاجها الكافور، ومرة يسقون كأسا مزاجها الزنجبيل.

{عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا} وصف قيل مشتق من السلاسة وهي السهولة واللين، فهي شديدة الجري المنسابة بنوع خاص بهيج.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ} جمع وليد، ويطلق الوليد على الصبي مجازا مشهورا، لقصد تقريب عهده بالولادة، وأحسن ما يتخذ للخدمة الولدان لأنهم أخف حركة وأسرع مشيا ولأن المخدوم لا يتحرج إذا أمرهم أو نهاهم.

{مُخَلَّدُونَ} دائم شبابهم لا يتغيرون عن تلك السن.. وهذا للاحتراس مما يوهمه اشتقاق {ولدان} من أنهم يشبون ويكتهلون، أي لا تتغير صفاتهم فهم ولدان دوما، وإلا فإن خلود الذوات في الجنة معلوم، فما كان ذكره إلا لأنه تخليد خاص.

{إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا} إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة، وكثرتهم، وصباحة وجوههم، وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم، حسبتهم لؤلؤا منثورا. ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن.

قال قتادة، عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو: ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف خادم، كل خادم على عمل ما عليه صاحبه.

{وَإِذَا} أفادت معنى الشرطية فدل على أن رؤية النعيم لا تتخلف عن بصر المبصر هنالك فأفاد معنى: لا ترى إلا نعيما، أي بخلاف ما يرى في جهات الدنيا. {رَأَيْتَ} خطاب لغير معين، أي إذا رآه الرائي {ثَمَّ} هناك، يعني في الجنة ونعيمها وسَعَتها وارتفاعها وما فيها من الحَبْرَة والسرور {رَأَيْتَ} نظرت في الجنة، ورميت بطرفك ما أوتي الأبرار {نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا} واسعاً لا ينفذه البصر. والكبير مستعار للتعظيم وهو زائد على النعيم بما فيه من رفعة وتذليل للمصاعب.

{عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ} ما رقّ من الحرير، والظاهر أنه لا يكون إلا أخضر اللون {خُضْرٌ} واللون الأخضر أمتع للعين وكان من شعار الملوك.

{وَإِسْتَبْرَقٌ} هو ما غلظ من الديباج وهو نسج من نسج الفرس واسمه فارسي.

أي: لباس أهل الجنة فيها الحرير، ومنه سندس، وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان، وهو مما يلي الظاهر، كما هو المعهود في اللباس.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَحُلُّوا أَسَاوِرَ} جمع سور وهو حلي شكله أسطواني فارغ الوسط يلبسه النساء في معاصمهن ولا يلبسه من الرجال إلا الملوك، والمعنى: أن حال رجال أهل الجنة حال الملوك.

وقد ود في الحديث أن عمر –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قال: أَيْنَ سُرَاقَةُ بْنُ جُعْشُمٍ فَأُتِيَ بِهِ أَشْعَرَ الذِّرَاعَيْنِ دَقِيقَهُمَا فَأَعْطَاهُ سِوَارَىْ كِسْرَى فَقَالَ: الْبَسْهُمَا فَفَعَلَ فَقَالَ: قُلِ اللَّهُ أَكْبَرُ قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ قَالَ: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَلَبَهُمَا كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ وَأَلْبَسَهُمَا سُرَاقَةَ بْنَ جُعْشُمٍ أَعْرَابِيًّا مِنْ بَنِى مُدْلِجٍ.[السنن الكبرى للبيهقي]

{مِنْ فِضَّةٍ} وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون فكما قال: {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} [الحج:٢٣]

{وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا} خمرا {طَهُورًا} هذا احتراس مما يوهمه شربهم من الكأس الممزوجة بالكافور والزنجبيل من أن يكون فيها ما في أمثالها المعروفة في الدنيا ومن الْغَوْلِ [ما يغتال العقول] وسوء القول والهذيان، فعبر عن ذلك بكون شرابهم طهورا بصيغة المبالغة في الطهارة وهي النزاهة من الخبائث، أي منزها عما في غيره من الخباثة والفساد.

وأسند سقيه إلى ربهم إظهارا لكرامتهم، أي أمر هو بسقيهم كما يقال: أطعمهم رب الدار وسقاهم.

وقيل: ليس برجس كخمر الدنيا. أو لأنه لم يعصر فتمسه الأيدي الوضرة، وتدوسه الأقدام الدنسة، ولم يجعل في الدنان التي لم يُعْنَ بتنظيفها. والآية مما يستروح بها في نجاسة الخمر، لما فيها من التعريض بها.

{إِنَّ هَذَا} ما أعدّ من ألوان النعيم الموصوف فيما مضى من الآيات.

{كَانَ} للدلالة على تحقيق كونه جزاء لا منا عليهم بما لم يستحقوا، فإن من تمام الإكرام عند الكرام أن يتبعوا كرامتهم بقول ينشط له المكرم ويزيل عنه ما يعرض من خجل ونحوه، أي هو جزاء حقا لا مبالغة في ذلك.

{لَكُمْ جَزَاءً} على ما قدمتم من الصالحات.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أي: يقال لهم ذلك تكريما لهم وإحسانا إليهم، كقوله: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأيَّامِ الْخَالِيَةِ} [الحاقة:٢٤] وكقوله: {وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف:٤٣]

{وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا} مجازىً عليه غير مضيَّع، بل جزاكم الله على القليل بالكثير.

** فعلاوة على إيناسهم بأن ما أغدق عليهم كان جزاء لهم على ما فعلوا بأن سعيهم الذي كان النعيم جزاء عليه، هو سعي مشكور، أي مشكور ساعيه، فأسند المشكور إلى السعي.

**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦)**

{إِنَّا} أفادت تأكيد الخبر للاهتمام {نَحْنُ} ضمير تأكيد لفظي للتنبيه على العظمة المنوطة بالحكمة وأقصى الصواب.

{نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ} استئناف ابتدائي، وقيل استئناف انتقالي لتثبيت الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– والربط على قلبه لدفاع أن تلحقه آثار الغم على تصلب قومه في كفرهم وتكذيبهم بما أنزل عليه مما شأنه أن يوهن العزيمة البشرية.

{تَنْزِيلًا} عظيماً لا يقدر قدره: فأمره الحق ووعده الصدق. والقصد تثبيت قلبه صلوات الله عليه، وشرح صدره وتحقيق أن المنزل وحي، وعدم المبالاة برميهم له بالسحر والكهانة.

وقد بين تعالى كيفية التنزيل مفرقا في قوله تعالى: {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً} [الإسراء:١٠٦] وفيه تعريض بالمشركين الذين قالوا: {لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً} [الفرقان:٣٢] فجعلوا تنزيله مفرقا شبهة في أنه ليس من عند الله.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{فَاصْبِرْ} فرع على هذا التمهيد أمره بالصبر على أعباء الرسالة وما يلقاه فيها من أذى المشركين، وشد عزيمته أن لا تخور.

{لِحُكْمِ رَبِّكَ} من الصدع به، والتبليغ لآيه، والعمل بأوامره، واعلم أنه سَيُدَبرك بحسن تدبيره.

وسمى ذلك حكما لأن الرسالة عند الله لا خيرة للمرسل في قبولها والاضطلاع بأمورها، ولأن ما يحف بها من مصاعب إصلاح الأمة وحملها على ما فيه خيرها في العاجل والآجل، وتلقي أصناف الأذى في خلال ذلك حتى يتم ما أمر الله به، كالحكم على الرسول بقبول ما يبلغ منتهى الطاقة إلى أجل معين عند الله.

{وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ} المشركين، ولم يتقدم لهم ذكر لأنهم معلومون من سياق الكلام {آثِمًا} الفاجر في أفعاله {أَوْ كَفُورًا} والآثم والكفور متلازمان فكان ذكر أحد الوصفين مغنيا عن الآخر، ولكن جمع بينهما لتشويه حال المتصف بهما، كما قال تعالى: {وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ} [البقرة: ٢٧٦].

أي: ولا تطع في معصيته تعالى من مشركي مكة، من ركب الإثم وجاهر بالكفر، ممن يريدك الرجوع عن دعوتك، بما شئت من مال أو مطلب.

{أَوْ} إما على بابها من معنى التخيير. أي: لا تطع من كان فيه أحد هذين الوصفين، فالنهي عمن اجتمعا فيه يعلم بالطريق الأولى. وإما بمعنى «الواو».

** ولما كان من ضروب إعراضهم عن قبول دعوته ضرب فيه رغبات منهم مثل أن يترك قرعهم بقوارع التنزيل من تأفين رأيهم وتحقير دينهم وأصنامهم، وربما عرضوا عليه الصهر معهم، أو بذل المال منهم، أعقب أمره بالصبر على ما هو من ضروب الإعراض من صلابة وشدة، بأن نهاه عن أن يطيعهم في الضرب الآخر من ضروب الإعراض الواقع في قالب اللين والرغبة.

وفي هذا النهي تأكيد للأمر بالصبر لأن النهي عنه يشمل كل ما يرفع موجبات الصبر المراد هنا.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

والمقصود من هذا النهي تَأْيِيسُهُمْ من استجابته لهم حين يقرأ عليهم هذه الآية لأنهم يحسبون أن ما عرضوه عليه سيكون صارفا له عما هو قائم به من الدعوة إذ هم بُعَدَاءُ عن إدراك ماهية الرسالة ونزاهة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

** والطاعة: امتثال الطلب بفعل المطلوب وبالكف عن المنهي عنه، فقد كان المشركون يعمدون إلى الطلب من النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أن يفعل ما يرغبون، مثل طرد ضعفاء المؤمنين من المجلس، والإتيان بقرآن غير هذا أو تبديله بما يُشَايِعُ أحوالهم، وأن يكف عما لا يريدون وقوعه من تحقير آلهتهم، والجهر بصلاته، فحذره الله من الاستماع إلى قولهم وإياسهم من حصول مرغوبهم.

** ومقتضى الظاهر أن يقول: ولا تطعهم، أو ولا تطع منهم أحدا، فعدل عنه إلى {آثِماً أَوْ كَفُوراً} للإشارة بالوصفين إلى أن طاعتهم تفضي إلى ارتكاب إثم أو كفر، لأنهم في ذلك يأمرونه وينهونه غالبا فهم لا يأمرون إلا بما يلائم صفاتهم.

فالمراد بالآثم والكفور: الصنفان من الموصوفين وتعليق الطاعة المنهي عنها بهذين النوعين مشعر بأن الوصفين علة في النهي.

** وفي ذكر هذين الوصفين إشارة أيضا إلى زعيمين من زعماء الكفر والعناد وهما عتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، لأن عتبة اشتهر بارتكاب المآثم والفسوق، والوليد اشتهر بشدة الشكيمة في الكفر والعتو. وقد كانا كافرين فأشير إلى كل واحد منهما بما هو عَلَمٌ فِيهِ بَيْنَ بَقِيَّةِ الْمُشْرِكِينَ من كثرة المآثم لأولهما. والمبالغة في الكفر لثانيهما، فلذلك صيغت له صيغة المبالغة "كفور".

وقيل عرض عتبة على النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أن يرجع عن دعوة الناس إلى الإسلام ويزوجه ابنته وكانت من أجمل نساء قريش. وعرض الوليد علية أن يعطيه من المال ما يرضيه ويرجع عن الدعوة، وكان الوليد من أكثر قريش مالا، وهو الذي قال الله في شأنه {وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً} [المدثر:١٢]. فيكون في إيثار هذين الوصفين بالذكر إدماج لذمهما والتلميح لقصتهما.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ} بدعائه وتسبيحه والصلاة له {بُكْرَةً وَأَصِيلًا} أولَ النهار وآخره.. والمراد بهما استغراق أوقات النهار كلها المحدودة منها كأوقات الصلوات وغير المحدود كأوقات النوافل، والدعاء والاستغفار.

{وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ} بالتهجد فيه {وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا} مقداراً طويلاً، نصفه أو زيادة عليه، أي: صل له بالليل تهجدا، وليس المقصود ذكر اللسان، فالغالب إطلاق مادة التسبيح على الصلاة النافلة.. وفي هذه الأوامر، مع الأمر في أول المزمّل وأمثالها ما يدل على العناية بقيام الليل والحرص عليه.

وهذا إرشاد إلى ما فيه عون له على الصبر على ما يقولون.. والقصد حثه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن يستعين في دعوة قومه والصدع بما أمر به، بالصبر على أذاهم والصلاة والتسبيح وقد كثر ذلك في مواضع من التنزيل كقوله:

{وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ} [البقرة:٤٥]

{فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} [ق:٣٩-٤٠]

{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ} [الحجر:٩٧-٩٨]

{وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً، رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً، وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ} [المزمل:٨-١٠].

## إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨)

{إِنَّ هَؤُلَاءِ} المشركين {يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ} لذات الدنيا العاجلة، فيسعون لها جهدهم، وإن أهلكوا الحرث والنسل، وعبر بصيغة المضارع التي تدل على تكرر ذلك، أي أن ذلك دأبهم وديدنهم لا يشاركون مع حب العاجلة حب الآخرة.

** وكثر في القرآن إطلاق العاجلة على الدنيا كقوله: {كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ} [القيامة:٢٠-٢١] فشاع بين المسلمين تسمية الدنيا بالعاجلة.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

** وفي إيثار ذكر الدنيا بوصف العاجلة توطئة للمقصود من الذم لأن وصف العاجلة يؤذن بأنهم آثروها لأنها عاجلة. وفي ذلك تعريض بتحميقهم إذ رضوا بالدون لأنه عاجل وليس ذلك من شيم أهل التبصر، فقوله: {وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً} واقع موقع التكميل لمناط ذمهم وتحميقهم لأنهم لو أحبوا الدنيا مع الاستعداد للآخرة لما كانوا مذمومين.. قال تعالى حكاية لقول الناصحين لقارون {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} [القصص:٧٧].

وهذا نظير قوله تعالى: {يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم:٧] إذ كان مناط الذم فيه هو أن قصروا أنفسهم على علم أمور الدنيا مع الإعراض عن العلم بالآخرة.

{وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا} شديداً، لثقل حسابه وشدته وعسره، وهو يوم القيامة.

** ومثلوا بحال من يترك شيئا وراءه فهو لا يسعى إليه وإنما يسعى إلى ما بين يديه.. وإنما أعرضوا عنه لأنهم لا يؤمنون بحلوله فكيف يسعون إليه.

** وصيغة المضارع في {يذرون} تقتضي أنهم مستمرون على ذلك، وأن ذلك متجدد فيهم ومتكرر لا يتخلفون عن ذلك الترك لأنهم لا يؤمنون بحلول ذلك اليوم، فالمسلمون لا يذرون وراءهم هذا اليوم لأنهم لا يخلون من عملٍ له على تفاوت بينهم في التقوى.

** واليوم الثقيل: هو يوم القيامة، وصف بالثقيل على وجه الاستعارة لشدة ما يحصل فيه من المتاعب والكروب فهو كالشيء الثقيل الذي لا يستطاع حمله.

والثقل: مستعار للشدة والعسر قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [لأعراف: ١٨٧] وقال: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً} [المزمل:٥]

** والآية تعليل للنهي عن إطاعتهم في قوله: {وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً} [الإنسان:٢٤]، أي لأن خلقهم الانكباب على الدنيا مع الإعراض عن الآخرة إذ هم



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

لا يؤمنون بالبعث، فلو أطاعهم لتخلق بخلقهم قال تعالى: {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ} [النساء:٨٩]

{نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ} خلقهم وأعضاء بناهم.

والأسر: الربط بقوة، مأخوذ من الأسر هو جلد البعير رطبا وهو القيد، وسمي الأسير أسيرا لشد قيده بقوة بجلد البعير الرطب، وهو هنا تقويه بشد ربط الأعضاء المتحركة في الإنسان في مفاصله بالعصب والأربطة، وهو كناية عن الإتقان والقوة في الخلق.

فلما كان الكفار ينكرون وقوع يوم القيامة وكان الباعث لهم على إنكاره شبهة استحالة إعادة الأجساد بعد بلاها وفنائها، جيء هنا بما هو دليل للإنكار عليهم وإبطال لشبهتهم ببيان إمكان إعادة خلقهم يعيده الذي خلقهم أول مرة، كما قال تعالى: {فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الإسراء:٥١] وغير ذلك من الآيات الحائمة حول هذا المعنى.

{وَإِذَا} تفيد اليقين بوقوع ما قيد بها بخلاف حرف {إن} فهو إيماء إلى أن حصول هذه المشيئة مستقرب الوقوع.

{شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا} بإهلاكهم والإتيان بآخرين. وهذا محط الترهيب، وما قبله كالتعليل له.. فالجملة تهديدا لهم على إعراضهم وجحودهم للبعث.

كقوله: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا} [النساء:١٣٣] وكقوله: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} [إبراهيم: ١٩– ٢٠، وفاطر: ١٦– ١٧]

**إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)**

{إِنَّ هَذِهِ} السورة، أو الآيات القريبة.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{تَذْكِرَةٌ} عظة لمن اعتبر واتعظ، مصدر ذكره، أي أكلمه كلاما يُذكره به ما عسى أن يكون نسيه.. أطلقت هنا على الموعظة بالإقلاع عن عمل سيء، والإقبال على عمل صالح، وعلى وضوح الخير والشر لمن تذكر، أي تبصر بتشبيه حالة المعرض عن الخير المشغول عنه بحالة الناسي له لأن شأنه ألا يفرط فيه إلا من كان ناسيا لما فيه من نفع له.

{فَمَنْ شَاءَ} حث على المبادرة بذلك لأن مشيئة المرء في مِكْنَتِهِ فلا يمنعه منها إلا سوء تدبيره.

{اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا} بالطاعة الموصلة لقربه، وإيصال السبيل للمقاصد، فهو تمثيل.. وهذه السبيل هي التوبة فالتائب مثل الذي كان ضالا، أو آبقا فاهتدى إلى الطريق التي يرجع منها إلى مقصده، أو سلك الطريق إلى مولاه.

** والآية استئناف ابتدائي للانتقال من بسط التذكير والاستدلال إلى خلاصة الغرض وحوصلته، إشعارا بانتهاء المقصود وتنبيها إلى فائدته، ووجه الانتفاع به، والحث على التدبر فيه، واستثمار ثمرته، وباعتبار ما تفرع عن هذه الجملة من قوله: {فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ} الخ يقوى موقع الغرض من الجملة وتأكيد الكلام بحرف {إن} لأن حال المخاطبين عدم اهتمامهم بها فهم ينكرون أنها تذكرة.

{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} قال ابن جرير: أي: وما تشاءون اتخاذ السبيل إلى ربكم إلا أن يشاء الله ذلك لكم، لأن الأمر إليه لا إليكم، أي: لأن ما لم يشأ الله وقوعه من العبد، لا يقع من العبد، وما شاء منه وقوعه، وقع. وهو رديف: "ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن"، هذا تأويل السلف.

{إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا} بأحوالهم وما يكون منهم {حَكِيمًا} في تدبيره وصنعه وأمره.

قال ابن كثير: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} أي: لا يقدر أحد أن يَهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان ولا يجر لنفسه نفعًا، {إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} أي: عليم بمن يستحق الهداية فَيُيَسّرها له، ويقيض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ} لأنه واجب له العلم والحكمة فهو أعلم، فمن شاء أن يدخله في رحمته ومن شاء أبعده عنها.

قال أبو السعود: بيان لإحكام مشيئته المترتبة على علمه وحكمته، أي: يدخل في رحمته من يشاء أن يدخله فيها، وهو الذي يصرف مشيئته نحو اتخاذ السبيل إليه تعالى، حيث يوفّقه لما يؤدي إلى دخول الجنة من الإيمان والطاعة.

{وَالظَّالِمِينَ} وهم الذين صرفوا مشيئتهم إلى خلاف ما ذكر {أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} عذاب النار.

وقاناه الله بمنه وكرمه.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بسم الله الرحمن الرحيم

# مع سورة المرسلات

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فِي غَارٍ بِمِنًى إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِ وَالْمُرْسَلَاتِ وَإِنَّهُ لَيَتْلُوهَا وَإِنِّي لَأَتَلَقَّاهَا مِنْ فِيهِ وَإِنَّ فَاهُ لَرَطْبٌ بِهَا إِذْ وَثَبَتْ عَلَيْنَا حَيَّةٌ فَقَالَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (اقْتُلُوهَا) فَابْتَدَرْنَاهَا فَذَهَبَتْ فَقَالَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (وُقِيَتْ شَرَّكُمْ كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا)

وروى أحمد –بسند صحيح– عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أُمِّهِ، أَنَّهَا "سَمِعَتِ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا.

وفي مسلم عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ أُمَّ الْفَضْلِ بِنْتَ الْحَارِثِ سَمِعَتْهُ وَهُوَ يَقْرَأُ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَقَالَتْ يَا بُنَيَّ لَقَدْ ذَكَّرْتَنِي بِقِرَاءَتِكَ هَذِهِ السُّورَةَ إِنَّهَا لَآخِرُ مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقْرَأُ بِهَا فِي الْمَغْرِبِ.

وهي مكية عند جمهور المفسرين من السلف، وذلك ظاهر حديث ابن مسعود المذكور آنفا، وهو يقتضي أنها من أوائل سور القرآن نزولا لأنها نزلت والنبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مختف في غار بمنى مع بعض أصحابه.

**وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧)**

{وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا} اختلف في {وَالْمُرْسَلاتِ} و {الْعَاصِفَاتِ} {وَالنَّاشِرَاتِ}.

فقيل: هي الرياح وقيل الملائكة أو الرسل و{عُرْفاً} أي متتالية يتبع بعضهم بعضا كعرف الفرس وهو الشعر الذي على رقبته.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

والواقع أن كلام ابن جرير يفيد أنه لا مانع عنده من إرادة الجميع لأن المعنى محتمل ولا مانع عنده.

فهو إما «قسم بالملائكة» المرسلة بأمر الله ونهيه إذا أرسلت متتابعة كعُرْف الفَرَس أو أرسلت بالعُرْف أي المعروف –ضد المنكر–، وأن نصبه على المفعول لأجله، أي لأجل الإرشاد والصلاح.

أو هو «قسم بالرياح» إذا هَبَّت شيئا فشيئا قوية متسارعة.

أو «قسم بالرسل» من بني آدم المبعوثة بتبليغ الرسالة وبث المعروف بين الناس.

{فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا} الرياح الشديدة الهبوب، السريعات الممرّ.. ترسل فتعصف، والعصف يطلق على: «قوة هبوب الريح».

فإن أريد بالمرسلات وصف الرياح فالعصف حقيقة، وإن أريد بالمرسلات وصف الملائكة فالعصف تشبيه لنزولهم في السرعة بشدة الريح، وذلك في المبادرة في سرعة الوصول بتنفيذ ما أمروا به.

{وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا} حقيقة النشر أنه ضد «الطي» ويكثر استعماله مجازا في الإظهار والإيضاح وفي الإخراج.

فهي الرياح التي تنشر السحاب والمطر، كما قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء} [الروم:٤٨]، أو الملائكة التي تنشر الشرائع والعلم والحكمة والنبوة والهداية في الأرض.

** قال ابن كثير: والأظهر أن: {الْمُرْسَلات} هي الرياح، كما قال تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ} [الحجر:٢٢]، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} [الأعراف:٥٧] وهكذا العاصفات هي: الرياح، يقال: عصفت الريح إذا هَبَّت بتصويت، وكذا الناشرات هي: الرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء، كما يشاء الرب عز وجل.

** قال ابن عاشور: ويتجه في توزيعها أن الصفات التي عطفت بالفاء تابعة لجنس ما عطفت هي عليه، والتي عطفت بالواو يترجح أنها صفات جنس آخر.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فالأرجح أن المرسلات والعاصفات صفتان للرياح، وأن ما بعدها صفات للملائكة، والواو الثانية للعطف وليست حرف قسم. ومناسبة الجمع بين هذين الجنسين في القسم أن كليهما من الموجودات العلوية لأن الأصل في العطف بالواو أن يكون المعطوف بها ذاتا غير المعطوف عليه.

{فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا} الملائكة التي تفرق بين الحق والباطل بإنزال الوحي والتنزيل. أو بالآيات القرآنية التي تفرق كذلك.

وإن جعل وصفا للرياح فهو من آثار النشر، أي فرقها جماعات السُحب على البلاد.

أو السُحب التي نَشرن الموات ففرقن بين من يشكر الله تعالى وبين من يكفر، كقوله: {لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} [الجن:١٦]

{فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا} الملائكة الملقيات ذكر الله إلى أنبيائه، والمبلغات وحيه.

والإلقاء مستعار لتبليغ الذكر من العالم العلوي إلى أهل الأرض بتشبيهه بإلقاء شيء من اليد إلى الأرض.

وإلقاء الذكر تبليغ المواعظ إلى الرسل ليبلغوها إلى الناس وهذا الإلقاء متفرع على الفرق لأنهم يخصون كل ذِكر بمن هو محتاج إليه، فذكر الكفار بالتهديد والوعيد بالعذاب، وذكر المؤمنين بالثناء والوعد بالنعيم.. وهذا معنى {عُذْراً أَوْ نُذْراً}

{عُذْرًا أَوْ نُذْرًا} إعذاراً من الله لخلقه، وإنذاراً منه لهم، والإنذار الإعلام المقترن بتهديد، ومجيء {أو} بمعنى الواو.

أي: الملقيات ذكراً للإعذار والإنذار، ولإزالة إعذارهم، وإنذارهم عقاب الله تعالى إن عصوا أمره.

** والمقصود من هذا القسم تأكيد الخبر، وفي تطويل القسم تشويق السامع لتلقي المقسم عليه.

{إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ} جواب القسم، أي: ما وعدتم به من قيام الساعة، والنفخ في الصور، وبعث الأجساد، وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ومجازاة كل



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

عامل بعمله، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، إن هذا كله {لَوَاقِعٌ} أي: لكائن لا محالة. كقوله: {وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ} [الذاريات:٦]

** وزيدت الجملة تأكيدا بـ {إن} لتقوية تحقيق وقوع الجواب. فـ {إنّما} كلمتان هما "إن" التي هي حرف تأكيد و"ما" الموصولة وليست هي "إنما" التي هي أداة حصر، والتي "ما" فيها زائدة. وقد كتبت هذه متصلة "إن" بـ "ما" لأنهم لم يكونوا يفرقون في الرسم بين الحالتين، والرسم اصطلاح، ورسم المصحف سنة في المصاحف ونحن نكتبها مفصولة في التفسير وغيره.

** والله تعالى يقسم بما شاء على ما شاء لأن المقسم به من مخلوقاته العظيمة الدالة على عظيم علم الله تعالى وقدرته.. واختيار ما يقسم به هنا أو هناك غالبا يكون لنوع مناسبة، ولو تأملناه هنا لوجدنا المقسم عليه هو يوم القيامة وهم مكذبون به، فأقسم لهم بما فيه إثبات القدرة عليه فالرياح عرفا تأتي بالسحاب تنشره ثم يأتي المطر ويحيي الله الأرض بعد موتها.

وهذا من أدلة القدرة على البعث والعاصفات منها بشدة وقد تقتلع الأشجار وتهدم البيوت مما لا طاقة لهم بها ولا قدرة لهم عليها وما فيها من الدلالة على الإهلاك والتدمير وكلاهما دال على القدرة على البعث.

ثم تأتي الملائكة بالبيان والتوجيه والإعذار والإنذار

**فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥)**

{فَإِذَا} فاء التفريع على قوله: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ} لأنه لما أفاد وقوع البعث وكان المخاطبون ينكرونه ويتعللون بعدم التعجيل بوقوعه، بين لهم ما يحصل فيه وزيادة في تهويله عليهم.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{النُّجُومُ طُمِسَتْ} محقت أو ذهب ضياؤها، كقوله: {وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ} [التكوير:٢]، وقوله: {وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ} [الانفطار:٢]. وطمس النجوم يقتضي طمس نور الشمس.

{وَإِذَا} كررت في أوائل الجمل المعطوفة على هذه الجملة بعد حروف العطف مع إغناء حرف العطف عن إعادة {إذا} كما في قوله: {فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ، وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، يَقُولُ الْإِنْسَانُ} [القيامة:٧-١٠] الآية، لإفادة الاهتمام بمضمون كل جملة من هذه الجمل ليكون مضمونها مستقلا في جعله علامة على وقوع ما يوعدون.

{السَّمَاءُ فُرِجَتْ} تفرق ما كان ملتحما من هيكلها.. أي: انفطرت وانشقت وتصدعت، وتدلت أرجاؤها، وَوَهَت أطرافها. كما في قوله تعالى {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ} [الانشقاق:١] {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ} [الانفطار:١].. وكل ذلك مفض إلى انقراض العالم الدنيوي بجميع نظامه ومجموع أجسامه.

{وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ} اقتلعت من أماكنها بسرعة فكانت هباءً منبثاً وذُهِب بها، فلا يبقى لها عين ولا أثر.. وهذا يوم القيامة، وما يكون لها من عدة أطوار من: دك وتفتيت وبث وتسيير كالسحاب ثم كالسراب.

{وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ} أجّلت للاجتماع لوقتها يوم القيامة للشهادة على أممهم والفوز بما وعدوه من الكرامة.

** وفي نظم هذه الجملة غموض ودقة. فأما {أقتت} فأصله «وقتت» بالواو في أوله، يقال: وقت وقتا، إذا عين وقتا لعمل ما، مشتقا من الوقت وهو الزمان، فلما بني للمجهول ضمت الواو وهو ضم لازم لأن ضمة الواو ضمة عارضة، فجاز إبدالها همزة لأن الضم على الواو ثقيل فعدل عن الواو إلى الهمزة.

** وشأن {إذا} أن تكون لمستقبل الزمان فهذا التأقيت للرسل توقيت سيكون في المستقبل، وهو علامة على أن ما يوعدون يحصل مع العلامات الأخرى.

** والمعنى: حضرت ميقاتها الذي وقت لها، وهو قول ابن عباس: جمعت. وفي "اللسان" عن الفراء: أقتت جمعت لوقتها، وذلك قول الله تعالى: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الرُّسُلَ} [المائدة:١٠٩] وقوله: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً} [النساء:٤١].

** وبناء هذه الأفعال الثلاثة بصيغة المبني للمجهول لأن المقصود الاعتبار بحصول الفعل لا بتعيين فاعل، على أنه من المعلوم أن فاعلها هو الله تعالى إذ لا يقدر عليه غيره.

{لِأَيِّ} استفهام مستعمل للتهويل {يَوْمٍ أُجِّلَتْ} أخرت وأرجئ أمرها عن معاجلة الثواب والعقاب حتى تقوم الساعة.

والمعنى ليوم عظيم أخرت أمور الرسل. وهو تعذيب الكفرة وإهانتهم، وتعظيم المؤمنين ورعايتهم، وظهور ما كانت الرسل تذكره من أحوال الآخرة وأهوالها، ولذا عظم شأن اليوم، وهول أمره بالاستفهام.

كما قال تعالى: {فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [إبراهيم:٤٧-٤٨]

{لِيَوْمِ الْفَصْلِ} أجلت ليوم الفصل بين الخلائق، وتمييز الحق من الباطل بالقضاء والجزاء إذ بذلك يزول الالتباس والاشتباه والتمويه الذي كان لأهل الضلال في الدنيا فتتضح الحقائق على ما هي عليه في الواقع.

كما بينه تعالى بقوله:

{هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ} [المرسلات:٣٨]

{ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ} [هود:١٠٣].

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ} يوم الفصل بين السعداء والأشقياء.

والأصل: وما أدراك ما هو، وإنما أظهر في مقام الإضمار لتقوية استحضار يوم الفصل قصدا لتهويله وتعظيمه، مثل: {الْقَارِعَةُ، مَا الْقَارِعَةُ} [القارعة:١-٢].

{وَيْلٌ} الويل: أشد السوء والشر {يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} بيوم الفصل، كما قال تعالى: {الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ} [المطففين:١١]، والتكذيب به إنكار البعث له والحشر إليه.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

** حمل هذه الجملة عن نظائرها الآتية في هذه السورة يقتضي أن تجعل استئنافا لقصد تهديد المشركين الذين يسمعون القرآن، وتهويل يوم الفصل في نفوسهم ليحذروه

أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩)

{أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ} الأمم الماضين المكذبين بالرسل والجاحدين بالآيات، كقوم نوح، وعاد، وثمود.. والجملة استئناف، والاستفهام للتقرير، والتعريف في {الأولين} تعريف العهد.

{ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ} ممن أشبههم من قوم لوط وموسى ومن بعدهم، فنسلك بهم سبل أولئك، وهو وعيد لأهل مكة.

وحرف {ثم} للتراخي الرتبي، لأن إهلاك الآخرين أشد من إهلاك الأولين لأنه مسبوق بإهلاك آخر.

{كَذَلِكَ} مثل ذلك الأخذ العظيم {نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ} بكل من أجرم وطغى وبغى، أي تلك سنة الله في معاملة المجرمين فلا محيص لكم عنها.

وذكر وصف {المجرمين} إيماء إلى أن سبب عقابهم بالإهلاك هو إجرامهم.

و «المجرمون» من ألقاب المشركين في اصطلاح القرآن، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ} [المطففين:٢٩] وسيأتي في هذه السورة {كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ} [المرسلات:٤٦].

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} بأخبار الله التي ذكرها في هذه الآية، الجاحدين قدرته على ما يشاء.. تقرير لنظيره المتقدم وتأكيدا للتهديد وإعادة لمعناه.

والمراد بالمكذبين: المخاطبون فهو إظهار في مقام الإضمار لتسجيل أنهم مكذبون، والمعنى: ويل يومئذ لكم.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤)

{أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ} للابتداء لأن تكوين الإنسان نشأ من ذلك الماء كما تقول هذه النخلة من نواة.

{مَاءٍ مَهِينٍ} من نطفة ضعيفة.. مَهُنَ، إِذَا ضَعُفَ، وليس هو من مادة «هَانَ».. وهذا الوصف كناية عن عظيم قدرة الله تعالى، إذ خلق من هذا الماء الضعيف إنسانا شديد القوة عقلا وجسما.

والآية تقرير جيء به على طريقة تعداد الخطاب في مقام التوبيخ والتقريع.

وقد جاء هنا التقرير على ثبوت الإيجاد بعد العدم إيجادا متقنا دالا على كمال الحكمة والقدرة ليفضى بذلك التقرير إلى التوبيخ على إنكار البعث والإعادة وإلى إثبات البعث بإمكانه إعادة الخلق كما بدئ أول مرة، وكفى بذلك مرجحا لوقوع هذا الممكن لأن القدرة تجري على وفق الإرادة بترجيح جانب إيجاد الممكن على عدمه.

{فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ} رحم استقر فيها فتمكّن.. وقد بين تعالى أنه الرحم بقوله تعالى: {وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [الحج:٥]

{إِلَى قَدَرٍ} بفتح الدال: المقدار المعين المضبوط {مَعْلُومٍ} وقت معلوم لخروجه من الرحم، هو مدة الحمل إلى السقط أو الولادة.. فهي أقدار مختلفة وآجال مسماة.

{فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ} قرئ بالتخفيف والتشديد، أي: فقدَرنا على ذلك أو قدّرناه.

فيه التمدح بالقدرة على ذلك، وهو حق ولا يقدر عليه إلا الله جل شأنه، كما جاء في قوله {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ} [الواقعة:٥٨-٥٩].

والجمع للتعظيم، مثل نون {فَقَدَرْنَا} فإن القدرة لما أتت بما هو مقتضى الحكمة كانت قدرة جديرة بالمدح.

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} بقدرته تعالى على ذلك، أو على الإعادة.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨)

{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا} وعاء. تقول: هذا كَفْتُ هذا وَكَفِيتُهُ إذا كان وعاءهُ. والكفت الضم.

{أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا} أي: ألم نجعل الأرض كفات أحيائكم وأمواتكم، تكفت أحياءكم في المساكن والمنازل فتضمهم فيها وتجمعهم، وأمواتكم في بطونها في القبور فيدفنون فيها؟.. قال الشعبي: بطنها لأمواتكم، وظهرها لأحيائكم.

{وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ} جبالاً شاهقات مرتفعات أرسى بها الأرض لئلا تميد وتضطرب.

{وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا} عذباً زُلالا من السحاب، أو مما أنبعه الله من عيون الأرض.

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} ويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها، ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره.

انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤)

{انْطَلِقُوا} يقال لهؤلاء المكذبين بهذه النعم وبالمعاد والجزاء والجنة والنار.. يقال لهم يوم القيامة: انطلقوا {إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} جهنم أو تكذبون عذاب الله للكفرة والفجرة.

{انْطَلِقُوا} تكرير لقصد التوبيخ أو الإهانة والدفع {إِلَى ظِلٍّ} دخان جهنم لكثافته، فعبر عنه بالظل تهكما بهم لأنهم يتشوقون ظلا يأوون إلى برده.

وأفرد {ظل} هنا لأنه جعل لهم ذلك الدخان في مكان واحد ليكونوا متراصين تحته لأن ذلك التراص يزيدهم ألما.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ} فِرَق، وذلك دخان جهنم المرتفع من وقودها، إذا تصاعد تفرّق شعباً ثلاثاً، لعظمه.

قال الشهاب: فيه استعارة تهكمية لتشبيه ما يعلو من الدخان بالظل، وفيه إبداع، لأن الظل لا يعلو ذا الظل.

{لَا ظَلِيلٍ} الظليل: القوي في ظلاله، أي ليس هو مثل ظل المؤمنين كما قال تعالى: {وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً} [النساء:٥٧]. وفي هذا تحسير لهم وهو في معنى قوله تعالى: {وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ، لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ} [الواقعة:٤٤]. أي: وظلٍّ من دخان شديد السواد.

وهو تهكم بهم؛ لأن الظل لا يكون إلا ظليلاً، أي: مظللاً؛ فنفيه عنه للدلالة على أن جعله ظلاً تهكم بهم، ولأنه ربما يتوهم أن فيه راحة لهم، فنفي هذا الاحتمال بقوله:

{وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ} لا يردّ عنهم من لهب النار شيئاً. والمعنى أنه لا يظلهم من حرّها ولا يكنّهم من لهبها.. وبذلك سلب عن هذا الظل خصائص الظلال لأن شأن الظل أن ينفس عن الذي يأوي إليه ألم الحر.

{إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ} تقذف كل شررة كالقصر في عظمها، والقصر واحد القصور.. قال ابن جرير: العرب تشبّه الإبل بالقصور المبنية.

ولم يقل: كالقصور. والشرر جمع، كما قيل: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} [القمر:٤٥] ولم يقل: "الأدبار" لأن الدبر بمعنى الأدبار؛ وذلك توفيقاً بين رؤوس الآي ومقاطع الكلام؛ لأن العرب تفعل ذلك كذلك وبلسانها نزل القرآن.

{كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ} جمع جمل، ونظيرهُ: رجال ورِجالات {صُفْرٌ} في لونها، فإن الشرار بما فيه من النارية يكون أصفر. وقيل: صفر أي: سود.

قال قتادة وغيره: أي: كالنوق السود، واختاره ابن جرير: زاعماً أنه المعروف من كلام العرب.

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} تكرير لقصد تهديد المشركين الأحياء.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠)

{هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ} لا يتكلمون بحجة، أو في وقت من أوقاته؛ لأنه يوم طويل ذو مواقف ومواقيت وحالات. أو جعل نطقهم بلا نطق، لأنه لا ينفع ولا يسمع فلا ينافي آيات:

{وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام:٢٣]

{وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثاً} [النساء:٤٢]

{ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} [الزمر:٣١]

{وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} لا يمهد لهم الإذن في الاعتذار، لعدم قبول معذرتهم بقيام الحجة عليهم. وإنما لم يقل: فيعتذروا؛ محافظة على رؤوس الآي.

** واعلم أنه لا تعارض بين هذه الآية وبين الآيات التي جاء فيها ما يقضي أنهم يعتذرون نحو قوله تعالى: {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ} [غافر:١١] لأن وقت انتفاء نطقهم يوم الفصل.

وأما نطقهم المحكي في قوله: {رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ} فذلك صراخهم في جهنم بعد انقضاء يوم الفصل، وبنحو هذا أجاب ابن عباس نافع بن الأزرق حين قال نافع: إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي قال الله {وَلا يَتَسَاءَلُونَ} [المؤمنون:١٠١]، وقال {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ} [الصافات:٢٧] فقال ابن عباس: لا يتساءلون في النفخة الأولى حين نفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض فلا يتساءلون حينئذ، ثم في النفخة الثانية أقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} تكرير لتهديد المشركين.

{هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ} الحق بين العباد {جَمَعْنَاكُمْ} حشرناكم فيه {وَالْأَوَّلِينَ} من الأمم الهالكة.. كما قال تعالى: {قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ} [الواقعة:٤٩-٥٠].



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ} احتيال للتخلص من العذاب {فَكِيدُونِ} فكان تخلصا إلى توبيخ الحاضرين على ما يكيدون به للرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وللمسلمين وأن كيدهم زائل، وأن سوء العقبى عليهم. كقوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً، وَأَكِيدُ كَيْداً، فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً} [الطارق:١٥–١٧]

قال الزمخشري: "تقريع لهم على كيدهم لدين الله وذويه، وتسجيل عليهم بالعجز والاستكانة".

فالأمر للتعجيز، والشرط للتوبيخ والتذكير بسوء صنيعهم في الدنيا، والتسجيل عليهم بالعجز عن الكيد يومئذ حيث مكنوا من البحث عما عسى أن يكون لهم من الكيد فإذا لم يستطيعوه بعد ذلك فقد سجل عليهم العجز، وهذا من العذاب الذي يعذبونه إذ هو من نوع العذاب النفساني وهو أوقع على العاقل من العذاب الجسماني.

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} الذين لا حيلة لهم في دفع العقاب.

**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)**

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ} الذين اتقوا عقاب الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه.. والتعريف في {المتقين} للاستغراق فلكل واحد من المتقين كون في ظلال.

{فِي ظِلَالٍ} وهي ظلال كثيرة لكثرة شجر الجنة كثرة المستظلين بظلها، ولأن كل واحد منهم ظلا يتمتع فيه هو ومن إليه، وذلك أوقع في النعيم.

{وَعُيُونٍ} أنهار تجري خلال الأشجار.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ} يرغبون.. والتبعيض الذي دل عليه حرف «من» تبعيض من أصناف الشهوات لا من أصناف الفواكه، فأفاد أن تلك الفواكه مضمومة إلى ملاذ أخرى مما اشتهوه.

{كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} والمقصود من ذلك القول كرامتهم بعرض تناول النعيم عليهم كما يفعله المضيف بضيوفه.

والباء في {بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} للسببية، أي كلوا واشربوا بسبب ما كنتم تعملون في الدنيا من الأعمال الصالحة، وذلك من إكرامهم بأن جعل ذلك الإنعام حقا لهم.

{إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} في طاعتهم وعبادتهم وعملهم.. مقال مسوق إليهم في مساق زيادة الكرامة بالثناء عليهم، أي: هذا النعيم الذي أنعمت به عليكم هو سنتنا في جزاء المحسنين.

ولم يقل: "نجزي العاملين" مما يشعر بأن الجزاء إنما هو على الإحسان في العمل لا مجرد العمل فقط، فالغاية من التكليف إنما هي الإحسان في العمل {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} [الملك:١-٢].

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} جملة مقابلة ذكر نعيم المؤمنين المطنب في وصفه بذكر ضده للمشركين بإيجاز حاصل من كلمة {ويل} لتحصل مقابلة الشيء بضده، ولتكون هذه الجملة أيضا تأكيدا لنظائرها.

{كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ} حظكم حظ من أجرم، وهو الأكل والتمتع أياماً قلائل في الدنيا، ثم البقاء في الهلاك أبداً.

كما قال تعالى:

{نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} [لقمان:٢٤]

{لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

{إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [يونس:٦٩-٧٠]



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} هو مثل نظيره المذكور في هذه السورة، ويزيد على ذلك ترقب سوء عاقبة لهم فيقع هذا القول موقع البيان، أي كلوا وتمتعوا قليلا الآن وويل لكم يوم القيامة.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا} اخضعوا لهذا الحق الذي نزل، وتواضعوا لقبوله، واخشعوا لذكره.

{لَا يَرْكَعُونَ} لا يخضعون ولا ينقادون ولا يقبلون، تجبراً واستكباراً.

** أو إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة، امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه.. ينعى عليهم مخالفتهم المسلمين في الأعمال الدالة على الإيمان الباطن فهو كناية عن عدم إيمانهم لأن الصلاة عماد الدين.

** وهذه الآية الكريمة من آيات الاستدلال على أن الكفار مؤاخذون بترك الفروع وتقدم التنبيه على ذلك مرارا، والمهم هنا أن أكثر ما يأتي ذكره من الفروع هي الصلاة مما يؤكد أنها هي بحق عماد الدين.

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} الذين كذبوا رسل الله، فردوا عليهم ما بلغوا من أمر الله إياهم ونهيه لهم. وتكرير آية {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} للتأكيد، وهو من المقاصد الشائعة.

وقيل: لا تكرار، لاختلاف متعلق كل منهما.

{فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} أي: بعد هذا القرآن، إذا كذبوا به، مع وضوح برهانه وصحة دلائله، في أنه حق منزل من عنده تعالى. كقوله تعالى: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ} [الجاثية:٦].

** والفاء فصيحة [وهي التي تستخدم في موضع يحذف فيه كلام أو شرط، لكنها تفصح وتدل عليه] تنبئ عن شرط مقدر تقديره: إن لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأي حديث بعده يؤمنون، وقد دل على تعيين هذا المقدر ما تكرر في آيات {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} [المرسلات:٤٩] فإن تكذيبهم بالقرآن وما جاء فيه من وقوع البعث.

والاستفهام مستعمل في الإنكار التعجيبي من حالهم، أي إذا لم يصدقوا بالقرآن مع وضوح حجته فلا يؤمنون بحديث غيره.



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

والمقصود أن القرآن بالغ الغاية في وضوح الدلالة ونهوض الحجة فالذين لا يؤمنون به لا يؤمنون بكلام يسمعونه عقب ذلك.

** وليس المعنى أنهم يؤمنون بحديث جاء قبل القرآن مثل التوراة والإنجيل وغيرهما من المواعظ والأخبار، بل المراد أنهم لا يؤمنون بحديث غيره بعد أن لم يؤمنوا بالقرآن لأنه لا يقع إليهم كلام أوضح دلالة وحجة من القرآن.

** وفيه تنبيه على أنه لا حديث يساويه في الفضل أو يدانيه، فضلاً عن أن يفوقه ويعلوه، فلا حديث أحق بالإيمان منه.

قال ابن أبي حاتم: عن إسماعيل بن أمية: سمعت رجلا أعرابيا بَدَويا يقول: سمعت أبا هريرة يرويه إذا قرأ: {وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا} فقرأ: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ}؟ فليقل: آمنت بالله وبما أنزل.

جمع وترتيب

د/ خالد سعد النجار

alnaggar66@hotmail.com

٠٠٢٠١٢٢٩٥٩٦٦٥٨

مصر



PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com